جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

دفاع عن القرآن

GUQR5323

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2009

المحتويات

الدرس الأول :	الدعاوى والافتراءات الموجه ضد القرآن، ومناهج العلماء في الرد عليها	٧-٢٧
الدرس الثاني :	الأدلة النقلية والعقلية والمنطقية على أن القرآن كلام الله	٢٩-٤٥
الدرس الثالث :	من أدلة الصدق والإعجاز في القرآن نفسه	٤٧-٦٤
الدرس الرابع :	تعريف الطعن في القرآن وتاريخه والتأليف فيه	٦٥-٨٢
الدرس الخامس :	أسباب الطعن في القرآن، وأنواعه، وموقف السلف منه	٨٣-٩٧
الدرس السادس :	الحكمة من وجود المتشابه في القرآن، وأبرز قواعد الرد على المطاعن، وكيف جمع القرآن	٩٩-١١٧
الدرس السابع :	الادّعاءات والشبهات التي تُثار حول جمع القرآن	١١٩- ١٣٥
الدرس الثامن :	الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ	١٣٧-١٥٣
الدرس التاسع :	تابع الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ	١٥٥-١٧٢
الدرس العاشر :	الرد على ادعاء أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره	١٧٣-١٩٠
الدرس الحادي عشر :	الدعاوى المتعلقة بنقل القرآن وجمعه	١٩١-٢٠٧
الدرس الثاني عشر :	تابع الدعاوى المتعلقة بنقل القرآن وجمعه	٢٠٩-٢٢٦

الدرس الثالث عشر :	موقف أبي بن كعب من الجمع العثماني، ودعوى وقوع اللحن في الجمع العثماني	٢٢٧-٢٤٥
الدرس الرابع عشر :	تابع دعوى وقوع اللحن في الجمع العثماني	٢٤٧-٢٦٥
الدرس الخامس عشر :	تابع الملاحظات على كتاب المصاحف لابن أبي داود، والشبهات المتعلقة بالأحرف السبعة (١)	٢٦٧-٢٨٤
الدرس السادس عشر :	الشبهات المتعلقة بالأحرف السبعة (٢)	٢٨٥-٣٠٤
الدرس السابع عشر :	الشبهات المتعلقة بالأحرف السبعة (٣)	٣٠٥-٣٢١
الدرس الثامن عشر :	الشبهات المتعلقة بالقراءات القرآنية، واتهام القرآن بالتناقض	٣٢٣-٣٤٤
الدرس التاسع عشر :	عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن (١)	٣٤٥-٣٦٣
الدرس العشرون :	عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن (٢)	٣٦٥-٣٨٤
الدرس الحادي والعشرون :	عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن (٣)	٣٨٥-٤٠٧
قائمة المراجع العامة :		٤٠٩-٤١٢

الدعاوى والافتراءات الموجه ضد القرآن، ومناهج العلماء في الرد عليها

عناصر الدرس

العنصر الأول : الهدف من دراسة هذه المادة، وتعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحًا ٩
العنصر الثاني : أبرز الأهداف التي يبتغيها أعداء القرآن، ومناهج العلماء في الرد عليها ١٧

الهدف من دراسة هذه المادة، وتعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحًا

الحمد لله، أحمده حمد من لا رب له سواه، وأشكره على جزيل فضله وعطاياه، وأشهد أن الحلال ما أحله، وأن الحرام ما حرمه، وأن الدين ما شرعه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الصراع بين الإسلام وخصومه قد بدأ منذ أن صدع نبينا ﷺ بالدعوة وجهر بها ممتثلًا أمر الله ﷻ: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، ومنذ ذلك الحين لم تضع الحرب أوزارها، ولقد سطَّر التاريخ بأحرف من نور انتصارات كاسحة لجيوش الإيمان والرشاد على جحافل الكفر والإلحاد، ولم تكن انتصارات المسلمين في مجالات الحرب والفتوحات فقط؛ بل كانت في مجالات العقائد، والأديان، والأخلاق، والعلم أيضًا، فأبادت جيوش النور طواغيت الكفر، وقوَّضت عروش الإلحاد، وامتدَّ رواق حضارة الإسلام الخالدة ليستوعب النافع من تراث السابقين، ويضيف إليه الدُّر الثمين، فتقوضت أركان الثقافات الفارسية والرومانية، وتلاشت العادات والتقاليد، والأخلاق الجاهلية، وسطع نور العقيدة الإسلامية في سماء البشرية، فنعمت الدنيا لقرون متعاقبة وهي تتفيَّأ ظلال حضارة تُعلي من شأن العلم وتحثّ عليه، وتجعل منه القيمة العُليا، وركنًا ركينًا في الثقافة الإسلامية الأصيلة.

ودار الزمان دورته وانتقص العالم الإسلامي من أطرافه، ودبَّ الضعف إلى أجزائه، وتتابعت الهزائم العسكرية بعد أن سبقتها ولحقتها الهزائم النفسية، وتقوَّضت أركان الدولة الإسلامية، واتخذت الحرب أشكالًا متعددة، ومظاهر

متنوعة، كان أخطرها تلك المعارك التي أُريد فيها اغتيال الثوابت، والعدوان على الأصول والقواعد، وشنُّ الغارة على التراث الإسلامي، وزلزلة موقف المسلم المعاصر من كتاب ربِّه ﷻ وسنة نبيه ﷺ وما انبثق عنهما من علوم أصيلة وتراث رصين.

وهذه المعارك أشدّ خطورة وأبعد أثرًا في تقويض الحياة الإسلامية؛ لأنها معارك ضدَّ التراث، والثقافة، والعقل المسلم، فهي أشد خطورة؛ لأن ميادينها لا تُعدّ ولا تُحصى، وهي تستهدف المجتمع كله في مناحي حياته، ومعايشه، وتفكيره، وعقائده، وأخلاقه، وآدابه.

وهي أشدُّ خطورة لأن الأساليب التي يتخذها العدوُّ للقتال أساليب تتغير وتتبدل، وأسلحة القتال فيها أخفى الأسلحة؛ فهي أسلحة الجدال المُضلِّل، والمُراء المتلوِّن، والتلبيس المتواصل.

وهذه الأسلحة تؤثر في عقل المثقف المسلم يومًا بعد يوم، وتُحطِّم البناء القائم فيه عبر القرون، وتقيم على أنقاضه البناء الفكري الجديد الذي يرجوه العدوُّ، لقد كانت حرب المعتقدات ومعركة الثقافة كانت هي الدافع إلى تبيين هذه المادة، وإلى تدريس هذه المادة، هذه المادة التي تأتي علاجًا لما خلَّفته الافتراءات والشبهات، والدعاوى، وما روَّجته الجدليات التنصيرية التي تُطلّ على عقول المسلمين، وعلى أفكارهم صباح مساء.

ومن المعلوم أن هناك صراعًا كونيًّا بين الرسالات الكبرى من أجل استحقاق شرف الريادة الإنسانية وقيادتها، تلك القيادة التي تستمدّ مشروعيَّتها من امتلاك الحقيقة المطلقة المؤسسة على الوحي، ولما كان الإسلام قد أثبت صدق دعواه في امتلاك الحقيقة المطلقة، والقدرة على قيادة الإنسانية باختلاف أجناسها،

وشعوبها، وتطلعاتها، وآمالها، وذلك بما أنجزه في حيِّز التطبيق الفعلي في ذلك الاستحقاق؛ حيث استطاع في قرن ونصف من الزمان أن يجمع تحت رايته أكثر من ثُلثي الأرض من بيض وسود، وعرب وعجم، وبربر، وترك، وهنود، وقوقاز، ساوى بينهم في الحقوق والواجبات، وصهرهم في بوتقة ألَّفت أزهى عصور التاريخ حضارة، وعلمًا، وأخلاقًا.

إن تلك القدرة الهائلة للإسلام التي أذهلت أهل الكتاب، تلك القدرة الهائلة جعلتهم يُدركون خسارتهم بمعركة التحدِّي الكونية، بسبب فقد ديانة العهد القديم والعهد الجديد للمقومات الذاتية اللازمة لقيادة الإنسانية، والارتقاء بها حضاريًّا وأخلاقيًّا، فعمدوا إلى سلوك طريق آخر يستهدف إقصاء الإسلام عن الحلبة الكونية نهائيًّا حتى يتسنَّى لهم قيادة السفينة، وامتلاك مقدراتها بما يدَّعون من حقٍّ إلهي مقدس، فكانت المواجهة مع الإسلام، والصراع ضدَّه هي السبيل لتحقيق ذلك الهدف؛ رغبةً منهم في زعزعة عقيدة المسلم وتشكيكه في دينه، مما يقود إلى الخروج من الإسلام، ويكشف لنا هذا الغرض من حرب العقيدة والفكر، يكشف لنا سرَّ المشاركة الفعَّالة لليهود في الصراع ضدَّ الإسلام جنبًا إلى جنب مع النصرانية، رغم كراهيتهم واحتكارهم له؛ إذ إن المسلم الذي يخرج عن دينه لن يصلح للإنسانية في شيء، فيكون خروجه نكاية من اليهودية في الإسلام، فإذا اعتنق النصرانية فذلك نكاية من اليهودية في الإسلام والنصرانية معًا، قال ﷻ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وعلى ذلك يكون الصراع ضدّ الإسلام عملًا يهوديًّا نصرانيًّا مشتركًا، تنوَّعت فيه الأدوار، وتوزَّعت فيه التخصصات ما بين الخبراء، وشركات الأعمال،

والمؤسسات، والإرساليات، والجيوش، ووزارات الخارجية، ووكالات الاستخبارات، وأساتذة الجامعات، والمراكز، والمعاهد العلمية، والمستشرقين.

نعم. لقد عرف أعداء الإسلام أن مصدر عِزة هذا الدين، وأن سرَّ تجدّده في نفوس المسلمين هو هذا القرآن العظيم، الذي لا يخلق من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه ولا يملُّه القارئ والسامع، ولا يزداد به المؤمن إلا يقينًا بدينه وتعلقًا به. هذه المعجزة الخالدة والآية الباقية ما بقي الليل والنهار، هذا الكتاب الذي وعد الله تعالى بحفظه بقوله سبحانه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولما كانت هذه منزلة القرآن اجتهد أعداء الدين في الطعن في القرآن حتى يسلخوا المسلمين من التعلُّق به، فيصبح المسلمون صيدًا سهلًا، وغنيمة باردة، وحرب أعداء الدين ليست على القرآن فقط، بل على كل أساساته وقواعده، فهناك الحرب على الرسول ﷺ وسنته، وهناك الطعن في عدالة الصحابة }، وهناك الحرب على المرأة المسلمة وحجابها وعفافها، وهناك الحرب على بعض الشعائر كالجهاد، وغيرها من الجبهات، ولكن الحرب على القرآن هي أخطرها، وأشدها، وأشرسها؛ لأن القرآن هو الذي يدل على الأصول السابقة، ويحثُّ عليها فهو أصلها وهي فروعه، وبذهاب الأصل تذهب الفروع.

ومن هنا كانت هذه المادة التي يُعَنْوَن لها بعنوان "الدفاع عن القرآن"، هذه المادة التي تردُّ على أعداء الإسلام، الذين يريدون بهذه الدعاوى، وبهذه الخرافات، وبهذه الأوهام التي يسمونها شبهات، يريدون بذلك إسقاط قدسية القرآن من قلوب المسلمين، وذلك لأن القرآن هو العُروة الوثقى التي بها يتمسَّكون، وهو المورد العذب الذي إليه يَرِدون، ومنه يصدرون، وهو أساس الإسلام، وركن

الشريعة الركين، الذي إذا سقط سقط كل البناء، وتهدَّم الصرح، ولم تبقَ للمسلمين بقية ولا قوة.

إن المبشرين يغيظون من القرآن لأنه حرَّر عقول الناس؛ إذ كيف يقبل القرآن لاهوت المسيح وقيامته، وأنه وحده هو المُخلِّص للعالم بذلك الصلب المهين، والعار العظيم. مما لا شك فيه أن أصحاب هذه الدعاوى هم أعداء الفضيلة، أعداء التوحيد، أعداء مكارم الأخلاق، أعداء النظر الصحيح والعلم النافع، أعداء كل ما فيه سعادة المجتمع وصلاحه، فهم شرٌّ ووبال على المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، وإلا فبربِّك قلْ لي أيها المنصف لماذا ينقم هؤلاء المبشرون على القرآن الكريم؟

أينقمون عليه أنه حارب الوثنية ومحا آثارها في كل مكان أشرق عليه نور الإسلام؟ أينقمون عليه أنه عرَّف الإنسان قدره، وبيَّن له أنه لا يليق به أن يعبد صنمًا أو حجرًا أقل منه، أو بشرًا مثله؟ أينقمون عليه أنه نزَّه الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام- عن المخازي التي ألصقتها به كتبهم المقدسة؟ أينقمون عليه أنه أمر الإنسان بكل المكارم التي تقتضيها الإنسانية من برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بواجبات الأزواج والأبناء، والمحافظة على حقوق الجار؟ أينقمون عليه أنه أمر بإقامة العدل بين الناس، ونهى عن الظلم والتعدِّي على أعراض الناس، وأرواحهم وأموالهم؟ أينقمون عليه أنه نهى الناس عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن؟ أينقمون عليه أنه حثَّ على الوفاء بالعهود، وأمر بالبر بالفقراء، والبؤساء حتى فرض لهم قدرًا معينًا من أموال الأغنياء؟ أينقمون عليه أنه نهى عن النمائم، والوشايات، والحقد، والحسد، والغيبة، والبغضاء؟ أينقمون عليه أنه ساوى بين الناس في الحقوق العامة بدون فرق بين

أمير وحقير، وغني وفقير؟ أينقمون عليه أنه أمر بحفظ أموال اليتامى والقيام بتربيتهم حتى يبلغوا أُشدهم؟ أينقمون عليه أنه فرض على الناس أن يتعاونوا على البر والتقوى، وألا يتعاونوا على الإثم والعدوان؟ أينقمون عليه أنه حثَّ الناس على العمل لدنياهم وآخرتهم، ونهاهم عن الكسل والتقاعد عن الخير؟

أليس الذي يطعن في ذلك الكتاب، الذي يشتمل على كل الفضائل الإنسانية، ويريد أن يصرف الناس عما فيه سعادتهم الحقيقية، ألا يكون مجرمًا؟ بلى، إنه كذلك، وإننا نعتقد أن الله ﷻ سينصر دينه لا محالة، وإذا كان الناظر في واقعنا المعاصر يُبصر هذا الهجوم المُنظَّم على الإسلام وأهله، فإننا نحب أن نكون ممن يتصدَّى لهؤلاء؛ حتى يُشرِّد من خلفهم، وحتى يُعلِّمهم ألا يهيجوا أسباب المنايا عليهم مرة أخرى، وعلى أيَّة حال فقد رأينا في تحامل المغرضين على القرآن فرصة مواتية لعرض تاريخ القرآن، وتفنيد المفتريات الموجهة إليه، ورب ضارة نافعة، ولله در القائل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويت ❖ أتاح لها لسان حسود

وتبيين الحقائق وكشف المفتريات من أكبر الأسباب التي تجلب السعادة لطالب العلم، فقد سُئل عالم ما هي سعادتك؟ فقال: في حجة تتبختر اتضاحًا، وشبهة تتضاءل افتضاحًا. والله ﷻ يعلم أن المؤمن يكره إيراد هذه الأباطيل، ولكن حالنا -كما جاء في المثل- مكره أخوك لا بطل، فنجد أنفسنا مضطرين إلى إيراد هذه الدعاوى للرد عليها، ونقول فيها كما قال الإمام السيوطي -رحمه الله: "اعلموا -يرحمكم الله- أن من العلم كهيئة الدواء، ومن الآراء كهيئة الخلاء لا تُذكر إلا عن داعية الضرورة".

ومع أن مجرد تصوّر هذه الأباطيل يُغني عن الرّد عليها، إلا أن الرد عليها واجب؛ لئلا يغترَّ بها ذو جهل، أو تغفيل، فالله المستعان، وعليه التكلان، ومنه

الهداية والتوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونبدأ في تعريف القرآن الكريم حتى نتكلم بعد ذلك عن الدفاع عن القرآن الكريم، وعن ردِّ الشُّبَه والمفتريات التي تُثار على القرآن حتى نكون على أرضية صلبة من ديننا، والله الموفق.

تعريف القرآن الكريم:

القرآن الكريم لغة: كلمة القرآن هي مصدر مرادف للقراءة، يقال: قرأ قراءة، وقرآنًا، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

وقد وردت عدَّة خلافات حول معنى لفظة قرآن، واشتقاقها، ونلخصها فيما يلي:

نازع البعض في اشتقاق هذه الكلمة، فذهبوا إلى أن كلمة قرآن عَلَم على الكلام المُنزَّل على نبينا محمد -صلى عليه وآله وسلم- وأن هذه الكلمة ليست مشتقة. وذهب بعض العلماء إلى أن كلمة قرآن مشتقة.

وقد خص لفظ القرآن بالكتاب المُنزَّل على نبينا محمد ﷺ فصار كالعلم الشخصي له، ويُطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن، وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن؛ صحَّ أن تقول: إنه يقرأ القرآن قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

أما عن تعريف القرآن اصطلاحًا: فقد ذكر العلماء تعاريف كثيرة، ولكني أنقل أبرز هذه التعاريف، ذلك التعريف الذي قالوا فيه: إنه كلام الله ﷻ المُعجِز، المنزَّل على حبيبنا محمد ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المُتعبَّد بتلاوته.

وفيما يلي نذكر شرحًا مختصرًا لذلك التعريف:

كلمة "الكلام"، أو "كلام الله المعجز": الكلام جنس في التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى الله ﷻ تُخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة، أما قولنا "المنزل" فيُخرج بهذه الكلمة كلام الله ﷻ الذي استأثر الله به قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ [لقمان: ٢٧].

وتقييد "المُنزل" بكونه على محمد ﷺ يخرج ما أُنزل على الأنبياء -عليهم السلام- قبل النبي ﷺ كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما.

أما قولنا "المعجز والمتعبد بتلاوته": فإنهما قيدان يُخرجان الآيات المنسوخة؛ لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة، وغيرها على وجه العبادة، وليست الآيات المنسوخة كذلك.

أما قولنا "المنقول بالتواتر": فإنه قيد يُخرج قراءات الآحاد.

بعد تعريف القرآن لغة واصطلاحًا، لا بد أن نتعرَّض إلى الدوافع التي كانت سببًا لتدريس هذه المادة، ألا وهي مادة الدفاع عن القرآن:

من هذه الدوافع: كثرة المطاعن في هذا الزمن، خاصة على القرآن، واتهامه بالتحريف؛ سواء من المبشرين، أو من أذنابهم من أهل الإسلام.

كذلك من هذه الدوافع: تأثر بعض المسلمين بهذه الدعاوى التي تُثار؛ لذا كان لزامًا على طلبة العلم وأهله كشف هذه الدعاوى، وبيان فسادها للناس أجمعين.

ومن هذه الدوافع أيضًا إثبات إعجاز القرآن، وأن الله ﷻ قد تكفَّل بحفظه.

كذلك من هذه الدوافع: كشفُ أكاذيب الطاعنين، وبيان أنها ترديد لما أورده الطاعنون السابقون.

ومما هو معلوم أن كشف هذه الدعاوى والرَّد عليها هو حقٌّ من حقوق الله ﷻ على عباده المؤمنين، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله: "ومن بعض حقوق الله على عباده ردُّ الطاعنين على كتابه، ورسوله، ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبَّة خردل من الإيمان"، كذلك من ضمن الدوافع لهذه المادة امتثال أمر النبي ﷺ كما في حديث أنس > عن النبي ﷺ قال: ((جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم)).

وكذلك من الدوافع: أن نكون من الداخلين في حزب جند الله ﷻ المدافعين عن كتابه، لعله يكون شافعًا لنا يوم القيامة.

لذا كان من المهمّ التصدِّي لهذه الدعاوى، ودحضها، وتوضيح ما فيها من خلط الباطل بالحق؛ حتى تسقط الأقنعة، وتنكشف وجوه العورات، وتبدو سوءات المنافقين، وتستبين سبيل المجرمين.

أبرز الأهداف التي يبتغيها أعداء القرآن، ومناهج العلماء في الرد عليها

وبعد بيان أبرز الدوافع أُعرِّج فيما يلي على بيان أبرز الأهداف التي يبتغيها المعاندون للقرآن والمحاربون له:

من أبرز هذه الدوافع:

أولًا: إبطال إعجاز القرآن، فلما كان القرآن الكريم هو الدليل الأكبر على نبوَّة سيدنا محمد ﷺ وهو البرهان الساطع، والحجة البالغة؛ أدرك المنصِّرون،

والمبشرون، والمستشرقون أن القرآن أقوى أسلحة المسلمين وأمضاها في صراعهم ضدَّ جحافل التنصير؛ لذلك عملوا جاهدين على إبطال فاعلية هذا السلاح بتحجيم قيمته، تمهيدًا لمحاولة سلب نبينا محمد ﷺ شرف النبوَّة بحُجَّة عدم وجود معجزة تؤيِّد نبوَّة النبي ﷺ وقد حدَّد الواعظ التنصيري جون تاكلي هذا الباعث من الجدل التنصيري ضدَّ أصالة القرآن الكريم قائلًا: "يجب أن نستخدم كتابهم، وهو أمضى سلاح في الإسلام ضدَّ الإسلام نفسه؛ لنقضي عليه تمامًا، يجب أن يرى الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا".

كذلك من ضمن الأهداف صرف الأنظار بعيدًا عن القرآن، وقد كان ذلك هدفًا لمشركي مكة، وقد سعَوا إلى تحقيق هذا الهدف بوسائل متعددة: منها صدُّ الناس عن القرآن، ومنها التصفيق والصفير عند تلاوته، وإثارة المزاعم والشكوك حوله، وكان ظنُّ المشركين أن ذلك مجلبة للغلبة والنصر قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وهذا ما اعتقده المُنصِّرون تمامًا، يقول المنصر وليم جيفور: "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يُمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرَّج في سبيل الحضارة التي لم يُبعده عنها إلا محمد وكتابه".

والمقصود بالحضارة التي حال القرآن بين المسلمين وبينها فيما أشار إليه المُنصِّر: هي الحضارة ذات المفهوم الغربي للكون والحياة، ذلك النموذج الذي أكَّد رئيس المجلس الوزاري الأوربي على ضرورة فرضه، وإلا فالحرب هي الخيار.

ولا شك أن المناعة الذاتية الجبارة التي غرسها القرآن في المسلمين قد حالت بينهم وبين الاندحار الحضاري، أو السقوط المدوِّي أمام التكالب الأممي لجحافل التتار في الماضي، وأمام الغزو الاستعماري في العصر الحديث، وكذلك جعلت من

إمكان تنصير المسلمين مرهونة بإبعادهم عن القرآن، وصرف أنظارهم عنه، وقد تجلَّى انكشاف تلك الحقيقة الثمينة في تأكيد جلادستون أحد موطني دعائم الإمبراطورية البريطانية في الشرق الإسلامي عندما قال: "ما دام هذا القرآن موجودًا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان".

كذلك فإن من أهداف هذه الشبهات الرَّدِّ على موقف القرآن الكريم من كتب أهل الكتاب ومعتقداتهم، فقد حدَّد القرآن الكريم بوضوح وجلاء موقفه من الكتب السابقة متمثلًا فيما يلي:

الهيمنة على الكتب السابقة، فالقرآن مهيمن على ما سبقه قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، كذلك بيَّن القرآن أفضليته وكماله حين قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ [الزمر: ٢٣].

وترجع أفضلية القرآن على غيره من الكتب إلى كماله من جهتين:

أولاهما: تبيان القرآن لكل شيء قال ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

والجهة الثانية: إرشاد القرآن إلى غاية ما يصبُو إليه الإنسان، وما يحقِّق له كمال الدين والدنيا قال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

- كذلك كشف القرآن التحريف والتبديل الواقع في الكتب السابقة قال ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١].

- وكذلك كشف القرآن التحريف والتبديل الذي وقع بسبب النسيان قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤].

- وكذلك كشف القرآن التحريف والتبديل الذي وقع بسبب الوضع قال ﷻ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

- وكذلك كشف القرآن التحريف والتبديل بالتغيير المتعمَّد قال ﷻ: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

- وقد رفض القرآن زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وبكَّتهم، وذمَّ أخلاقهم، وفضح خطيئاتهم قال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

- وقد أنكر القرآن عليهم دعواهم صلب المسيح # قال ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٨].

- وقد كفَّر القرآن الذين قالوا ببنوَّة المسيح وإلهيته قال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

لقد كان هذا هو الموقف القرآني الدقيق من تلك المعتقدات البالية التي مُلئت بها أذهان الناس، ولأجل هذا الموقف القرآني الدقيق كانت تلك الحرب الشَّعواء على القرآن؛ إرادة من هؤلاء أن يصرفوا المسلمين عن كتابهم، وعن سبب عزهم ومجدهم، ولكن الله ﷻ غالب على أمره ولو كره الكافرون.

كذلك من ضمن الأهداف التي أرادها المستشرقون والمبشرون في حربهم، وهجمتهم على القرآن كانوا يبتغون السيطرة على المسلمين عقديًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا، فلقد رأى الكُفَّار أن أهل الإسلام لا يمكن قهرهم بالسلام والحروب العسكرية؛ لأنهم قوم يحبون الموت كما يُحبون الحياة، وإنما كان هذا الحب للشهادة في نفوس المسلمين لما في كتاب الله ﷻ من الثناء والحثِّ على الشهادة في سبيله؛ لذلك توجَّهوا بالحرب إلى القرآن، حتى ينزعوا القدسية عن القرآن، ومن ثَمَّ يتم إبعاد المسلمين عن مصدر توحيدهم وسر قوتهم.

نعم.. لقد عرف أعداء الله أهمية كتاب الله ﷻ في نفوس المسلمين، ومدى تعلقهم به، وعلموا أنه هو باعث نهضتهم، ومحيي همتهم، وموحد كلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم، ولكل ما سبق اجتهدوا في محاربة القرآن ومواجهته بكل ما أُوتوا من قوة، وها هي كلماتهم تطفح بما في مكنون صدورهم، يقول الحاخام الأكبر الإسرائيلي سابقًا مردخاي إلياهو مخاطبًا مجموعة على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: "هذا الكتاب الذي يسمُّونه القرآن هو عدوُّنا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يُقدِّس العرب والمسلمون فيه كتابًا يتحدث عنا بكل هذه السلبية، على حكام العرب أن يختاروا إما القرآن أو السلام معنا".

وفي بدايات هذا القرن كان الجنود الإيطاليون يتغنَّون بأنشودتهم: "أنا ذاهب إلى ليبيا فرحًا مسرورًا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ومحو القرآن، وإذا

مت يا أماه فلا تبكيني، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام"، ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر: "إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية"، وقال اللورد كرومر عند مجيئه إلى مصر: "جئت لأمحو ثلاثًا: القرآن، والكعبة، والأزهر"، وقال جلادستون وزير المستعمرات البريطاني السابق، ثم رئيس الوزراء: "لن تحقق بريطانيا شيئًا من غاياتها في العرب، إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب" ويقصد القرآن، وقال المبشر تاكلي: "يجب أن نُشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي؛ لأن كثيرًا من المسلمين قد تزعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن، حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية".

هذه النقولات إنما هي قطرة من بحر الحقد الدفين على الإسلام وأهله قال ﷻ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] إذن فهم يعرفون أن القرآن هو مصدر قوة المسلمين؛ لذلك أعلنوا الحرب على كتاب الله حتى يدبَّ الضعف في نفوس المسلمين، فتسهل السيطرة عليهم في شتَّى المجالات إلا أن القرآن هو الأقوى دائمًا بإذن الله، فعلى الرغم من ضراوة الحرب المعلنة على القرآن بهدف السيطرة على المسلمين وإبعادهم عن كل ما هو إسلامي، إلا أن القرآن يبقى هو الأقوى دائمًا بإذن الله.

ويؤيد هذا المعنى حادثة طريفة جرت في فرنسا، وهي أنها من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر قامت هذه الدولة بتجربة عملية، قامت فرنسا بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات أدخلتهنَّ الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، وألبستهنَّ الثياب الفرنسية، ولقنتهنَّ الثقافة الفرنسية، وعلمتهنَّ اللغة الفرنسية؛ فأصبحنَ كالفرنسيات تمامًا، وبعد أحد عشر عامًا من الجهود هيَّأتْ لهنَّ حفلة تخرج رائعة، دُعي إلى هذه الحفلة الوزراء، والمفكرون، والصحفيون،

ولما بدأت الحفلة فُوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلنَ بلباسهنَّ الإسلامي الجزائري؛ فثارت ثائرة الصحف الفرنسية، وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عامًا، وهنا أجاب لاكوست وزير المستعمرات الفرنسي فقال: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا.

في ظل هذه الأهداف السابقة كان لأعداء الإسلام والقرآن تاريخ حافل في الدعاوى والافتراءات الموجهة ضدَّ القرآن، وفيما يلي أعرض لنبذة تاريخية عن هذه الدعاوى وأصحابها:

لقد بدأ الجدل التنصيري ضدَّ أصالة القرآن مبكرًا، مع أول صدام بين المسلمين والجماعات النصرانية في الأراضي الخاضعة للدولة البيزنطية، وقام كتابيُّو الشام بأكبر الأدوار وأهمها في تاريخ الجدل التنصيري ضد القرآن، وقد تعدَّدت مراحل الجدل التنصيري ضدَّ القرآن وتباينت معها أساليب الجدل، وأطروحاته فيما يمكن رصده من خلال الأدوار التالية.

أولًا: دعاوى وافتراءات أهل الكتاب الشرقيين، لقد كان الشرق مهدًا لنشأة الجدل التنصيري ضدَّ القرآن؛ نظرًا لأنه كان نقطة التقاء الإسلام الفاتح مع النصرانية الشرقية بمذاهبها المختلفة. يُضاف إلى ذلك العامل اللغوي الذي مكَّن مجادلي التنصير الشرقيين من الاطلاع بيسر وسرعة على القرآن الكريم في لغته العربية، ومكَنهم أيضًا من الوقوف على ما احتواه من عقائد، وشرائع، وأخلاق، وقصص، ومن ثَمَّ الشروع في الجدل ضده.

أما مجادلي الغرب فقد احتاجوا إلى عدَّة قرون حتى يتمكنوا من قراءة القرآن في إحدى الترجمات، ويمكن في هذه المرحلة تمييز عدد من رموز الجدل التنصيري، من هؤلاء يوحنا الدمشقي، ومنهم تيودور أبو قرة، ومنهم عبد المسيح الكندي، ومنهم بولس الأنطاكي.

وكانت هذه المرحلة تُعدُّ هي مرحلة البداية للجدل التنصيري في المشرق، وهذه المرحلة أيضًا هي من أهم أدوار الجدل التنصيري وأخطرها؛ إذ أُلِّفت في هذه المرحلة قاعدة الجدل والأساس الذي بَنَى عليه المنصرون جدليَّاتهم في مراحل التنصير اللاحقة.

أما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة الأندلس: تلك المرحلة التي كانت عصر ازدهار علمي وحضاري في مختلف الجوانب، وفيها ارتفع صوت الحرية الدينية والنقاش حول قضايا الأديان والعقائد، وقد استغلَّ المنصرون ذلك، فصنفوا مؤلفات جدلية ضد الإسلام، وتصدَّى لهم علماء الإسلام ردًّا وتفنيدًا.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الحروب الصليبية، لقد امتدَّت الحروب الصليبية قرنين من الزمان لتدمير الإسلام، وعهدها يُعدُّ هو أروع العهود في العصور الوسطى كلها، وقد تزامن ذلك مع عمليات الإبادة الجماعية التي مُورست ضدَّ المسلمين، ومن أبرز ما يميز تلك المرحلة ما يلي:

كانت هذه المرحلة إرهاصًا بظهور التنصير المؤسسي، كذلك من أهمِّ نتائج هذه المرحلة ترجمة القرآن الكريم من اللغة اللاتينية، ومن أهم الرموز الجدلية في هذه المرحلة الشخصيات التالية: بطرس المحترم، روجر بيكون الراهب الفرنسيسكاني، ريمون ديمارتنيه.

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التنصير المؤسسي:

بدأت هذه المرحلة إثر فشل الحروب الصليبية في تدمير الإسلام، فعندما خاضت دول أوربا في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف أرادت أن تُثير على المسلمين حربًا صليبية جديدة، عن طريق التبشير، وقد جاء هذا التحوُّل بناء على

وصية القديس لويس التاسع ملك فرنسا، وقائد الحملة الصليبية السابقة التي انتهت بالفشل ووقوع لويس نفسه في الأسر والسجن في مدينة المنصورة بمصر.

وتلفت تلك الوصية الأنظار إلى صعوبة قهر المسلمين عن طريق القوة، وذلك بسبب روح الجهاد لديهم، وتوصي تلك الوصية بتلمُّس طريق الغزو الفكري الهادف إلى دحض العقائد الإسلامية وتزييفها، وقد نتج عن هذه المرحلة طريقان، أو مؤسستان للوصول إلى الأهداف السابقة:

المؤسسة الأولى: هي مؤسسة التبشير، فلقد كانت كلية الثالوث المقدس هي القاعدة التي انطلق منها التنصير المؤسسي، فهي أولى لبنات مؤسسة التبشير ضد الإسلام، وكان ريموند لول ليس أول مُعلم فيها فقط، بل كان هو أول من مارس التبشير ضد الإسلام؛ فجال في بلاده وناقش علماءه.

أما المؤسسة الثانية: فقد كانت مؤسسة الاستشراق، وقد بدأ الاستشراق بقانون كنسي حدَّد مهمة المؤسسة الاستشراقية في التمهيد، والإعداد لارتداد العرب إلى النصرانية.

وبعد بيان تلك المقدمات أختم بالكلام على مناهج العلماء في الرَّد على الدعاوى والافتراءات:

للعلماء في الرَّدِّ على الدعاوى والافتراءات طريقتان:

الطريقة الأولى: تهتم بالرد على دعاوى وطعون شخص معين، أو كتاب معين مثل الإمام ابن حزم الأندلسي -رحمه الله- في ردِّه على ابن النغريلة اليهودي، وردود العلماء على دائرة المعارف الإسلامية في زعمها تحريف القرآن، ونقله من التوراة والإنجيل.

أما الطريقة الثانية: فهي تهتم بالطُّعون من حيث هي بغضّ النظر عمن قالها، فتُجمع الطعون ثم يُردّ عليها، ومثال ذلك (الروض الريان في أسئلة القرآن) لشرف الدين بن ريان، وكذلك (وضح البرهان) لبيان الحق النيسابوري، وكذلك (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب) للإمام الشنقيطي وغيرهم.

وقبل أن نغادر هذا الدرس لا بد من تأصيل قاعدتين مهمتين في رحلتنا مع الدعاوى والافتراءات الموجهة ضدّ القرآن، وفيما يلي عرض لهاتين القاعدتين:

القاعدة الأولى: اليقين التام بأن جميع هذه الدعاوى مفتراة ومكذوبة، لا أصل لها من الصحة، ولا أساس لها من الواقع، وإنما هي محض أوهام؛ بل أضغاث أحلام، جاءت من قلب امرئ حاقد، أو جاهل؛ إذ إن الله ﷻ يقول: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] فما كان لنا أن نُكذِّب ربنا، ونصدق ملحدًا حاقدًا أو مجادلًا جاهلًا، وهذه قاعدة في غاية الأهمية؛ إذ إن السبب في تأثر البعض بهذه الدعاوى أن هذه القاعدة لم تكن عندهم من المسلَّمَات.

القاعدة الثانية: إن عدم قدرة إنسان معين على الرد ليس معناه الهزيمة، وليس معناه العجز، وليس معناه إثبات الطعن؛ بل إنه لا يخلو زمان من قائم لله بالحُجة قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وبعد الانتهاء من هذه المقدمة، وهذا التمهيد، وبعد بيان هاتين القاعدتين نختم هذا الدرس التمهيدي بكلمة من أروع ما قيل في ذلك المقام، تلك الكلمة التي قالها الإمام القرطبي -رحمه الله- بعد أن سرد المآخذ والمثالب والآفات التي طرأت على الكُتب المنزلة على الأنبياء السابقين لسيدنا محمد ﷺ قال -رحمه الله: "وكتابنا منزه عن أمثال تلك الآفات، فإن الله تعالى تولَّى حفظه، وأجزل

من كل صيانة حظه، فلا يختلط به كلام متكلم، ولا يُقبل وهم متوهم؛ إذ ليس من جنس كلام البشر، وهو معدود الآي والسور، ثم صانه بأن يسَّره للحفظ والاستظهار، فيستوي في نقله الكبار والصغار، لا يختص بحفظه أحد، والوالد إذا نقص منه حرفًا واحدًا أو غيَّر حركة واحدة ردَّه وأصلحها عليه الولد، ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره في الدواوين معدَّدة، وأشكال حروفه فيها مقيدة، ومع هذا نقله الأمم التي لا تُحصى عن الأمم التي لا تُحصى حتى يصل ذلك إلى النبي المصطفى مع قُرب العهد، والتشمير في صيانته والجد، فبهما كمَّل الله له الصون، وحصل له بهما على فهمه أكبر العون، فلله الحمد على ما أولى، والشكر له على نعمه التي لا تُحصى، فأين اللؤلؤ من الخزف، وأين الياقوت من الصدف".

الأدلة النقلية والعقلية والمنطقية على أن القرآن كلام الله

عناصر الدرس

العنصر الأول : صدق النبي دليل على أن القرآن كلام الله ٣١

العنصر الثاني : المعجزات التي أيَّد الله بها نبيه ﷺ والتي تدل على صدقه ٣٧

صدق النبي دليل على أن القرآن كلام الله

نبدأ بدليل عقلي أو بحجة عقلية، ننتقل بعدها مباشرة إلى الكلام على الأدلة النقلية التي تجعل قلب المؤمن في غاية الثبات، وفي غاية اليقين بأن القرآن هو كلام الله ﷻ نطرح في البداية سؤالًا ونريد الإجابة عليه السؤال هو: هل النبي محمد ﷺ صادق أم لا؟

النبي ﷺ هو الذي نزل القرآن، وهو الذي كان يقول: إن القرآن من عند الله ﷻ وقد أخبرنا نبينا ﷺ أن القرآن وحي من عند الله، فنقول: إذا ثبت أن النبي ﷺ صادقٌ؛ ثبت أن القرآن من عند الله، وإذا ثبت أن القرآن من عند الله؛ فإن الله ﷻ قد قال في القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وإذا ثبت ذلك فإنه يجب أن يترتَّب على ذلك أن القرآن صادق الأخبار وواجب الاتباع، ويترتَّب على ذلك أيضًا أن القرآن لا مجال للطعن فيه، لا بالتحريف، ولا بالزيادة، ولا بالنقصان؛ لسبب في غاية البساطة والعقلانية والمنطقية، هذا السبب هو أن القرآن كلام الله ﷻ والله هو الذي تكفَّل بحفظه؛ فالقرآن محفوظ بحفظ الله ﷻ له، تبعًا لما أخبرنا به نبينا الصادق ﷺ.

هذه المقدمة العقلية إذا أثبتناها، فإننا نكون قد أثبتنا أن القرآن هو كلام الله ﷻ بالعقل والمنطق والبداهة، وإذا ثبت ذلك فإننا نكون قد نسفنا - بحمد الله وفضله ومنه - كل الدعاوى والافتراءات من البداية بردٍّ في غاية العقلانية والموضوعية والمنطق، دون أن نتطرَّق لأيِّ أدلة شرعية لا يُسلِّم بها المخالف، وإن كانت الأدلة الشرعية سوف تأتي تبعًا بعد ذلك، إلا أننا بدأنا في الأصل بالكلام على حُجة عقلية منطقية بدهية.

وفيما يلي أزيد الأمر تأكيدًا وتقريرًا ووضوحًا بذكر بعض الأدلة التي تُبرهن على صدق النبي ﷺ أسوق تلك الأدلة لكل منصف ولكل باحث عن الحقيقة ؛ إقامة للحجة، وأداء لواجب البلاغ، فالله المستعان:

في البداية نقول: لقد شهد أهل مكة بصدق النبي ﷺ وقت عداوتهم له ﷺ نعم، شهدوا للنبي بالصدق في حال العداوة، وفي وقت العداوة، وفي مرحلة العداوة، فعن ابن عباس } قال: "لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صَعَد الصفا، فهتف ((يا صباحاه))، فقالوا: من هذا؟ فقالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: ((يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب))، فاجتمعوا إليه فقال: ((أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي)) قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))، قال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلا هذا، ثم قام، فنزل قوله ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١].

وإني أسألك أيُّها الدارس الكريم، وأطلب منك أن تنظر إلى قولهم: "ما جربنا عليك كذبًا قط" أي: ولا حتى مرة واحدة، قيلت هذه الكلمة أمام هذه الجموع، ولم يُنكرها أحد، مع أنه ﷺ عاشرهم أربعين سنة قبل أن يُبعث بالنبوة، ومع هذا ما جربوا عليه كذبًا قط.

وإذا كان الموضع السابق هو موضع شهادة من أهل مكة للنبي ﷺ فإننا نستطيع أن نستشهد أيضًا، وأن نستدل أيضًا على صدق النبي ﷺ بشهادة أخرى، ولكنها في هذه المرة هي شهادة اليهود، نعم، لقد شهد علماء يهود بصدق النبي ﷺ:

فعن عبد الله بن سلام > قال: "لما قدم رسول ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس -أي: عبد الله بن سلام- لأنظر

إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: ((أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)).

وعامة اليهود في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون أن النبي ﷺ صادق، وقد اختبروا صدقه، وتأكدوا من كونه صادقًا، فقد ورد أن يهودية من أهل خيبر سمَّت شاة مصليَّة -أي مشوية، وضعت فيها السم- ثم أهدتها لرسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: ((ارفعوا أيديكم))، وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية فدعاها، فقال لها: ((أسممت هذه الشاة؟)) قالت: اليهودية: من أخبرك؟ قال: ((أخبرتني هذه في يدي))، يقصد بذلك الذراع، قالت: نعم، قال ﷺ: ((فما أردت إلى ذلك؟)) -أي: ما كان سبب هذا الفعل الذي صدر منك- قالت: قلت: إن كان نبيًّا فلن يضره، وإن لم يكن نبيًّا استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها.

وإذا كانت الشهادة الماضية هي شهادة علماء اليهود، وعامة اليهود، والشهادة قبلها هي شهادة أهل مكة؛ فإننا أيضًا لا بد وأن نقف مع شهادة أخرى للنبي ﷺ بالصدق هذه الشهادة صادرة من علماء النصارى، نعم، لقد شهد بصدقه ﷺ علماء النصارى، فها هو هرقل عظيم الروم، وكان من علماء النصارى، ها هو قد استدلَّ بخلق الصدق على صحة رسالة النبي ﷺ.

فعن عبد الله بن عباس { : "أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم، ودعا بترجمانه فقال: أيُّكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال -أي: هرقل-: أدنوه

مني، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال -أي: هرقل-: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سُخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال -أي هرقل-: فهل كنت تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إيَّاه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألت عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله؛ لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ، وسألتك أيرتد

أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة والأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه ؛ لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه".

هذه هي قصة هرقل مع أبي سفيان، وهذه هي شهادة عالم من علماء النصارى، وعظيم من عظمائهم في حق النبي ﷺ وهكذا نرى أن هرقل قد استدلَّ بصدق النبي ﷺ على صحة رسالته والتمكين له في الأرض ؛ حيث جاء في كلامه : فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم.

ونرى أيضًا في هذا الأثر السابق شهادة أبي سفيان > وقد كان في هذا الوقت من ألدِّ أعداء النبي ﷺ وكان رأس قريش وقائدهم، وبالرغم من ذلك فإنه شهد للنبي ﷺ بالصدق، إذن من عاشره ﷺ شهد بصدقه، ومن رآه من أول وهلة شهد بصدقه، ومن سمع كلامه شهد بصدقه، ومن سمع عنه ولم يره شهد بصدقه، وعدوه شهد بصدقه، فهل نحتاج إلى أدلة أكثر من ذلك.

ومن المعلوم ضرورة أنه لا يُمكن لرجل كاذب ومداوم على الكذب، ويدعي كل يوم أنه أتاه وحي جديد من الله ﷻ ومع هذا لم يستطع أن يلاحظ ذلك عليه ويعرف حقيقته، فإنه من كان ما في قلبه مخالف لما يظهره ؛ فلا بد أن تُعرف حقيقته في فلتات لسانه. إن للحقيقة قوّة تنفذ بها، فتُقرأ بين السطور وتُعرف في

القول، والإنسان مهما أتقن الخداع؛ فلا بد من فلتات في قوله وفعله، تنمُّ عن طبعه، ويعلمها من يطمئن إليه. فما ظنك بهذه الحياة النبوية التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها؛ فتريك الصدق والإخلاص ماثلًا في كل قول من أقواله، وكل فعل من أفعاله ﷺ.

وهنا لفتة في غاية الأهمية نشير إليها، نقول: إن الكاذب لو استطاع أن يكذب على كل الناس فهل يظن أيُّ عاقل منصف أن يكذب على نفسه وأن يخدعها، لقد نزل على النبي ﷺ قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

عن عائشة < قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة فقال لهم: ((يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله))، فهل هذا فعل كاذب، كيف لكاذب أن يجعل الذين يحرسونه يرحلون، وهو يعلم في قرارة ذاته كذب نفسه، وهو يعلم أن العرب تتربَّص له في كل طريق، ألا يخاف أن يتم قتله واغتياله، إن هذا الأمر لا يفعله إلا رجل صادق، وواثق من أن الذي أرسله سيحميه من كل المخاطر.

وهنا لطيفة أخرى في الاستدلال على صدق النبي ﷺ إنما يَستدلّ أيضًا في هذا المقام بزواج النبي ﷺ من أكثر من تسع نسوة، ووجه ذلك أن الإنسان الكاذب قد يستطيع أن يخدع الناس في حياته الخارجية؛ بحيث لا يستطيع أحد أن يجد عليه كذبًا، لكن هذا لا يحصل للإنسان مع زوجه، وزوج الرجل هي أعلم الناس بحاله، فإذا فرضنا احتمال أن الزوجة إذا كانت واحدة؛ فإنها قد تتفق مع زوجها

على إخفاء كذبه، إلا أننا نجد النبي ﷺ يتزوج من أكثر من واحدة، وها هو النبي ﷺ مع كثرة زوجاته لم تنقل إحداهنَّ عن حياته الخاصة إلا كل كمال يُمكن أن يُوصف به إنسان.

فلو أمكن أن تتفق واحدة على عدم إظهار كذبه، فإنه لا يمكن أن يتفقن كلهن على ستر كذبه، وإخفاء عيبه، فهذا في غاية البعد؛ خاصة أن منهنَّ من تزوَّجها النبي ﷺ بعد أن حارب قومها، وقتل منهم الكثير كالسيدة صفية بنت حيي > ، والسيدة أم حبيبة > كان النبي ﷺ متزوجًا لها، وهو يحارب أباها -أبا سفيان، ألم يكن لهؤلاء الزوجات أكبر دافع للثأر من النبي ﷺ ولو بتشويه صورته بعد موته، بلى، ولكن كل ذلك لم يحدث، ولم يحصل منه شيء، ألا يدل كل ذلك على صدق النبي ﷺ.

المعجزات التي أيَّد الله بها نبيه ﷺ والتي تدل على صدقه

إن النص والعقل والمنطق والموضوعية كل ذلك ينطق ويشهد بأن النبي ﷺ صادق، وفيما يلي عرض لبعض الأدلة التفصيلية الأخرى التي ثبتت في نصوص الشرع:

من هذه الأدلة تلك الأمور الخارقة للعادة أو المعجزات، التي أيَّد الله بها نبيه ﷺ، ولا شك أن المعجزة دليل أكيد على صدق الرسالة والنبوة؛ لأن خرق العادة ومخالفة قانون الطبيعة لا يُمكن أن يفعله بشر، بل لا يكون إلا من الخالق ﷻ والله ﷻ لا يخرق العادة لكاذب، بل إنما يؤيِّد بها رسله -عليهم السلام- للتدليل على صدقهم في دعوتهم، كما حصل من قلب النار بردًا وسلامًا على إبراهيم # وكما حصل من قلب عصى موسى إلى أفعى، وإحياء الموتى لعيسى # وغير ذلك من المعجزات.

ومن المعجزات التي أيَّد الله بها نبيه ﷺ معجزة انشقاق القمر، فقد طلب أهل مكة من النبي ﷺ أن يأتيهم بمعجزة؛ فدعا النبي ﷺ ربه أن يشق القمر، فانشق القمر نصفين: نصف عن يمين الجبل، والآخر عن شماله، فقال النبي ﷺ: ((اشهدوا اشهدوا))، فقالوا: سحر أعيننا محمد، فقال بعضهم: إن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس أجمعين، فاسألوا الركبان إذا جاءوا من الأسفار، فكلما جاء أحد سألوه هل رأيت القمر انشق؟ فيقولون: نعم رأينا، وهذا الحديث منقول في أصح الكتب، بل نصَّ العلماء على ثبوته عن كثير من الصحابة ﴾، بل ذكره الله ﷻ في كتابه، بل أجمع العلماء على وقوعه حتى الكفار قد ذكروه في كتبهم ممن عاصروا هذه الحادثة، فقد ذكر غير واحد من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلًا بالهند مكتوبًا عليه: "أنه بني في الليلة التي انشق فيها القمر"، قال ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وفي مقابلة تليفزيونية للأستاذ الدكتور زغلول النجار، سأله مقدم البرنامج عن هذه الآية عن قوله ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] هل فيها إعجاز قرآني علمي؟ فأجاب الدكتور زغلول قائلًا: "هذه الآية لها معي قصة، فمنذ فترة كنت أحاضر في جامعة "كارديف" غرب بريطانيا، وكان الحضور خليطًا من المسلمين وغير المسلمين، وكان هناك حوار حيٌّ للغاية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي أثناء هذا الحوار وقف شاب من المسلمين وقال: يا سيدي هل ترى في قول الحق ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟ فأجبته -أي: الدكتور زغلول-: لا، فالإعجاز العلمي يُفسره العلم أما المعجزات فلا يستطيع أن يفسرها.

فالمعجزة أمر خارق للعادة، وانشقاق القمر معجزة حدثت لرسول الله ﷺ تشهد له بالنبوة والرسالة، قال: ثم ذكرت له الروايات الثابتة في انشقاق القمر، يقول

الدكتور زغلول: وبعد أن أتممت حديثي وقف شاب مسلم بريطاني عرَّف بنفسه، وقال: أنا داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني، ثم قال: يا سيدي هل تسمح لي بإضافة؟ قلت له: تفضل، قال: وأنا أبحث عن الأديان قبل أن أُسلم أهداني أحد الطلاب المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم فشكرته عليها، وأخذتها إلى البيت، وحين فتحت هذه الترجمة كانت أول سورة اطلعت عليها سورة القمر، وقرأت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] فقلت: هل يُعقل هذا الكلام؟ هل يمكن للقمر أن ينشق ثم يلتحم؟ وأيُّ قوة تستطيع عمل ذلك؟ يقول الرجل: فمنعتني هذه الآية من مواصلة القراءة، وانشغلت بأمور الحياة لكن الله تعالى يعلم مدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة، فأجلسني ربي أمام التلفاز البريطاني، وكان هناك حوار يدور بين معلّق بريطاني وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكان، وكان هذا المذيع يُعاتب هؤلاء العلماء على الإنفاق الشديد على رحلات الفضاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه الأرض بمشكلات الجوع والفقر والمرض والتخلف، وكان يقول: لو أن هذا المال أُنفق على عمران الأرض؛ لكان أجدى وأنفع، وجلس هؤلاء العلماء الثلاثة يُدافعون عن وجهة نظرهم ويقولون: إن هذه التقنية تُطبَّق في نواحٍ كثيرة في الحياة؛ حيث إنها تُطبَّق في الطب، والصناعة، والزراعة.

فهذا المال ليس مالًا ضائعًا، لكنه أعاننا على تطوير تقنيات متقدمة للغاية، وفي خلال هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر باعتبار أنها أكثر الرحلات الفضاء تكلفة، فقد تكلَّفت أكثر من مائة ألف مليون دولار، فصرخ فيهم المذيع البريطاني، وقال: أيُّ جنون هذا!! مائة ألف مليون دولار لكي تضعوا العلم الأمريكي على سطح القمر، فقالوا: لا، لم يكن الهدف وضع العلم الأمريكي فوق سطح القمر، إننا كنا ندرس التركيب الداخلي للقمر؛

فوجدنا حقيقة لو أنفقنا أضعاف هذا المال لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد، فقال لهم: ما هذه الحقيقة؟ قالوا: هذا القمر انشقّ في يوم من الأيام ثم التحم، فقال لهم: كيف عرفتم ذلك؟ قالوا: وجدنا حزامًا من الصخور المتحوِّلة، يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه، فاستشرنا علماء الأرض وعلماء الجيولوجيا فقالوا: لا يمكن أن يكون هذا قد حدث إلا إذا كان هذا القمر قد انشق ثم التحم، يقول الرجل المسلم رئيس الحزب الإسلامي البريطاني: فقفزت من الكرسي الذي أجلس عليه وقلت: معجزة تحدث لمحمد قبل ألف وأربعمائة سنة، يُسخر الله تعالى الأمريكان لإنفاق أكثر من مائة ألف مليون دولار لإثباتها للمسلمين، لا بد أن يكون هذا الدين حقًّا، يقول: فعُدت إلى المصحف وتلوتُ سورة القمر، وكانت مدخلًا لقبول الإسلام دينًا".

كذلك من ضمن المعجزات التي نستدلّ بها على صدق النبي ﷺ إخبار النبي ﷺ بأمور غيبية: فقد أخبر النبي ﷺ بكثير من الأمور قبل حصولها، بل قبل حصول مقدماتها، مع أن هذا لا يحصل من البشر، فالغيب بيننا وبينه حجاب كثيف، ولا ينكشف هذا الحجاب إلا بوحي من السماء، نعم، قد يتوقع الإنسان ما قد يحدث في المستقبل عن طريق مقدمات ودلائل، ولكن هذا التوقع قد لا يكون صوابًا، والصواب منه إنما حصل بسبب حصول مقدماته، أما إذا لم يكن هناك مقدمات وإشارات وقرائن فلا يمكن لأحد أن يعرف ماذا سيحصل في المستقبل.

فمثلًا لو أن النبي ﷺ انتصر على العرب، ثم بشَّر بأنه سينتصر على العجم؛ لقلنا إنما قال هذا لحصول مقدمات لهذا الحدث، وهو انتصاره على العرب، ولكن الأمر الغريب أن النبي ﷺ يبشر بهذه الأمور في ظروف هي أبعد ما تكون توقعًا لها؛ لأن النبي ﷺ قد بشَّر بنصر دينه وانتشاره عندما كانت المحنة في أقصى درجاتها.

فعن خباب بن الأرت > قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بُردة له في ظلِّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال ﷺ: ((قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)).

ومثل ذلك ما حصل في حادثة الهجرة فقد كان النبي ﷺ مطاردًا من قريش، وليس معه إلا رجل واحد، والكل يتربَّص به ليقتله، أو يُسلمه لأكابر مكة؛ ليأخذ الجائزة، ثم يُعطي النبي لسراقة بن مالك > بأن يعطيه زينة كسرى ملك الفرس، فقد قال النبي ﷺ لسراقة: ((كيف بك إذا لبست سواري كسرى)) ثم يتحقق هذا الأمر ويلبسهما في زمن عمر بن الخطاب > .

وإخبار النبي ﷺ بالغيب كان عامًّا؛ أي: أنه يشمل الغيب الماضي والمستقبل والحاضر، فمن الإخبار بالغيب المستقبل أن النبي ﷺ قد أخبر بالفتنة في زمن علي > ، وأخبر بأن الخلفاء الثلاثة عمر، وعثمان، وعلي سيُقتلون شهداء، وأخبر النبي ﷺ بفتح القسطنطينية، ومصر، وفارس، والروم، وبيت المقدس، وبشَّر ﷺ كثيرًا من الصحابة { بالجنة فماتوا على الإيمان، وأخبر ﷺ بموت البعض على الكُفر فماتوا على الكفر، وأخبر ﷺ بكثير من علامات القيامة الصغرى وقد تحققت، ولم تتحقق هذه الأمور إلا بعد موته ﷺ.

ومثل هذا لا يُمكن أن يكون إلا بوحي، ومثل هذا أيضًا إخباره ﷺ بالغيب الماضي، فإذا كانت الأمثلة السابقة إنما هي للغيب الذي سوف يحدث في المستقبل، فإن هناك أمثلة أيضًا عن إخبار النبي ﷺ بالغيب الذي مضى وسبق،

كإخباره ﷺ عن قصص السابقين من الأنبياء، وعن قصص بني إسرائيل، فهذه الغيبيات الماضية ليس لها مقدمات يُستدلّ بها عليها، ومع هذا أخبر بها النبي ﷺ موافقة للواقع، وقد يقول قائل: إنه ﷺ قد قرأ التاريخ، والجواب: إنه ﷺ لا يعرف القراءة والكتابة.

وقد أخبر النبي ﷺ بالغيب الحاضر، كإخباره ﷺ بموت قادة الصحابة في غزوة مؤتة، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك وهو في المدينة ومؤتة كانت قريبة من الشام، فعن أنس > أن النبي ﷺ: نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة } نعاهم للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: ((أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب))، وعيناه تذرفان ﷺ حتى أخذ سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم.

وعندما جاء رسول كسرى إلى النبي ﷺ ليتوعَّده ويتهدَّده، قال له النبي ﷺ: ((إن ربي قتل ربكما)) أي: إن ربي قتل الملك الذي يحكمكم، فنظروا فإذا بكسرى مات في ذلك اليوم الذي أخبر به النبي ﷺ ومثل هذه الأمور ليس لها مقدمات تدل عليها، ولم يكتب بها أيُّ كتاب إنها النبوة الصادقة.

كذلك من الأدلة التي تدل على صدق النبي ﷺ وصحة نبوته: أخلاقه الفاضلة، وآدابه الكاملة.

قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ومن أبرز الأدلة على ذلك عدم استغلال النبي ﷺ لفُرص التعالي والتكبر، ففي بعض المواقف حصل للنبي ﷺ فرصة عظيمة للتعالي والتكبر والفخر، ولكنه يأبى أن يفعل ذلك، ولو كان كاذبًا لاستغلَّ هذه الفرص أعظم استغلال؛ فقد منع النبي ﷺ الصحابة } من السجود له، وذلك عندما رأى الصحابة سجود الجمل للنبي ﷺ.

فقد ورد عن أنس > قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسْنُون عليه -أي: يستقون عليه، أو يحملون عليه الماء- وإن الجمل استُصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نُسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: ((قوموا))، فقاموا فدخل الحائط، والجمل في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي الله إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِب -أي: صار مثل الكلب المسعور- وإنا نخاف عليك صولته، فقال: ((ليس علي منه بأس)) فلما نظر إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرَّ ساجدًا بين يديه ﷺ فأخذ رسول الله بناصيته أذلَّ ما كانت قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه { : يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك. فقال ﷺ: ((لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر)).

والتعليق على هذه الحادثة أن النبي ﷺ لم يستغلّ سجود الجمل له ليُعظم نفسه أو يرفعها، بل قال ﷺ: ((لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر)).

وقد فهم أحد الغربيين هذه الحقيقة، وهو إميل درمنغم هذا الرجل كان مستشرقًا فرنسيًّا، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر، ومن آثاره حياة محمد، وهو من أدقّ ما صنفه مستشرق عن النبي ﷺ، يقول إميل درمنغم: "ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلًا، فحزن عليه كثيرًا، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إن الشمس قد انكسفت لموت إبراهيم، ولكن محمدًا كان من سموِّ النفس ما رأى به ردَّ ذلك فقال: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)) يقول إميل تعليقًا: فقول مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجَّال، وهذا كلام حق، فلو كان غير النبي ﷺ لاستغلَّ هذه الفرصة، وقال: انظروا إلى الشمس حزنت لحزني وانكسفت لوفاة ولدي، إلا أن النبي ﷺ لا يفعل ذلك.

وفي النهاية أقول : إن قلنا : إن النبي ﷺ كاذب فما الدافع للكذب ، فالنبي ﷺ قبل النبوَّة كانت له مكانة عظيمة في قومه ، ولا ينادونه إلا الأمين والصادق ، وإذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه ، وكان متزوجًا من امرأة غنية ، وله أعرق نسب في قريش ؛ فعنده المال ، وعنده المرأة الجميلة ، والمكانة المرموقة ، والسمعة الطيبة ، والنسب الشريف ، فكيف يترك هذا كله ويحارب الناس أجمعين.

ثم بعد هذا كله ليس له من فعله أيَّ مصلحة دنيوية لا له ولا لأبنائه ، ولا لأهله ، فما كان لرجل يترك الكذب أربعين سنة حتى صار طبعًا له ، بل حتى لو أراد الكذب لمنعته من ذلك طباعه وصفاته ، ثم هو بعد هذا التاريخ الطويل والسمعة السامية يقع في الكذب والادعاء ، وليس أيُّ كذب بل أشدّ أنواع الكذب ، الكذب على الله ، وهو مع هذا لا يهدف لمصلحة ولا لغرض شخصي ، إن هذا لا يمكن أن يتصوَّر من عاقل ، ولا يمكن أن يتصوره عاقل ، وقد وُفِّق أحد المنصفين من الغرب بفهم هذا المعنى وإدراكه ؛ إذ يقول كرلين : ومما يبطل دعوى القائلين أن محمدًا لم يكن صادقًا أنه قضى عُنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، ولم يحاول أثناءها إحداث ضجَّة مما يكون وراءه ذكر وشهرة ، وجاه ، وسلطان ، ولم يكن إخباره بالنبوة إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب ، وإنه لكلام صدق ألقاه الله ﷻ على لسان رجل ليس من المسلمين.

وتتمَّة لهذا الكلام الذي أجراه الله على لسان رجل من أهل الغرب أُنهي هذا الدرس ببعض الكلمات التي قالتها ألسنة منصفة ، رأتْ صدق النبي ﷺ فشهدت بذلك ، وإذا كان المخالف المتصيِّد للأخطاء قد أقرَّ بصدق خصمه ؛ فإن هذا يُعدُّ من أقوى الأمور التي يُستأنس بها في هذا المقام ، وبها نختم الكلام.

وينبغي أن نقرر هنا أمرًا في غاية الأهمية ، وهو أننا ننقل هذه الكلمات وهذه الشهادات استئناسًا وإلزامًا للمخالف ، وليس من باب الاستدلال أو الاحتجاج ؛ حيث إننا لسنا في حاجة لكلام المخالفين ؛ إذ إن دعوانا ترتكز على الأدلة القوية

التي تُثبت صدقها بصورة يقينية، بغض النظر عن وجود منصفين من المخالفين أم لا، وإذا كانت هذه الشهادات تُشكل بالنسبة لنا مادة للفخر والسرور، فإنها في ذات الوقت تُمثِّل حجرًا نُلقم به المستشرقين، ونُلقم به المعاندين والمجاحدين للقرآن، ولنبيه، ولأهله، نُلقمهم به حجرًا.

نورد فيما يلي بعض الكلمات التي جرت على ألسنة القوم، ومن هؤلاء هنري دكستري الذي يقول: "إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي محمد، وبذلك قصدت أن يكون بحثي أولًا في تحقيق شخصيته، وتقرير حقيقته الأدبية علَّني أجد في هذا البحث دليلًا جديدًا على صدقه وأمانته، المتفق تقريبًا عليها بين جميع مؤرخي الديانات، وأكبر المتشيعين للدين المسيحي".

وقد دعَّم توماس كارليل هذه الحقيقة بقوة حيث قال: "هل رأيتم قط رجلًا كاذبًا يستطيع أن يُوجد دينًا عجيبًا، إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب، وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا، لكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم، كأنه لم يكن"، وقال أيضًا: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدِّن في هذا العصر أن يُصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا مزوِّر، فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرجل ما زالت السراج المنير لملايين الناس من المسلمين خلقهم الله الذي خلقنا، أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها تُعدّ أكذوبة وخدعة، أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول؛ فما الناس إذن إلا بُلْه ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث كان الأولى ألا تخلق".

ومن أعظم الشهادات على صدق النبي ﷺ هذا الموج المتتابع من قوافل الداخلين في الإسلام، والذي يُقدَّر بمئات الآلاف سنويًّا على مستوى العالم.

من أدلة الصدق والإعجاز في القرآن نفسه

عناصر الدرس

العنصر الأول	: الإعجاز العلمي	٤٩
العنصر الثاني	: الإعجاز البياني	٥٤
العنصر الثالث	: الإعجاز التشريعي	٥٧
العنصر الرابع	: إخبار القرآن بالغيب الماضي والمستقبل	٥٨
العنصر الخامس	: إعلان القرآن للتحدي	٦٠

الإعجـــــــاز العلمـــــي

بعد أن استدللنا على أن القرآن كلام الله عن طريق إثبات صدق النبي ﷺ، فإننا نشرع في تثبيت هذه الحقيقة بذكر بعضٍ من أدلة الصدق والإعجاز في القرآن نفسه.

نعم، إن القرآن معجز، شهد بذلك المسلم والمخالف، وإعجاز القرآن لا بد وأن نقف معه وقفة متأنية، نُعرِّف فيها الإعجاز، ثم نتكلم عن بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، نتكلم عن الإعجاز العلمي، والإعجاز البياني، والإعجاز التشريعي، وعن إخبار القرآن بالغيب، وعن إعلان التحدِّي لكل الخلق.

نقول: إن الإعجاز هو إثبات العجز، والعجز اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضدُّ القدرة، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز.

أما المعجزة: فهي أمرٌ خارق للعادة يؤيِّد الله بها أنبياءه ورسله -عليهم السلام- تصديقًا لدعواهم، ومن المعلوم أن المعجزة لا تأتي إلا من الله ﷻ، ومعلوم كذلك أن القرآن ينفرد عن سائر الكتب بأنه كتاب معجز بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنًى، وإعجاز القرآن الكريم جاء على وجوه عدَّة، وسوف أعرض فيما يلي بعض الخطوط الرئيسة التي تُبيِّن وجوهًا من إعجاز القرآن.

فنتكلم أولًا بكلام موجز عن الإعجاز العلمي في القرآن، ثم نتكلم ثانيًا عن الإعجاز البياني في القرآن، ثم نتكلم ثالثًا عن الإعجاز التشريعي في القرآن، ثم نتكلم عن إخبار القرآن بالغيب، ثم نتكلم عن إعلان التحدي لكل البشر.

أولًا: الإعجاز العلمي في القرآن:

لقد أخبر القرآن بالحقائق العلمية التي سوف تظهر بعد نزوله بآلاف السنين؛ بحيث إذا قرأه العالم المعاصر المتسلّح بأحدث نظريات العلوم وقوانينها، واكتشافاتها يجده قد أشار إليها إشارات واضحة، فالقرآن ومعجزاته العلمية التي يتحدَّى بها العالم كأنه ينزل اليوم مواكبًا لطبيعة العصر، فعظمة المعجزة القرآنية تقف اليوم لتُحدث أصحاب العلوم المختلفة، كعلم الفلك، والفضاء، والطبيعة، والأحياء، والفيزياء النووية، والكونية، والهندسة الوراثية؛ بل كل العلوم والنظريات والقوانين تُعجزهم بنفس قوة الإعجاز البلاغي للعرب الفصحاء.

إن خالق الكون هو الذي يتحدث عن كونه، فهو الذي يعلم ما خلق ومَن خلق قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، وفيما يلي أعرض لبعض الإشارات العلمية التي أشار إليها القرآن، ولم تظهر للعلماء إلا في العصر الحديث مما يدل دلالة يقينية على أن القرآن لا مصدر له إلا الله.

من هذه الإشارات العلمية التي تكلَّم عنها العلماء فيما يتعلَّق بالإعجاز العلمي للقرآن حالة الصدر في طبقات الجو العُليا:

ففي المؤتمر العلمي الأول عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الذي عُقد في إسلام آباد، تقدَّم الدكتور صلاح الدين المغربي، وهو عضو في الجمعية الأمريكية لطب الفضاء، وهو أستاذ لطب الفضاء بمعهد طب الفضاء بلندن، تقدم ببحث عن حالة الصدر في طبقات الجو العليا فقال: "لنا حويصلات هوائية، والأكسيجين إذا دخل في الهواء ينفخ هذه الحويصلات الهوائية فنراها منتفخة، لكن إذا صعدنا إلى طبقات الجوِّ العليا ينقص الهواء وينقص الأكسيجين، فيقل

ضغطه، فتنكمش هذه الحويصلات ويقل الأكسيجين، فإذا انكمشت هذه الحويصلات فإن الصدر يضيق، ويتحرج التنفس، ويصبح صعبًا، قال: كل هذا يُشير إليه القرآن في قوله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]".

يضرب ﷻ مثلًا بحال من يصعد في السماء، فهل كان سيدنا محمد ﷺ عنده من علوم الطيران ما يُمكِّنه من معرفة تلك الحقائق، لقد كان عند النبي ﷺ أكثر من ذلك كان عنده الوحي الذي يأتيه من الله ﷻ.

كذلك من ضمن الإشارات العلمية التي يتكلم عنها العلماء ويجعلونها تحت عنوان الإعجاز العلمي في القرآن، يتكلم عن عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح عند التقائهما، هذه الظاهرة الفريدة وردت الإشارة إليها في قوله ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، فقد لاحظ علماء البحار هذه الظاهرة عند التقاء فَرْعَي نهر النيل عند دمياط وعند رشيد بالبحر الأبيض؛ حيث تندفع مياه النهر العذبة بقوة شديدة إلى البحر المالح، ومع هذا فإن مياه كل منهما تحتفظ بمذاقها وأحيائها.

كذلك من ضمن الإشارات العلمية العلاقة بين الإثمار وغشيان الليل للنهار، مما يلفت النظر ذكر غشيان الليل للنهار بعد ذكر الثمرات، كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وهذه حقيقة علمية لم تُعرف إلا أخيرًا، وهي أن الثمرة تنمو في الليل، وأن غشيان الليل

للنهار أمر ضروري لإنضاج الثمرة، وأنه إذا لم يأخذ النبات حظَّه من الظلام في الليل فإنه يضعف، وقد اكتشف هذا الأمر في الخمسينات من القرن الماضي في حادثة طريفة؛ فقد أقامت إحدى شركات الإعلام لوحة قوية الإضاءة في مزرعة أرز مملوكة لأحد اليابانيين، فلاحظ الرجل أن محصول الأرز قد تضاءل، فرفع دعوى على الشركة المعلنة يطالبها بتعويض عما أصابه من الخسارة بسبب هذه الإضاءة القوية في الليل، وأخذت المحكمة الأمر مأخذ الجدِّ، فكلفت فريقًا من العلماء أن يدرس القضية دراسة علمية لتقرير ما إذا كانت الإضاءة القوية قد أثَّرت بالفعل في تناقص محصول الأرز، أم لا.

وجاءت الأبحاث مثبتة لهذا الأمر العجيب، أثبتت الأبحاث أن النبات يستريح في الليل، أو إن شئت قلت: ينام في الليل؛ ليستأنف نشاطه مع مطلع النور في الصباح، وأن تلك الإضاءة القوية قد منعت النبات من غفوته الضرورية له فضعف المحصول؛ نتيجة لذلك الإرهاق الذي أصابه.

ثم تبيَّن كذلك أن الثمرة تأخذ أكبر حظٍّ من نموها في تلك الفترة بالذات، الفترة التي يكون النبات فيها في غفوته، وأن كل نوع من الثمار يحتاج إلى فترة معينة من الإظلام؛ لكي ينمو نموًّا طبيعيًّا، وتبين كذلك أن توزيع النبات على الأرض يتناسب تناسبًا دقيقًا مع أطوال فترة الليل في كل مكان، هذه الحقائق العجيبة التي اكتُشفت بمناسبة تلك القضية العجيبة، والتي حكمت فيها المحكمة لصالح صاحب المزرعة؛ تبيَّن لنا أن هناك ترابط علمي بين الإثمار وبين غشيان الليل للنهار، فسبحان العليم القهار.

كذلك من أهم ما يتكلم عنه العلماء عند حديثهم عن الإعجاز العلمي في القرآن الكلام على مراحل خلق الإنسان، فعندما اكتشف الميكروسكوب المكبر، أو المجهر في نهاية القرن السابع عشر تصوَّروا بعد أن شاهدوا الحيوانات المنوية أن الإنسان بذرة مثل الشجرة الصغيرة، فتصوَّروا أنه مختزل في الحبة المنوية، فرسم له

العلماء صورة، وتخيلوا أن الإنسان يوجد كاملًا في النطفة المنوية غير أنه ينمو، ومنذ قرابة الستين عامًا تأكدوا أن الإنسان لا يوجد إنسان دفعة واحدة، وإنما يمرُّ بأطوار ومراحل، طورًا بعد طور، ومرحلة بعد مرحلة، وشكلًا بعد شكل، ووصل العلم إلى إحدى الحقائق القرآنية.

يقول الشيخ الزنداني: "التقينا مرة مع أحد الأساتذة الأمريكان بروفيسور أمريكي من أكبر علماء أمريكا اسمه مارشال جونسون، فقلنا له: ذُكر في القرآن أن الإنسان خُلق أطوارًا، فلما سمع هذا الكلام كان قاعدًا، فوقف وقال: أطوارًا! قلنا له: نعم، وكان ذلك في القرن السابع الميلادي عندما نزل القرآن على النبي جاء هذا الكتاب -أي: القرآن- ليقول: إن الإنسان قد خلق أطوارًا، فقال ذلك العالم: هذا غير ممكن غير ممكن، قلنا له: لماذا تحكم عليه بهذا؟ إن القرآن يقول: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: ٦]، ويقول: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣، ١٤] فقعد البروفيسور مارشال جونسون على الكرسي، وهو يقول بعد أن تأمل الأمر: أنا عندي جواب، ليس هناك إلا ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون عند محمد ميكروسكوبات ضخمة تَمكَّن بها من دراسة هذه الأشياء، وعلم بها ما لم يعلمه الناس، ولذلك ذكر هذا الكلام.

أما الاحتمال الثاني: فهو أن تكون وقعت صدفة، أو جاءت له هذه المعلومة من قبيل الصدفة.

أما الاحتمال الثالث: فإن المتكلم بهذا الكلام، وإن الذي نطق بهذا الكلام لا يكون إلا رسولًا من عند الله.

قلنا له: أما القول بأنه كان عنده ميكروسكوب وآلات، فأنت تعرف أن الميكروسكوب لم يظهر إلا بعد نزول القرآن بعدَّة أزمان. كما أنه من الصعب

القول بأن ذلك صدفة، فقال: هذا صحيح صعب أن نقول صدفة، فقلنا له: ما رأيك لو قلنا: إنه لم يذكر القرآن هذه الحقيقة في آية واحدة فقط، بل ذكرها في آيات كثيرة، ولم يذكرها في آيات إجمالًا؛ بل أخذ يُفصِّل كل طور، الطور الأول يحدث فيه كذا وكذا، والطور الثاني يحدث فيه كذا وكذا، والطور الثالث يحدث فيه كذا وكذا، أيكون هذا صدفة؟ فلما عرضنا عليه تفاصيل الأطوار، وما في كل طور قال: الصدفة كلام غلط، هذا علم مقصود، قلنا له: ما تفسير ذلك عندك؟ قال: لا تفسير لذلك إلا أنه وحي يأتي من فوق.

ومما هو معلوم أن الإعجاز القرآني واضح ومقرر في جميع المجالات العلمية، والطبية، والجغرافية، والاجتماعية، والفضائية، وفي عالم والحيوان والنبات وغيرها.

نخلص مما سبق إلى أن الإعجاز العلمي هو جانب من جوانب التميز التي تفرَّد بها القرآن، وانكشاف الحقائق العلمية التي يحتويها القرآن للبشر جيلًا بعد جيل هو جانب من جوانب استمرارية الرسالة التي نزل بها هذا الكتاب، فهو ليس لجيل واحد تنتهي مهمته بعدها، أو تنقطع صلة الأجيال به؛ بل هو لكل الناس في كل جيل، يهديهم إلى ربهم ﷻ ويوجههم إلى الخير وإلى الحق، ويربيهم على المنهج القويم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

الإعجاز البياني

وبعد بيان بعض المظاهر من مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن، ننتقل إلى الكلام على نوع آخر من أنواع الإعجاز، ألا وهو الإعجاز البياني؛ فلقد حوى القرآن كل فنون البلاغة والفصاحة والبيان، واشتمل على جميع شروط الكلام البليغ في كل سوره، وآياته، وكلماته، وأخذ من كل أنواع البلاغة بأوفر نصيب، وقد

أثَّر القرآن في الصحابة { تأثيرًا كبيرًا، وهم أفصح الناس، وأعلمهم باللغة وبيانها؛ لقد حصل لهم التأثير الكبير. وفيما يلي أعرض طرفًا من هذا التأثر الذي وقع للصحابة عند سماعهم القرآن:

لقد تأثر جُبير بن مطعم قبل إسلامه عند سماعه لآيات من سورة الطور، فعن جُبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، يقول جبير: كاد قلبي أن يطير، وفي رواية: وذلك أول ما وقر من الإيمان في قلبي.

ولم يقتصر التأثر بالقرآن على من أسلم فيما بعدُ، بل لقد تأثّر بالقرآن أيضًا من بقي على شركه، ومن أدلة ذلك سجود المشركين بدون شعور منهم عند قراءة النبي ﷺ لسور النجم، فعن عبد بن مسعود > أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم، فسجد بها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصى -أي: تراب- فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا، قال عبد الله: فلقد رأيته بعدُ قُتل كافرًا، وهو أمية بن خلف.

وها هو واحد من أبلغ أهل مكة ومن أعلمهم بلغة العرب يشهد بعظمة بيان القرآن، فعن ابن عباس { أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه النبي القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يَبْلُغ قومك إنك منكر له، أو إنك كارهٌ له. قال -أي: الوليد: ماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يُشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله

الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليَحْطِم ما تحته. قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، فنزل قوله ﷻ: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ [المدثر: ١١-١٥] الآيات.

وبهذا الإعجاز أصبح القرآن يُمثِّل بالنسبة للمسلم سرَّ نهضته، وإن شئت فقل: هو نار ثورته، بل هو نور هدايته، هو الروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز، الذي هزَّ النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره أكثر مما يخافون من الجيوش الفاتحة؛ لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح. أما سلطان هذا الكتاب فقد امتدَّ إلى حرائر النفوس، وكرائم الأرواح بما لم يُعهد له نظير في أيَّة نهضة من النهضات، ولقد أشار القرآن إلى هذا الوجه من وجوه إعجاز حين سمَّى الله ﷻ كتابه روحًا من أمره، يقول ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فبه أحيا النبي ﷺ موات هذه الأمة في أقل من عشرين سنة، فملكوا ملك كسرى وقيصر، وخفقت راياتهم على أكثر من نصف المعمورة في أقل من سبعين سنة.

مما سبق يتبيَّن أن للقرآن تأثيرًا عجيبًا على نفوس قارئيه ومستمعيه، فما استمع إليه مستمع إلا أخذ بطريقته، وقد مارس أهل اللغة العربية فنونها منذ نشأت لغتهم، حتى شبَّت، وترعرعت، وأصبحت في عُنفوان شبابها، واستظهروا شعرها، ونثرها، وحكمها، وأمثالها، وطاوعهم البيان في أساليب ساحرة، وكلما ارتفعت اللغة، وتسامت وقفت على أعتاب لغة القرآن في إعجازه البياني كثيرة صاغرة، تنحني أمام أسلوبه الرائع البديع؛ إجلالًا وتقديرًا وتعظيمًا.

الإعجـــــاز التـــــــشريعي

وبعد الكلام على الإعجاز البياني الذي اشتمل عليه القرآن، نتكلم عن نوع آخر من أنواع الإعجاز ألا وهو الإعجاز التشريعي، فالقرآن مُعجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان، وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه، فقد جاء القرآن هداية للناس جميعًا، واشتمل على أحكام تشريعية تكفُل سعادة العباد في الدنيا والآخرة، وتفي باحتياجاتهم الزمانية والمكانية، بخلاف ما عليه حال قوانين البشر وشرائعهم التي ظهر عجزها عن معالجة متطلبات البشر، وثبت قصورها عن مسايرة الأوضاع المستجدّة بين الحين والآخر، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

فقد عرفت البشرية في حِقَب التاريخ ألوانًا مختلفة من المذاهب، والنظريات، والنظم، والتشريعات التي تهدف إلى تحقيق سعادة الفرد في بناء مجتمع فاضل، ولكن واحدًا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي؛ فالقرآن يبدأ بتربية الفرد؛ لأنه لَبِنة المجتمع، ويقيم تربيته على تحرير وجدانه، وتحمل التبعة، فيُحرر القرآن وجدان الإنسان المسلم بعقيدة التوحيد التي تُخلصه من سلطان الخرافة، والوهن، وتفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات؛ حتى يكون عبدًا خالصًا لله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

وإذا صحَّت عقيدة الإنسان المسلم كان سهلًا عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات، وكل عبادة مفروضة يُراد بها صلاح الفرد، ولكنها مع

ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة، ثم ينتقل القرآن من تربية الفرد إلى بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع، فشرع الزواج؛ استجابة لغريزة الجنس، وإبقاء النوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف قال ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

وقرر القرآن صيانة الكليات الخمس الضرورية للحياة الإنسانية النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل، ورتَّب عليها العقوبات المنصوصة التي تُعرف في الفقه الإسلامية بالجنايات والحدود قال ﷻ: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال ﷻ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، وقال ﷻ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨].

ووضع القرآن أُسس العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم، أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عُرفت في عصور الحضارة الإنسانية.

وخلاصة القول: إن القرآن دستور تشريعي كامل، يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة، وأرقى مثال، وسيظلُّ إعجازه التشريعي قرينًا لإعجازه العلمي، وإعجازه البياني إلى الأبد.

إخبار القرآن بالغيب الماضي والمستقبل

بعد الكلام على الإعجاز التشريعي الذي اشتمل عليه القرآن نتطرَّق إلى الكلام على محور آخر من محاور الإعجاز الواردة في القرآن، ألا وهو إخبار القرآن بالغيب الماضي والمستقبل.

لقد أخبر القرآن بالغيب الماضي ومن ذلك قوله ﷻ بعد قصة السيدة مريم: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال ﷻ بعد قصة سيدنا

يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال ﷻ بعد قصة سيدنا موسى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦]، أي: إنك يا محمد لم تكن موجودًا في ذلك المكان حتى تستطيع أن تعرف هذه القصص، ولكن الله ﷻ هو الذي أوحى إليك بها، فلعل الناس إذا عرفوا ذلك آمنوا بك، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

فإذا كان النبي ﷺ ليس موجودًا في تلك الأزمنة أو الأمكنة، ولا يستطيع أن يقرأ أو أن يكتب؛ دلَّ هذا قطعًا على أن هذه الأخبار إنما هي من عند الله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية، ولقد أخبر القرآن بالغيب المستقبل، كما أخبر بالغيب الماضي، ومن تلك الأخبار التي أخبر بها القرآن عن المستقبل قوله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ١-٦]، وبالفعل تحققت غلبة الروم بعد سنوات قليلة، فعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس } في قول الله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: غُلبت وغَلبت، كان المشركون يُحبّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يُحبُّون أن يظهر الروم

على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ قال : ((أما إنهم سيغلبون)) فذكره أبو بكر لهم، فذلك قوله ﷻ : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قال سفيان : "سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر".

ومن ذلك أيضًا إخبار النبي ﷺ عن بعض المشركين أنه من أهل النار، وهو ما زال حيًّا، فيموت على الكفر كأبي لهب وامرأته قال ﷻ : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ ﴾ [المسد : ١-٥].

إعلان القرآن للتحدي

بعد بيان تلك اللمحات، وهذه المواقف وهذه الآيات التي تُدلّل على إعجاز القرآن بإخباره عن الغيب الماضي والمستقبل نتكلم عن إعلان القرآن للتحدي، نعم، لقد تحدَّى الله ﷻ الخلق من إنس وجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو معارضته ؛ فلم يستطيعوا قال ﷻ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء : ٨٨]، ثم لم يزل يتنزَّل معهم بالتحدِّي، فلم عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، قال ﷻ : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣]، فلما عجزوا تحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا قال ﷻ : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨]، ثم تحدَّاهم أن يأتوا بحديث من مثله فعجزوا قال ﷻ : ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤].

نعم، لقد تحدَّاهم الله ﷻ في مكة والمدينة، قال ﷻ في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فقال ﷻ في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، وكل هذه الآيات قد نزلت في مكة، ثم تحدَّاهم الله ﷻ أيضًا في المدينة قال ﷻ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] فتحدَّاهم كلهم متفرقين، ومجتمعين أميُّهم وكتابيهم، تحداهم في مكة، وتحداهم في المدينة مع شدة عداوتهم له، وبغضهم لدينه، ومع كل هذا فقد عجزوا عن الإتيان بمثله.

ومعلوم أن رجلًا عاقلًا لو عطش عطشًا شديدًا خاف منه الهلاك على نفسه، وكان معه ماء للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشًا لحكمنا أنه عاجز عن شربه، غير قادر عليه، وهذا واضح لا يُنكره عاقل، فلما عجز القوم عن معارضة القرآن مع توفُّر الدواعي لذلك؛ علمنا أنه ليس بمقدور إنسان أن يأتي بمثله، فهو إذن من خالق البشر الذي هو على كل شيء قدير.

وأختم الكلام بذكر محاولة يائسة تقود إلى الحق، فلقد ذكر الدكتور إبراهيم خليل، وهذا الدكتور كان قبل إسلامه قسًّا مبشرًا من مواليد الإسكندرية، وكان يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، وعمل أستاذًا بكلية اللاهوت في أسيوط؛ حتى قاده التعمق في دراسة الإسلام إلى الدخول في الإسلام. يذكر هذا الدكتور إبراهيم خليل في كتابه (لماذا أسلم صديقي) يذكر قصة طبيب مصري نصراني، قرر كتابة كتاب يردُّ فيه على تحدِّي القرآن، يُعَنْونُ له بعنوان "وانتهت تحديات القرآن" كتب الطبيب المصري رسالة، وأرسل صورة

منها إلى ألفي عالم، ومعهد، وجامعة ممن تخصصوا في الدراسات العربية والإسلامية في مختلف أنحاء العالم.

وكان مما كتبه في خطابه قال: "القرآن يتحدَّى البشرية في جميع أنحاء العالم في الماضي والحاضر والمستقبل بشيء غريب جدًّا، وهو أنه لا تستطيع تكوين ما يُسمى بالسورة باللغة العربية، كسورة الإخلاص، وهي من أقصر سور القرآن، يقول: أعتقد أن مهاجمة هذه النقطة الهامة والخطيرة، وذلك بالإتيان بأكبر عدد ممكن من السور كهذه السورة، آمل أن تكون أفضل من تلك الموجودة بالقرآن، وأن ذلك سيسبِّب نجاحًا عظيمًا بإقناع المسلمين، بأننا قبلنا هذه التحديات، بل وانتصرنا عليهم، فهل تتكرَّم يا سيدي المشكور بإرسال سورة كهذه السورة نكوِّن منها جملة مما هو في القرآن.

وقد أثبت إبراهيم خليل العناوين الألفين التي أُرسل لها الخطاب، وتكرَّرت محاولة ذلك الطبيب النصراني أربع مرات طوال سنة ١٩٩٠ من الميلاد، فكانت المحصلة ثماني آلاف رسالة، وصلت إلى العلماء، وإلى المعاهد، وإلى الجامعات المتخصصة في الدراسات الإسلامية والعربية في مختلف أنحاء العالم، وكانت الردود باهتة، منها اعتذار كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن، فقد كان ردُّها آمل أن تتفهَّم أن كليتنا وأعضاءها يرفضون الخوض في المنازعات الدينية، وبالتالي فإنه لا يُمكننا إجابة طلبك، وأما ردُّ إذاعة حول العالم مونت كارلو فكان: "الموضوع الذي طرحته موضوع هام، لكننا كإذاعة لا نُحب أن ندخل في حمى وطيس هذه المعركة؛ إذ لا نظن أنها تخدم رسالة الإنجيل، فرسالتنا هي رسالة محبة، وليست رسالة تحدي".

أما ردُّ الفاتيكان فقد جاء فيه: "بوصفنا مسيحيين فنحن لا نقبل -بالطبع- أن يكون القرآن هو كلام الله، على الرغم من إعجابنا به؛ حيث يعتبر القمة في

الأدب العربي، ولقد أخبرني زميل مصري بأن أفضل أجزاء القرآن تُذكرك بأجزاء من الكتاب المقدس، ولكن هذا بالطبع لا يعني أنه أُوحي به من عند الله، كما هو الحال في الكتاب المقدس"، وهنا نقطة عملية تعوق مسألة الإتيان بسورة من مثل القرآن، وهي من ذا الذي سيحكم على هذه المحاولة إن تمَّت بالفعل.

والخلاصة: أن الفاتيكان اعتذر عن إجابة طلب هذا الطبيب، فأعاد الطبيب مراسلة جميع معاهد ومؤسسات الفاتيكان طالبًا إجابة التحدي، وعرض أن يكون هو الحكم بين القرآن والفاتيكان؛ فكانت الإجابة مشابهة للإجابات السابقة، وكانت النتيجة النهائية هي دخول هذا الطبيب في الإسلام.

وأختم الكلام في هذا الدرس ببيان إعجاز القرآن في عيون نصرانية منصفة، فقد شهد الكثير من المخالفين للقرآن بالإعجاز، منهم من أسرَه جانب الإعجاز العلمي، ومنهم من أسره جانب الإعجاز البياني، وفيما يلي أعرض طرفًا من هذه الشهادات:

لقد اعترف عددٌ من المنصفين المخالفين بالإعجاز العلمي في القرآن، وقد حمل لواء هذا الاعتراف العالم الفرنسي دكتور موريس بوكاي؛ حيث قال: "تناولت القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذي يُعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية، ولقد أذهلتني دِقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات، وهي تفاصيل لا يُمكن أن تُدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة، والتي لم يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد أن يكوِّن عنها أدنى فكرة".

وقد اعترف كذلك عددٌ من المنصفين المخالفين بالإعجاز البياني في القرآن، وقد جلى بلاشير هذه الحقيقة بأدق عبارة حيث قال: "إن القرآن ليس معجزة بمحتواه

وتعليمه فقط ، إنه أيضًا يمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة ، تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية من التحف".

وأكد توماس أرنولد على هذه الحقيقة حيث قال : "إننا نجد حتى من بين المسيحيين من يُقرِّر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل ، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به"، وقد قرر بوزار أن القرآن هو النموذج الرفيع والمثل الأعلى في البيان العربي حيث قال : لا بد عند تعريف النص القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين :

الأول : أنه كتاب مُنزَّل غير مخلوق.

والثاني : أنه قرآن أي : كلام حي في قلب الجماعة ، وما زال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيعًا للأدب العربي تستحيل محاكاته ، والشهادات كثيرة إلا أن اللبيب تكفيه الإشارة.

تعريف الطعن في القرآن وتاريخه والتأليف فيه

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	تعريف الطعن في القرآن	٦٧
العنصر الثاني	:	الفئات الطاعنة في القرآن الكريم في العصر الحديث	٧٠
العنصر الثالث	:	تاريخ الطعن في القرآن، والتأليف في الرَّدِّ على الطاعنين	٧٣

تعريف الطعن في القرآن

نتحدث تحت هذا العنوان عن عدة أشياء، نتحدث عن تعريف الطعن في القرآن، ونتحدث عن المصطلحات التي أوردها العلماء مما يُرادف كلمة الطعن في القرآن، ونتكلم عن تعريف موجز ومجمل بالطاعنين، أو بأبرز الطاعنين في العصر الحديث، وكذلك نتحدث بعد ذلك عن تاريخ الطعن في القرآن، وعن أسباب الطعن في القرآن، وعن أساليب العلماء في الرَّدّ على الطعون المثارة على القرآن،

تعريف الطعن: قال ابن فارس -رحمه الله: "طعن أصل صحيح مطَّرد، وهو النخس في الشيء بما ينفذه، ثم يحمل عليه، ويستعار من ذلك الطعن في الرمح، ورجل طعان في أعراض الناس، وفي الحديث: ((لا يكون المؤمن طعانًا))، وقال بعضهم: طعن بالرمح يطعُن بالضم؛ أي: أن الطعن إذا كان المراد به المعنى الحسِّي؛ فإن المضارع يطعن بضم العين، وطعن بالقول يطعن بفتح العين ذلك إذا أريد بالطعن المعنى المعنوي، وليس الحسي".

إذن لكلمة طعن معنيان حسي ومعنوي، فالحسي بمعنى الضرب بآلة حادة كالخنجر، وهو المتعدي للمفعول طعنه، والمضارع منه مضمون العين يطعن، وبعضهم يفتحه. أما الطعن المعنوي: فإنه يكون بمعنى القدح في شيء؛ سواء كان نسبًا، أو كتابًا، أو شخصًا، أو غير ذلك.

بعد الكلام على تعريف كلمة الطعن فإننا نُذكِّر بتعريف كلمة القرآن بالرغم من أن القرآن لا يحتاج إلى تعريف، فنقول: قال العلماء في تعريف القرآن: هو كلام الله المُعجز المُنزَّل على نبينا ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المُتعبَّد بتلاوته.

وبعد أن عرفنا كلمة الطعن، وعرفنا القرآن، فإننا نُعرف هذه الجملة، أو هذا المركب المُسمَّى بالطعن في القرآن، فنقول: الطعن في القرآن: هو أحد مباحث علوم القرآن التي تبحث في الرد على من طعن في كتاب الله، أو زعم تناقضه، أو إشكاله، والرد على تلك الطعون بالأدلة الشرعية، والعقلية، والحسية.

بعد هذا التعريف الذي بدأنا به في الكلام على الطعن في القرآن، نذكر بعد ذلك أن العلماء -رحمهم الله- قد ذكروا عدَّة مصطلحات مرادفة لجملة الطعن في القرآن، ويعنون بتلك المصطلحات الطعن في القرآن، من هذه المصطلحات مثلًا: المتشابه، ومن هذه المصطلحات مختلف القرآن، أو موهم الاختلاف، ومن هذه المصطلحات موهم الاضطراب، وهناك مصطلحات أخرى نقف معها وقفة إجمالية موجزة بإذن الله ﷻ، فنقول: هناك عدة مصطلحات في تسمية هذا العلم تُرادف مصطلح الطعن في القرآن.

من هذه المصطلحات: المتشابه؛ حيث إن كثيرًا من العلماء يُطلقون على هذا العلم علم المتشابه مثل: كتاب (الآيات المتشابهات) لبقي بن مخلد، و(أضواء على متشابه القرآن) لمؤلفه خليل ياسين، وغير ذلك من الكتب، وأخذوا هذا الاسم من قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [آل عمران: ٧].

وكذلك من المصطلحات التي تُرادف مصطلح الطعن في القرآن قولهم: مختلف القرآن، أو موهم الاختلاف، وهكذا سمَّاه الإمام الزركشي في (البرهان) في النوع الخامس والثلاثين قال: "معرفة موهم المختلف"، وسماه السيوطي في (الإتقان) موهم الاختلاف والتناقض، وقد أخذوا هذا الاسم من قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

كذلك من المصطلحات التي تُرادف مصطلح الطعن في القرآن قولهم: موهم الاضطراب، ومن هذا كتاب (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، وهذا الاسم والذي قبله يتحدَّث عن نوع واحد من الطعون، ألا وهو التناقض في الآيات، بالرغم من أن الطعون لها أنواع أخرى، كنفي نسبة القرآن إلى الله، والطعن في لغة القرآن، وغير ذلك من أنواع الطعون.

كذلك من المصطلحات التي تُرادف مصطلح الطعن في القرآن قولهم: أسئلة القرآن؛ أي: الأسئلة التي يطرحها بعض الناس بقصد التشكيك في كتاب الله ﷻ ومن هذا كتاب (التبيان في مسائل القرآن) لرضي الدين القزويني.

وبعضهم يسميها جوابات القرآن بدلًا من أسئلة القرآن؛ باعتبار الجواب على هذا السؤال ككتاب (الجوابات في القرآن) لمقاتل بن سليمان، وبعضهم يجمع بين الاسمين مثل (أسئلة القرآن وأجوبتها) لأبي بكر الرازي.

كذلك من ضمن المصطلحات التي يُطلقها بعض العلماء ويريدون بها مرادفة مصطلح الطعن في القرآن قولهم: غامض القرآن، ومن هذا كتاب (كشف غوامض القرآن) لفخر الدين الطريحي، كذلك من ضمن هذه المصطلحات قولهم: مشكل القرآن، ومن هذا كتاب: (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، وهو من أول الكتب المفردة في هذا الفن، وهو كتاب مطبوع ومُتداول، وكذلك كتاب: (فوائد في مشكل القرآن) لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، و(مشكلات القرآن) لمحمد أنور الكشميري، و(مشكل القرآن) للحكيم الترمذي، وهو أكثر الأسماء تداولًا بين العلماء في هذا الفن.

الفئات الطاعنة في القرآن الكريم في العصر الحديث

بعد الكلام على هذه المصطلحات التي تُرادف مصطلح الطعن في القرآن أنتقل بعد ذلك للكلام على التعريف بأبرز الفئات الطاعنة في القرآن في العصر الحديث:

الطاعنون في كتاب الله هم المُشكِّكون فيه، الذين يُوردون عليه الشُّبَه، والإشكالات، والاضطرابات، يُريدون بذلك إسقاط قُدسية القرآن من قلوب المسلمين، وذلك لأن القرآن هو قطب رَحَى المسلمين الذي عليه يدُورون، وهو العروة الوثقى التي بها يتمسَّكون، وهو المورد العذب الذي إليه يردون ومنه يصدرون، وهو أساس الإسلام وركن الشريعة الركين، الذي إذا سقط؛ سقط كل البناء، وتهدَّم الصرح، وقُوِّض الإسلام، ولم تبق للمسلمين باقية ولا قوة.

وقد كثر الطاعنون في كل قرن، ولكننا في هذا العصر الحديث نتكلم عن أبرز صنفين من أصناف الطاعنين للقرآن في هذا العصر، ألا وهما: الصنف الأول: المستشرقون، الصنف الثاني: العلمانيون، وهم تلاميذ المستشرقين، وكذلك يصحُّ أن نُلقبهم بلقب العقلانيون، وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل منهما:

أولًا: المستشرقون: الاستشراق هو تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويُطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم، وتاريخهم، ويُقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثَّل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق، والتي تشمل حضارته، وآدابه، ولغاته، وثقافته. واستُغلَّ في أكثر مراحله لخدمة الاستعمار وتشويه تعاليم الدين، ولقد نشأ هذا الفكر عندما عجز النصارى عن مواجهة المسلمين بالسيف، فرأوا أن أفضل طريقة لمحاربة المسلمين هي الغزو الفكري،

ولهم في ذلك طُرق كثيرة للوصول إلى أهدافهم تلك، من هذه الطرق: تأليف الكتب، وإصدار المجلات، وإلقاء المحاضرات في المنتديات عن الإسلام، والقرآن والسنة، وتاريخ المسلمين، وإنشاء الجمعيات والمراكز التي تخدم أغراضهم، وعقد المؤتمرات السرية والعلنية، وإنشاء موسوعة دائرة المعارف الإسلامية، وإرسال البعثات، وإنشاء جامعات وكليات غربية في بلاد الشرق.. وغير ذلك من الوسائل التي لها آثارها إما سلبي وإما إيجابي، ولكن أكثر هذه الآثار يُعدُّ من الآثار السلبية.

فمن الآثار السلبية:

الطعن في القرآن والسنة، وهما مصدر التشريع في الدين.

كذلك من الآثار السلبية محاولة إحياء الفرق المنحرفة الميتة.

كذلك صدُّ الناس عن الإسلام بتشويه تعاليمه كما فعلت الموسوعة البريطانية.

كذلك إخراج جيل من أبناء المسلمين مُنسلِخ عن دينه، بل مُحارب له.

كذلك من الأهداف والآثار السلبية: التشكيك في الثوابت كالجهاد، والحجاب، والميراث، والعقوبات الشرعية، وغير ذلك من الثوابت.

كذلك من هذه الآثار السلبية: إخراج المرأة من جلبابها بتصوير الحجاب بأنه خِرقة لا قيمة لها، ومحاولة مساواة المرأة للرجل في كل شيء حتى في جواز تعدُّد الأزواج.

وإذا كانت هذه بعض الآثار السلبية الناتجة عن الاستشراق؛ فإن هناك بعض الآثار الإيجابية منها:

شهادة المنصفين منهم بصدق الإسلام وإعجاز القرآن، حتى دفع ذلك الكثير منهم لإعلان إسلامه.

وكذلك من الآثار الإيجابية: إخراج بعض الكنوز الإسلامية التي كانت مخطوطة؛ فقد أُخرجت هذه المخطوطات، وحُققت، وطُبعت.

كذلك من الآثار الإيجابية: عمل (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

بعد بيان بعض الإيجابيات نتكلم عن دوافع الاستشراق، هذه الدوافع ترجع إلى أمور ثلاثة:

أولًا: الدافع الاستعماري.

ثانيًا: الدافع الديني.

ثالثًا: الدافع العلمي.

وأكتفي بهذا التعريف الموجز لمصطلح الاستشراق والمستشرقين، لأنتقل بعد ذلك مباشرة إلى الكلام عن العلمانيين:

ونقصد بالعلمانيين تلاميذ أولئك المستشرقين: أولئك الذين رضعوامن المستشرقين أفكارهم، ورضعوا منهم طعونهم في كتاب الله، ومع هذا يدَّعون الإسلام. نعم، إن كثيرًا من العلمانيين يدَّعون الإسلام بالرغم من طعنهم في كتاب الله وطعنهم في الإسلام، بل ويتكلمون باسم الإسلام، ويزعمون أنهم بذلك ما يُريدون إلا الإصلاح قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

وينسبون أنفسهم للعلم فيقولون: نحن علمانيون تلبيسًا على عامة الناس، وخطر هؤلاء أشدُّ؛ لأنهم باسم الإسلام يطعنون في الإسلام، وبزعم الدفاع عن

الإسلام يُحاربون الإسلام، أسماؤهم كأسمائنا، وهم أبناء جلدتنا، فتلبيسهم على عامة الناس بل على بعض الخاصة شديد شديد؛ لذلك كان الرَّدُّ على هؤلاء وكشف أباطيلهم وتلبيساتهم من أعظم الواجبات وآكد الفرائض؛ حتى تحذر الأمة منهم، وتسلم من شرهم.

ففي (الصحيحين) عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يُدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: ((نعم)). قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: ((نعم، وفيه دخن))، قلت: وما دخنه؟ قال ﷺ: ((قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر))، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: ((نعم، دُعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها))، قلت: يا رسول الله صفهم لنا. فقال: ((هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)). قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: ((تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)). قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، قال: ((فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يُدركك الموت، وأنت على ذلك)).

تاريخ الطعن في القرآن، والتأليف في الرَّدِّ على الطاعنين

وبعد الكلام عن هذين الصنفين المستشرقين والعلمانيين، وهما أبرز من طعن في كتاب الله ﷻ في هذا العصر الحديث، ننتقل إلى الكلام عن تاريخ الطعن في القرآن، وعن أسباب الطعن في القرآن، وعن كيفية مواجهة دعاوى الطعن في القرآن.

أما عن تاريخ الطعن في القرآن فلا بد أن نعلم أن وجود الإشكال في فهم القرآن، وأن الطعن في القرآن بسبب ذلك موجود منذ نزول القرآن؛ لأن القرآن ينقسم

إلى أربعة أقسام: قسم لا يجهله أحد، وقسم تعرفه العرب من لغتها، وقسم يعرفه الراسخون في العلم، وقسم لا يعلمه إلا الله، وقد ورد ذلك التقسيم في أثرٍ عن ابن عباس } .

وأَقْدَمُ نصٍّ وُجدت فيه حدوث إشكالات في فهم القرآن هو حديث المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون "يا أخت هارون" وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك. فقال ﷺ: ((إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم))، وهذا الطعن الذي ورد في الحديث مع أن النبي ﷺ قد أجاب عليه إلا أنه لا يزال يُردَّد إلى يومنا هذا.

وقد تكلم القرآن عن كثير من الطاعنين، وذكر القرآن طعوناتهم ثم ردَّ عليها ردًّا واضحًا بينًا مفحمًا، فبعضهم ادَّعى أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١] فتحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثله فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

وبعضهم زعم أن هذا القرآن إنما هو من قصص الأولين، وأساطير السابقين قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] فردَّ الله عليهم أنه لا يعرف أن يقرأ ولا يكتب؛ أي: أن النبي ﷺ كان أميًّا لا علم له بالقراءة والكتابة، فكيف ينقل أساطير الأولين؟.

وبعضهم ادَّعى فقال: إن النبي ﷺ قد تعلَّم القرآن من غُلام نصراني فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقد حصل الطعن في القرآن في عصر الصحابة { ، ففي زمن عمر < كان في أجناد عمرو بن العاص رجل يقال له صبيغ، كان يسأل عن متشابه القرآن، فكان يقول: ما ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات: ١]، وما ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ [المرسلات: ٢]، وكان يقول ذلك تشكيكًا وتعنتًا، فأرسل به عمرو إلى سيدنا عمر، فلما علم عمر بقدومه أمر رجلًا أن يحضره وقال له: إن فاتك فعلتُ بك وفعلتُ كذا وكذا، وكان عمر قد جهَّز له عراجين من نخل، فلما جاءه سأله عن أشياء ثم قال له: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر: وأنا عبد الله عمر، فضربه عمر حتى أدماه، ثم تركه حتى شُفي، ثم ضربه مرة ثانية حتى أدماه، ثم تركه حتى شُفي، ثم ضربه حتى أدماه، ثم تركه حتى شُفي، ثم أُحضر، فقال صبيغ: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلًا جميلًا، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأرسله عمر إلى البصرة، وأمر واليها أبا موسى الأشعري بمنع الناس من مجالسة صبيغ، فاشتدَّ ذلك على الرجل، فأرسل أبو موسى إلى عمر أن الرجل قد تاب، وحسنت توبته؛ فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته.

وأخرج عبدُ بن حميد من طريق علي بن زيد، عن أبي الضحى أن نافع بن الأزرق وعطية أتيا ابن عباس فقالا: "يا بن عباس أخبرنا عن قول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥]، وأخبرنا عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١]، وعن قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] وعن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢]، قال: ويحك يا بن الأزرق إنه يوم طويل، وفيه مواقف، تأتي عليهم ساعة لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يكون ما شاء الله يحلفون ويجحدون، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم، وتؤمر جوارحهم فتشهدُ على أعمالهم

بما صنعوا، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]".

وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ قال: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وذكر عدة أسئلة تُوحي بأنه يظن أن هناك تناقضًا واختلافًا بين بعض آيات القرآن، فقال له ابن عباس: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: في النفخة الأولى، ثم يُنفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة يُقبلون على بعضهم ويتساءلون، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]، ثم أجاب ابن عباس عن بقية الأسئلة التي سألها له ذلك الرجل. وقد اشتهر ابن عباس } بالرد على كثير ممن طعن في القرآن بالاختلاف أو التناقض.

أول من ألَّف في ذكر هذه الطُّعُون:

فقد ذكر الإمام السيوطي -رحمه الله- أن أول من ألف في هذا الفن هو قطرب، واسم كتابه (الرد على الملحدين في متشابه القرآن)، وبالرغم من أن القائل لذلك هو الإمام السيوطي -رحمه الله- إلا أن هذا الكلام غير صحيح، فإن الإمام سفيان بن عيينة له في ذلك الفن كتاب، وهو (جوابات القرآن) وقد توفي الإمام سفيان بن عيينة قبل قطرب، بل إن هناك من هو قبل الإمام سفيان أيضًا، وهو الإمام مقاتل بن سليمان له كتاب (الجوابات في القرآن)، وهذه الكُتب الثلاثة مفقودة، ولعلَّ أقدم الكتب التي وصلت إلينا في هذا العلم مفردًا هو كتاب ابن قتيبة (مشكل القرآن).

أما الجواب عن بعض الإشكالات القرآنية في ثنايا الكتاب من غير إفراد لهذا الموضوع بمصنف مستقلّ، فكثير كثير، فقد ردَّ الإمام مالك في موطئه على أهل القدَر، الذين احتجُّوا ببعض الآيات على مذهبهم، وقد خصَّص الإمام أحمد القسم الأول من كتابه الرَّد على الزنادقة والجهمية، خصصه في الرد على من زعم أن القرآن متناقض، وأسماه باب بيان ما ضلَّت فيه الزنادقة من متشابه القرآن، وذكر فيه اثنتين وعشرين مسألة.

وكذلك أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي صنف كتابه: (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) أفرد في ذلك الكتاب بابًا لمتشابه القرآن، وما يُتوهَّم أنه من الاختلاف والتناقض، ونقل فيه ما أخذه هو من الثقات عن مقاتل بن سليمان.

- اتجاهات العلماء في التأليف في مجال الرَّدِّ على الطاعنين في القرآن:

للعلماء في الكتابة في هذا الفن عدَّة اتجاهات؛ لأن منهم من يقف عند المادة التي يدرسها، والإشكالات التي ترد عليها، ومنهم من يُفرد لهذه الطعون كتابًا، أو أجزاء من كتاب، ثم يردُّ عليها، وثمَّة من يركز على شبهات كتاب بعينه، أو شبهات شخص بعينه، ومن هؤلاء من يهتمُّ بالطعون من حيث هي دون التفات لقائلها، وبيان ذلك، وتعديد تلك الاتجاهات إنما يكون على النحو التالي:

فمن حيث المادة التي تُدرس فله في ذلك اتجاهان:

الاتجاه الأول: الجواب على الطعون والإشكالات اللغوية والنحوية مثل: كتاب (مشكل إعراب القرآن) للقيسي، و(إعراب مشكل القرآن) لثعلب، وهذا الاتجاه يُجيب عن كل إشكال لغوي ونحوي، وهو في حقيقته دفاع عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، ولعلَّ أول الطعون اللغوية ما اشتهر باسم (مسائل ابن الأزرق) مع ابن عباس } .

فعن حميد الأعرج عن أبيه قال: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قُم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة ذلك من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس { : سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧]، قال ابن عباس: العزون الحِلَق الرقاق، قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال ابن عباس: نعم، أما سمعت عُبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يُهرعون إليه حتى ❖ يكونوا حول منبره عزينا

قال نافع: أخبرني عن قوله ﷻ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فقال ابن عباس: الشرعة الدين، والمنهاج الطريق، قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى ❖ وبيَّن للإسلام دينًا ومنهاجًا

قال نافع: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]، قال ابن عباس: أي: نضجه وبلاغه، قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

إذا ما مشت وسط النساء تأوَّدت ❖ كما اهتزَّ غصن ناعم النبت يانع

وذكر مسائل كثيرة.. إلى آخر تلك المسائل، وقد جاءت تلك المسائل كلها في كتاب (الإتقان) للإمام السيوطي -رحمه الله- في أكثر من ثلاثين صفحة، وقد بلغت الأبيات التي استشهد بها ابن عباس { في شرح ألفاظ القرآن الكريم التي سُئل عنها مائة وواحدًا وتسعين بيتًا.

كذلك هناك طريقة الجواب على الطعون والإشكالات المعنوية، أو هناك الاتجاه الذي يتَّجه إلى الإجابة على الطعون المُثارة على القرآن من ناحية الإشكالات المعنوية؛ أي: الطعون التي سببها عدم فهم المعنى، أو القصور في فهم المعنى، أو سوء القصد، وهذا النوع هو الأكثر، ويُذكر في ثنايا هذه الكتب، الجواب على المطاعن والإشكالات العقدية والفقهية واللغوية أيضًا. وهذا النوع كما قلت: هو الأكثر والأشهر.

فمن ذلك الجمع بين قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥] مع ما حصل من نسخ لبعض الآيات، وكذلك الجمع بين قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] مع قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وكذلك الجمع بين قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] وقوله سبحانه وتعالى بعدها ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، إلى غير ذلك من المسائل التي سوف تَرِد معنا أثناء دراسة هذه المادة، بإذن الله وحوله وقوته.

كذلك عندما نتكلم عن إفراد هذا العلم بالتصنيف والتأليف:

فإن العلماء يتَّجهون في الكتابة في هذا الموضوع إلى اتجاهين: الاتجاه الأول إفراد الطعون بكتب والرد عليها، مثل: كتاب (مشكل القرآن) لابن قتيبة، أما الاتجاه الثاني فهو ذكر الطعن في ثنايا الكتاب والرد عليه، كما فعل بيان الحق النيسابوري في كتابه (وضح البرهان في مشكلات القرآن)، وكما فعل الرازي في كتابه (مفاتيح الغيب)، وكثير من المفسرين الذين يتعرَّضون للرَّد على هذه الطعون في ثنايا كتبهم وتفاسيرهم.

وهناك أيضًا اتجاه للعلماء في التصنيف في هذا العلم من حيث المردود عليه، ولهم في ذلك طريقتان:

الطريقة الأولى: تهتمُّ بالرَّدِّ على شُبهات وطعونات شخص معين، أو كتاب معين، مثلما فعل ابن حزم الأندلسي -رحمه الله- في ردِّه على ابن النغريلة اليهودي، ومثل الرَّدِّ على طه حسين في زعمه وجود أحرف زائدة في القرآن، وكالرَّدِّ على دائرة المعارف الإسلامية في زعمها تحريف القرآن ونقله من التوراة والإنجيل، وغير ذلك مما سيأتي في سياق هذه المادة.

أما الطريقة الثانية: فإنها تهتم بالطعون من حيث هي بغض النظر عمن قالها، فتُجمع الطعون ثم يُردُّ عليها، ومن أبرز من اتجه إلى هذا الاتجاه شرف الدين بن ريان في كتابه: (الروض الريان في أسئلة القرآن)، وكذلك كتاب: (وضح البرهان) لبيان الحق للنيسابوري وكذلك كتاب: (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب) للإمام الشنقيطي، وهذه الطريقة هي الأشهر في هذا الباب.

وإذا أردنا أن نتكلم عن الكتب المؤلفة في هذا الفن، فإننا سنجد كُتبًا كثيرة، وهذه الكتب تتفاوت ما بين مطبوع، وما بين مخطوط، وما بين مفقود، وفيما يلي أذكر بعض النماذج لكل قسم من الأقسام السالفة الذكر:

فمن الكتب المؤلفة المطبوعة: (فوائد في مشكل القرآن) لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، وكذلك: (مشكلات القرآن) لمحمد أنور الكشميري، وكذلك: (أضواء على متشابهات القرآن) لخليل ياسين، وكذلك كتاب: (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، وكتاب (متشابه القرآن) للإمام السيوطي، وكتاب: (وضح البرهان في مشكلات القرآن) لبيان الحق النيسابوري، وغير ذلك كثير.

وإذا أردنا أن نُمثل لبعض الكتب المخطوطة التي أُلفت في مجال الطعونات الواردة على القرآن والرَّدِّ عليها، فإننا نذكر أمثلة لذلك كتاب: (أسئلة القرآن وأجوبتها) لأبي بكر الرازي، وكتاب: (أوضح البرهان في مشكلات القرآن) لمؤلف مجهول،

وكتاب: (توضيح المشكل في القرآن) لسعيد الغساني ابن حداد، وكتاب: (مشكلات القرآن) لأبي داود سليمان بن أشعث السجستاني صاحب (السنن)، وغير ذلك كثير.

وكذلك إذا أردنا أن نُمثِّل للكتب المفقودة المؤلفة في هذا الفن، فنذكر من ذلك مثلًا: (جوابات القرآن) لسفيان بن عيينة، ذكره ابن النديم في (الفهرست)، وكذلك كتاب: (الرد على الملحدين في متشابه القرآن) لقطرب، ذكره أيضًا ابن النديم في (الفهرست)، كذلك: (مشكل القرآن) للحكيم الترمذي، ذكره الإمام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، كذلك نذكر كتاب: (مشكل القرآن) لابن الأنباري، ذكره الإمام الذهبي في (سير أعلام النبلاء)، كذلك: (مشكل القرآن) لأبي محمد القتيبي، ذكره القزويني في كتاب: (التدوين في أخبار قزوين)، كذلك كتاب: (ضياء القلوب من معاني القرآن وغريبه ومشكله) لمفضل بن سلمة، ذكره ابن النديم في (الفهرست).

كذلك كتاب (كشف المشكلات وإيضاح المعضلات) لأبي الفتح الموصلي الشافعي، ذكره البغدادي في (إيضاح المكنون)، كذلك: (كشف غوامض المنقول في مشكل الآيات والآثار وأخبار الرسول) لمحمد العمري الشافعي، ذكره إسماعيل باشا في (إيضاح المكنون)، كذلك كتاب: (جوابات القرآن) للإمام أحمد بن حنبل، وكتاب: (متشابه القرآن) لبشر بن المعتمر، وكتاب: (متشابه القرآن) لجعفر الهمذاني، وكتاب: (المشكل) لداود الظاهري، وكتاب: (متشابه القرآن) لأبي البقاء العكبري، هذه الكتب ذكرها الداودي في (طبقات المفسرين).

وكذلك كتاب: (متشابه القرآن) لحمزة الزيات، و(متشابه القرآن) لنافع، و(متشابه القرآن) لخلف، و(متشابه القرآن) لمحمود الوراق، و(متشابه

القرآن) لأبي هذيل العلاف، هذه الكتب ذكرها ابن النديم في (الفهرست). وكذلك كتاب: (نفي التحريف عن القرآن الشريف) للإمام الواحدي، وكتاب: (المسائل في القرآن) للجاحظ، وكتاب: (متشابه القرآن) لأبي علي الجبائي شيخ المعتزلة.

ويُلاحظ مما سبق أن أكثر الكتب هي المفقودة، وذلك يتطلَّب من العلماء وطلبة العلم البحث عن تلك الكتب، وإخراج هذه الكنوز للأمة والإفادة منها في تفنيد شبهات الطاعنين، والمشككين، ولا ننسَ أيضًا تلك المخطوطات الصادرة عن مؤسسة آل البيت، وما يتصل منها بالتفسير وعلوم القرآن، وقد أشرنا إلى طرف منها في الكلام الذي نقلناه قبل ذلك.

أسباب الطعن في القرآن، وأنواعه، وموقف السلف منه

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أسباب الطعن في القرآن الكريم	٨٥
العنصر الثاني :	أنواع المطاعن	٨٦
العنصر الثالث :	تنزيه كلام الله تعالى عن المطاعن	٨٩
العنصر الرابع :	موقف سلف الأمة ممن يُثيرون الشُّبَه والمطاعن حول القرآن	٩٣

أسباب الطعن في القرآن الكريم

نستكمل الكلام عن الطعن في القرآن، فنذكر أسباب الطعن في القرآن، ونُتبع ذلك بالكلام على قواعد مهمة في التعامل مع الطعونات التي يُثيرها الحاقدون على القرآن.

للطعن في القرآن أسباب كثيرة من هذه الأسباب:

أولًا: حرب المسلمين: فالكفار قد رَأَوا أن أهل الإسلام لا يُمكن قهرهم بالسنان والحروب العسكرية، وذلك لأن المسلمين قوم يُحبون الموت كحبِّ الكفار للحياة، وإنما كان هذا الحب للشهادة في نفوس المسلمين؛ لما علموه من كتاب الله ﷻ من الثناء على الشهادة في سبيله، والحث على القتل في سبيله ﷻ؛ لذلك توجه الكفار بالحرب إلى القرآن، ثم ينزعوا عنه القداسة والقدسية، وحتى يُثبتوا أن هذا القرآن ليس من عند الله، بل هو من عند النبي ﷺ، وعند ذلك يتمّ إبعاد المسلمين عن مصدر توحيدهم، وعن سرِّ قوتهم.

ثانيًا: فتح باب النزاع والشقاق بين المسلمين على مصراعيه، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

ثالثًا: زرعُ الفتن بين المسلمين، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧].

رابعًا: هدم الإسلام، فقد رُوي عن الشعبي قال: قال لي عمر هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: يهدمه زلّة العالم، وجدال المنافق بالكتاب،

وحكم الأئمة المضلين، وبذلك يتحقق للكفار ما يريدون، ويصبح المسلمون صيدًا سهلًا، بل قد يُصبح المسلمون أو بعض المسلمين في صفِّ الكفار وأتباع ملتهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وللأسف فقد تحقق للكفار الكثير من ذلك، فقد عُزل الكتاب -أي: القرآن- عن التحكيم بين الناس، واستُبدل بقانون الغرب، وصدق النبي ﷺ عندما قال، كما أخبر معاذ بن جبل > قال: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((خذوا العطاء ما دام العطاء لله، فإذا صار رِشوة على الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه، يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن روح الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان، فلا تُفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أُمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم)) قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: ((كما صنع أصحاب عيسى بن مريم، نُشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله)).

أنـــــواع المطـــــــاعن

بعد الكلام على أبرز الأسباب التي جعلت المشركين والكفار والمعاندين يطعنون في كتاب الله ﷻ، ننتقل مباشرة إلى الكلام على أنواع المطاعن:

وهنا نذكر أن الطاعنين في القرآن كُثُر، ومطاعنهم وشبهاتهم كثيرة، وحصرها قد يُعْيي الباحث، ولكن حقيقة هذه الطعون أنها تدور في أفلاك محددة، وتنبع من مشكاة واحدة، ويمكننا أن نُرجعها إلى أصول وقواعد تُلملم شَعْث هذه الطعون.

والرد على هذه الأصول يتكفل بالرَّدِّ على جميع ما تحته من طعونات لا تُعدّ ولا تحصر، ويمكننا أن نردَّ المطاعن إلى أربعة أصول يتفرع من بعدها فروع، وهي:

الأصل الأول: نفي نسبة القرآن إلى الله ﷻ وذلك يشمل نسبة القرآن إلى النبي ﷺ وأنه من تأليف النبي، أو نسبة القرآن إلى الاقتباس من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، أو دعوى عدم قدسية القرآن، وإمكانية نقده ومخالفته، بمعنى: أنه قد يُقرّ لأنه ليس من النبي ﷺ وأنه من الله ﷻ ولكن يقول القائل مع أنه من الله إلا أنه ليس بمقدس، ويُمكن نقده، وهذا الكلام حقيقته نفي كون القرآن من عند الله ﷻ؛ لأن ما كان من الله ﷻ فهو مُقدَّس، والمقدس لا يمكن نقده، كل ذلك يرجع إلى الأصل الأول الذي تكلمنا عنه ألا وهو نفي نسبة القرآن إلى الله ﷻ.

الأصل الثاني: زعم عدم حفظ القرآن، بمعنى: أن المدعي قد يُقرُّ بأن القرآن من الله ﷻ، ولكن يزعم بعد ذلك أنه غير محفوظ، فيدعي أنه -أي: الموجود بين أيدينا الآن- ليس هو القرآن الذي أنزل على النبي ﷺ، فيزعم أن القرآن قد غُيِّر وبُدِّل، وأن الأصل لا وجود له. أو قد يزعم المُدَّعي فيقول: إن القرآن قد زيد فيه وقد نقص منه.

الأصل الثالث: اتهام القرآن بالتناقض؛ أي: تناقض بعض الآيات مع بعض في ذهن ذلك المدِّعي.

الأصل الرابع: اتهام القرآن بمعارضة الحقائق، ومن ذلك معارضة الحقائق الشرعية كما يدَّعِي المدعون، أو معارضة الحقائق التاريخية كما يزعمون، أو معارضة الحقائق الكونية أو حقائق العلم التجريبي الحديث.

والملاحظ في هذه الطعون هو التدرج فيها، فكلما انتفت شُبهة انتقلوا إلى التي تليها، ولو علم المسلمون هذه الأصول الأربعة، وعلموا الرَّدَّ عليها لما حصل ما نراه الآن من تأثر كثير من المسلمين بهذه الشُّبُهات.

والمطاعن من حيث صراحتها تنقسم إلى نوعين: طعون واضحة وصريحة، وهذا هو الغالب في طعون المستشرقين، وطعون غامضة ومُلتَوِية وغير مباشرة، وهذا هو الغالب في طعون العلمانيين.

بعد الكلام على أنواع المطاعن وعلى أصول المطاعن، ننتقل إلى الكلام على أسباب الاختلاف في القرآن:

لقد تكلَّم بعض العلماء على أسباب الطعون، أو أسباب الاختلاف في القرآن، ولعلَّ أضبط التقاسيم بالنسبة لأسباب الطعون هو ذلك التقسيم الذي ذكره الإمام الراغب الأصبهاني؛ حيث قال: "والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا يُنبئ ظاهره عن مراده، وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه متشابه من وجه".

فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان:

أحدهما: يرجع إلى الألفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته نحو: "الأَبِّ" و﴿يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤]، وإما من جهة مشاركة اللفظ كاليد والعين.

والثاني: يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام، وضرب لبسط الكلام، وضرب لنظم الكلام.

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى، وأوصاف يوم القيامة، فإن تلك الصفات لا تُتصوَّر لنا؛ إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسُّه، أو لم يكن من جنس ما نحسه، والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعًا خمسة أضرب:

الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص.

والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب.

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ.

والرابع: من جهة المكان.

والخامس: من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد.

وهذه الجملة إذا تصوَّرت عُلم أن كل ما ذكره المفسرون من تفسير متشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم، ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل للوقوف عليه ومعرفة ماهيته، كوقت الساعة، وخروج دابة الأرض، وكيفية الدابة، ونحو ذلك. وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة. وضرب متردِّد بين الأمرين يجوز أن يختصَّ بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه بقوله ﷺ لابن عباس }: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))، وإذا عُرفت هذه الجملة عُرف أن الوقف على قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، ووصله بقوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] جائز، وأن لكل واحد منهما وجهًا حسبما دلَّ عليه التفصيل المتقدم.

تنزيه كلام الله تعالى عن المطاعن

بعد سرد هذا الكلام الذي ذكره الإمام الراغب في كتابه (المفردات) ننتقل إلى الكلام على كيفية مواجهة دعاوى الطعن في القرآن:

وعند الكلام على مواجهة هذه الدعاوى، ومواجهة الطعون الموجهة للقرآن لا بدَّ وأن نتكلم أولًا: عن تنزيه كلام الله عن المطاعن، ثم ننتقل ثانيًا: للكلام عن

موقف سلف الأمة ممن يُثيرون الشُّبَه والمطاعن حول القرآن، ثم ننتقل أخيرًا: إلى الكلام على قواعد التعامل مع تلك المطاعن.

أولًا: تنزيه كلام الله تعالى عن المطاعن:

تحت هذا العنصر نُبين بإذن الله عقيدة من عقائد المسلمين الثابتة، ولكن قلَّ من يعرف أدلتها من كتاب الله ﷻ؛ لذلك سوف نُبيِّن كثيرًا من الآيات التي تدل على تنزيه كلام الله تعالى عن المطاعن، ونبين شرحها شرحًا موجزًا قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، فالتدبر للقرآن ومعرفة أنه ليس فيه أدنى اختلاف يُورث الإنسان العلم أنه من عند الله؛ إذ لو كان من عند البشر لكان فيه اختلاف كثير، قال الإمام البغوي -رحمه الله-: "أي: أفلا يُفكرون فيه فيعرفون أنه من عند الله تعالى؛ لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو من التناقض والاختلاف".

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢] أي: لا شك فيه، وكلمة "ريب" نكرة في سياق النفي فتعم، وبهذا نعلم أن الله ﷻ قد نفى جميع أنواع الريب والشك كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها عن القرآن، قال الإمام القرطبي -رحمه الله: "﴿لَا رَيْبَ﴾ نفي عام، والريب هو الشك والتهمة"، فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب. وهذا أمر عجيب فالعادة في كُتب بني البشر أن يستفتح أحدهم كتابه بالاعتذار وإظهار العجز، وأن كتابه فيه أخطاء والمرجو تقبُّل الحق الذي في الكتاب، والتماس العذر لأخطائه. وبعضهم يُطالب القارئ بإصلاح ما يجد، وبعضهم يقول: إن تجد عيبًا فسُدَّ الخلل، جلَّ ما لا عيب فيه وعلا.

ولكن الله تعالى استفتح كتابه بهذه الكلمة معلنًا فيها التحدِّي لكل من يقرأ أن يجد فيه خطأ أو ريبًا، أو شكًّا، وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف: ١] فليس فيه أدنى اعوجاج، وما كان كذلك فلا يُمكن أن يتطرَّق الطعن إليه، قال الإمام القاسمي -رحمه الله: ﴿ عِوَجَا ﴾ أي: شيئًا من العوج باختلاف في نظمه، وتنافٍ في معانيه، أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق؛ بل جعله تعالى مزيلًا للعوج؛ إذ جعله قيمًا.

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٣] فهذا القرآن هو أحسن الحديث وأجمله، فلا كتاب أحسن منه، وإذا كان القرآن أحسن الحديث، فإنه لا يمكن لما هو أحسن الحديث أن يكون فيه تناقض، أو إشكال، أو مجال للطعن.

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، قال الإمام ابن كثير -رحمه الله: "أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه مُنزَّل من رب العالمين"، وهذا هو نصٌّ صريح على استحالة وجود الباطل في كتاب الله، بل على استحالة افترائه عليه، فإن الله تعالى يُوكِّل من عباده من ينفي عن القرآن انتحال المبطلين، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وذلك مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فما هو بقول شيطان رجيم بل هو كتاب عظيم الفصل، إِنَّهُ لَقَوْلٌ الفصل وما هو بالهزل، فهذا الكتاب ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، والدليل أنهم ليسو لا يستطيعون التحدِّي بمثل قوله ﷻ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن الأدلة على أن هذا الكتاب من عند الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فما كان لرجل أمِّي لا يقرأ ولا يكتب أن يأتي بمثل هذا الكلام، ويتحدَّى به الثَّقلين، ولم يقدر أحدٌ على معارضته وإجابة هذا التحدِّي، وقد شهد على صحة هذا القرآن أهل الكتاب قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

ثم إنه ما كان لبشر أن يفتري كلامًا وينسبه إلى الله، ويضل به الملايين من الناس، ثم بعد ذلك لا يُعاجله الله تعالى بالعقوبة قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، ونحن نقول على سبيل التنزُّه لمن أنكر أن القرآن كلام الله، نقول له: افرض أن هذا الكتاب من عند الله حقًّا، وأنك مخطئ، فماذا أنت صانع؟ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

وقد توعَّد الله تعالى المكذبين بهذا الكتاب بالنكال والعذاب قال تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ

عَن ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٥]، وأخيرًا نقول لمن كفر بالقرآن: ﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

موقف سلف الأمة ممن يُثيرون الشُّبَه والمطاعن حول القرآن

بعدَ الكلام على عقيدة المسلمين في القرآن الكريم ننتقل بعد ذلك إلى الكلام على موقف سلف الأمة ممن يُثيرون الشُّبه والمطاعن حول القرآن، وهذا المبحث في غاية الأهمية؛ لأننا قوم نتَّبع ولا نبتدع، وقد أُمرنا بالاقتداء بالسلف الصالح الذين هم خير القرون عند الله.

وقضية الحرب على القرآن ليست وليدة اليوم، بل هي حرب قديمة مستمرة، وستستمر، وتجارب السلف يجب أن نستفيد منها حتى نبدأ من حيث انتهوا، فنستفيد علمًا ووقتًا، نقول: ينقسم موقف السلف مع من يُثيرون الشُّبَه حول القرآن إلى قسمين بحسب حال الشخص:

أولًا: إن كان الشخص طالب حق ويسأل سؤال استرشاد، ولكنه قد أُشكل عليه.

ثانيًا: إن كان السائل يسأل تعنتًا، هذه هي الأقسام التي تعامل معها السلف { ، وفيما يلي نُبيِّن موقف السلف مع كل قسم من هذين القسمين.

أما الصنف الأول: الذي يسأل طالبًا للحق، وسائلًا سؤال استرشاد، فإن له معهم عدَّة مواقف: من هذه المواقف تعليمه التسليم والانقياد للنص، كما ورد

عن معاذة قالت: "سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟ فقالت عائشة < : أحرورية أنت؟ -أي: هل أنت من الخوارج- قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل، قالت عائشة < : كان يُصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة".

وفي (الصحيحين) أن أبا قتادة حدَّث فقال: كنا عند عمران بن حصين في رهط منا، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذٍ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الحياء خير كله)) أو قال: ((الحياء كله خير)) فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينة ووقارًا لله، ومنه ضعف أي: الحياء، قال: فغضب عمران حتى احمرَّت عيناه، وقال: ألا أراني أُحدِّثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه، قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير -أي: نفس الكلام- فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه إنه منا يا أبا نُجيد، إنه لا بأس به.

كذلك من ضمن المواقف التي كان السلف { يتخذونها تجاه من يُثيرون الشبه والمطاعن حول القرآن تعليمه بالتي هي أحسن؛ أخذًا من قوله ﷻ: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ١٠]، وقوله ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وبالطبع فإن المسلم أولى بالإحسان من الكتابي، وذكر الداودي في ترجمة الشنبوذي عن الداني أنه قال: دخل الشنبوذي على عضد الدولة زائرًا فقال له: يا أبا الفرج إن الله تعالى يقول: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩]، ونرى العسل يأكله المحرور فيتأذّى به، والله ﷻ هو الصادق

في قوله، فقال: أصلح الله الملك، إن الله لم يقل فيه الشفاء للناس بالألف واللام، اللذين يدخلان لاستيفاء الجنس، وإنما ذكره منكرًا، فمعناه أن فيه شفاء لبعض الناس دون بعض"، قال الداني: "والصواب أن الألف واللام في قوله ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لا يستغرقان الجنس كله، كما لا يستغرقان في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وكما لا يستغرقان أيضًا الجنس كله في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩].

كذلك من المواقف التي كان السلف } يتخذونها تجاه من يُثيرون الشُّبَهَ والمطاعن حول القرآن الشدَّة أحيانًا، نعم، كانوا يتخذون موقف الشدة أحيانًا على من لا يُخاف عليه من النفور بسبب هذه الشدة، وكان عنده من العلم ما لا ينبغي معه أن يسأل هذا السؤال. ومثال ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن نفرًا كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، وفي رواية أنهم تكلموا في القدر، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج كأنما فُقِئ في وجهه حبُّ الرمان، فقال: ((بهذا أمرتم، أو بهذا بعثتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما ضلَّت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء انظروا الذي أُمرتم به فاعملوا به، والذي نُهيتم عنه فانتهوا)).

كانت هذه مواقف السلف تجاه من يُثيرون الشُّبه والمطاعن حول القرآن، وذلك إذا كان السائل يسأل طلبًا للحق.

أما الصنف الثاني: وهو من يسأل تعنتًا، فإن السلف } كان لهم معه طُرق كثيرة، من هذه الطرق:

أولًا: تعليمه السؤال الصحيح؛ فعن عامر بن وائلة أن ابن الكواء سأل عليًّا < فقال: "يا أمير المؤمنين ما ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]؟ فقال أمير المؤمنين: ويلك سلْ تفقهًا ولا تسأل تعنتًا".

كذلك من هذه المواقف تأديب السائل، وذلك إن كان للسلف عليه قدرة وسلطة، كما فعل عمر > مع صبيغ؛ فعن السائب بن يزيد أن رجلًا قال لعمر > : إني مررت برجل يسأل عن تفسير مُشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه، فدخل الرجل على عمر يومًا وهو لابس ثيابًا وعمامة، وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال يا أمير المؤمنين: ما ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾؟ فقام عمر، فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه، واحملوه على قتب، وابلغوا به حيه، ثم ليقم خطيبًا فليقل: إن صبيغًا طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعًا في قومه بعد أن كان سيدًا فيهم.

كذلك من هذه المواقف التي يتخذها السلف تجاه من يسأل تعنتًا الهجر، والتحذير، وعدم المناظرة، وهذا إنما يكون لثلاثة أسباب: للتأديب كما فعل عمر مع صبيغ، وكذلك لأن صاحب الشبهة إن كان مغموسًا في باطله ويطلب نُصرته، أو يريد التشكيك في الحق فإنه لا ينفع معه الجدال قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وعن عائشة > قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم)).

كذلك إذا اتخذ السلف موقف الهجر والتحذير وعدم المناظرة قلنا: إن هذا يكون لثلاثة أسباب: أولًا: التأديب، ثانيًا: لأن صاحب الشبهة في هذه الحالة لا ينفع معه الجدال، كذلك السبب الثالث الذي يُتخذ عند الهجر: لأن الرَّادّ على الشُّبه

قد لا يأمن على نفسه من التأثر، قال أبو قلابة: "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون"، وعن أيوب قال: "رآني سعيد بن جبير جلست إلى طلق بن حبيب فقال لي: ألم أرك جلست إلى طلق بن حبيب لا تجالسنه"، وعن نافع عن ابن عمر أنه جاءه رجل فقال: "إن فلانًا يقرأ عليك السلام، فقال: بلغني أنه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ # ".

وعن سلام بن أبي مطيع أن رجلًا من أصحاب الأهواء قال لأيوب: "يا أبا بكر أسألك عن كلمة، قال: فولَّى وهو يشير بأُصبعه، ولا نصف كلمة، وأشار لنا سعيد بخنصره اليمنى".

كذلك من هذه المواقف التي تُتخذ تجاه من يُثيرون الشبه تعنتًا المناظرة والتصدِّي، وذلك عند انتشار البدعة وعند رواجها، كذلك إذا كان صاحب هذه البدعة ذا سلطان، وذا قوة؛ فيجب مناظرته والتصدي له، كما حصل مع الإمام أحمد -رحمه الله، وابن أبي دؤاد في فتنة خلق القرآن، وهذه سنة إبراهيمية شرعية سنَّها لنا الخليل إبراهيم # عندما حاجَّ الملك، كما حكى الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كذلك من المواقف التي لا بد وأن تُتخذ تجاه من يُثير الشبهات، والطعون حول القرآن بقصد التعنت تأليف الكتب التي تنقض بدعته وشبهته، وتبيِّن زيف كلامه، كذلك إقامة حدِّ الله على ذلك الشخص الذي يسأل تعنتًا إن كان تحت ولاية المسلمين.

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن، وأبرز قواعد الرد على المطاعن، وكيف جمع القرآن

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الحكمة من وجود المتشابه في القرآن	١٠١
العنصر الثاني :	أبرز قواعد الرد على المطاعن	١٠٦
العنصر الثالث :	مقدمة تتعلق بجمع القرآن	١٠٨
العنصر الرابع :	معاني جمع القرآن عند علماء المسلمين	١١٢
العنصر الخامس :	سمات تدوين القرآن في عهد النبي ﷺ	١١٤

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن

بعد بيان مواقف السلف تجاه من يُثيرون الشُّبهات والطعون حول كتاب الله ﷻ، نجد أنفسنا نقف مع سؤال قد يطرأ في أذهان البعض، قد يسأل البعض ما هي الحكمة من وجود المتشابه في القرآن، وإذا كان القرآن قد أُنزل بيانًا للناس، وحاكمًا للناس، وشرعًا للناس، ومعلمًا للناس، وهداية للناس، ورحمة للناس، فهل يُقبل من الكتاب الذي هذا حاله أن يشتمل على المتشابه؟

وللإجابة على هذا السؤال نقف مع العنوان التالي الذي نتكلَّم فيه عن الحكمة من وجود المتشابه في القرآن.

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن قد بيَّنها العلماء -رحمهم الله- في مصنفاتهم، والباعث على الكلام على هذه الجزئية هو الجواب على من يقول: إن القرآن إنما أُنزل للهدى والبيان، فكيف اشتمل على المتشابه؟ وقد تكلم العلماء في الجواب على هذه الشُّبهة، وخاضوا في حكمة إنزال المتشابه، وذكروا أمورًا بعضها قوي وبعضها لا يخلو من مقال، وبعضها يتعجَّب الناظر فيه كيف أمكن أن يُقال، وبعضها لا يستحق الذكر.

أما أمثل هذه الأقوال وأقواها فيما قاله العلماء فهو أن الحكمة من إنزال المتشابه تتجلى في أمور.

الأمر الأول: أن الله ﷻ أنزله مختبرًا به عباده، فأما المؤمن فلا يُداخله فيه شكٌّ، ولا يعتريه ريب، وهو بين أمرين؛ إما قادر على ردِّه إلى المُحكَم، وإما قائل آمنَّا به كل من عند ربنا، وذلك إن لم يتبين له معناه، فأمره كله خير، وتعظم بذلك مثوبته، وتزيد عند الله درجته. وأما المنافق فيرتاب ولا يزيده القرآن إلا خسارًا،

وأما من كان في قلبه زيغٌ كأهل البدع، فيتبعون المتشابه؛ ليفتنوا الناس عن القرآن وصحيح السنة، ويُنزلوه على مقتضى بدعتهم.

وسياق الآية وما بعدها دالّ على أن هذا من حكمة إنزال المتشابه قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٧، ٨]

فالمؤمنون رغبوا إلى الله ﷻ وطلبوا منه ألا يزيغ قلوبهم كما زاغت قلوب أهل الزيغ؛ إذ إن المتشابه فتنة للعقول والقلوب، وسألوا الله ﷻ أن يُنزِّل عليهم رحمة يربط بها على قلوبهم وعقولهم، فلا تزيغ، وفي هذا إشارة إلى أن أهل الزيغ والبدعة محرومون من بركة هذا الدعاء، كلٌّ بحسب بدعته وبُعده عن السنة.

وقد ذكر الله في القرآن أنه يُنزِّل ما يمتحن به عباده ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويضلَّ غيرهم من أهل الضلال قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

قال العلامة السعدي -رحمه الله- في تفسيره: يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ يقول: لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، فالله ﷻ لا يستحيي من الحق.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فيفهمونها ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم

وإيمانهم، وإلا علموا أنها الحق وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها، وذلك لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون، ويتحيرون، فيزدادون كفرًا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانًا إلى إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فلا أعظم من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون هذه الآيات لقوم محنة، وحيرة، وضلالة، وزيادة شرٍّ إلى شرهم؛ وتكون لقوم منحة، ورحمة، وزيادة خير إلى خيرهم.

ومن هذا القبيل قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله: "والمقصود أن قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم﴾ [الحج: ٥٣] اللام هي لام التعليل على بابها في قوله ﴿لِّيَجْعَلَ﴾، وهذا الاختبار والامتحان مظهر لما في القلوب الثلاثة،

فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر، والقلوب المخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى، وزيادة محبته، وزيادة بغض الكفر، والشرك، والنفرة عنه، وهذا من أعظم حكم هذا الإلقاء".

ومن هذا القبيل أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله- بعدما ذكر تفسير ابن عباس { أن الرؤيا هي ليلة الإسراء، والشجرة هي شجرة الزقوم، وهكذا فسَّر ذلك بليلة الإسراء مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد، وتقدم أن ناسًا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحتمل عقولهم وقلوبهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتًا ويقينًا لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ [المدثر: ٣١] أي: اختبارًا وامتحانًا.

أما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل -لعنه الله: "هاتوا تمرًا وزُبدًا، فجعل يأكل هذا بهذا، ويقول: تزقَّموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا". فهذا كله يدل على أن الله يختبر عباده بما شاء، وإنزاله المتشابه من هذا، فإنه فتنة، وقد ضلَّ به كثير ممن ضلَّ عن الحق، كما رفع الله به أهل الإيمان بيقينهم ورسوخهم درجات من عنده.

الحكمة الثانية من حكم إنزال المتشابه في القرآن: أن في إنزال المتشابه إظهارًا لفضل العلماء وتفاضلهم فيما بينهم، وفيه أيضًا تعريضهم لمزيد من المشقَّة والصعوبة في معرفة الحق منها، فيعظم أجرهم، ويرتفع عند الله شأنهم، وأيضًا،

فإنه يدعوهم لتحصيل علوم كثيرة نِيط بها استنباط ما أريد بالمتشابه من الأحكام الحقَّة، فتتَّسع بذلك علومهم، وأيضًا فإنه يُدرِّب العلماء على استنباط المعاني الدقيقة فتقوى بذلك بصائرهم، ولو أُنزل القرآن كُلُّه محكمًا؛ لاستوى في معرفته العالم والجاهل، ولم يكن في استنباط ما فيه مشقة توجب عظيم المثوبة.

قال الإمام فخر الدين الرازي: "من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال: إنكم تقولون إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسَّك به صاحب كل مذهب على مذهبه، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجع، أن يجعله هكذا، والجواب كما قال الفخر الرازي: إن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيه فوائد منها: أنه يوجب المشقَّة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب.

الحكمة الثالثة من حكم وجود المتشابه في القرآن: أنه لو كان القرآن كله محكمًا لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان بصريحه مبطلًا لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما يُنفِّر أرباب سائر المذاهب عن قبوله، وعن النظر فيه، والانتفاع به، فإذا كان القرآن مشتملًا على المحكم والمتشابه؛ طمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يُؤيِّد مذهبه، وينصر مقالته، فينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمُّل فيه صاحب كل مذهب، وإذا بالغوا في ذلك صارت المُحكمات مفسرة للمتشابهات، وبهذه الطرق يتخلَّص المبطل من باطله، ويتوصل إلى الحق.

الحكمة الرابعة: أن القرآن إذا كان مشتملًا على المتشابه افتقر إلى العلم بطريق التأويلات، وترجيح بعضها على بعض، وافتقر في تعلُّم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة، والنحو، والمعاني، والبيان، وأصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يُحتج إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان في إيراد المتشابه هذه الفوائد الكثيرة.

الحكمة الخامسة: أن المشتبهات ليست في الأمور المطلوب من المُكلَّف العمل بها، وإنما هي في بعض الأمور العقدية التي يُطالب فيها المُكلَّف بالتفويض والتسليم لله تعالى، وأن يقول فيها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

كانت هذه هي الحكم والأوجه التي ذكرها العلماء في سبب اشتمال القرآن على المتشابه.

أبرز قواعد الرد على المطاعن

وبعد بيان هذه الحكم نختم الكلام على تلك المقدمة التي تكلمنا فيها عن الطعن في القرآن، نختم الكلام ببيان قواعد يُتعامل بها على المطاعن، وأشرع في ذلك في العنوان التالي بإذن الله ﷻ، والذي نتكلم فيه عن قواعد التعامل مع المطاعن فأقول: "لنا في التعامل مع المطاعن التي تُثار حول كتاب الله قواعد عدَّة، وهي كالتالي:

أولًا: اليقين التام بأن جميع هذه المطاعن مفتراة مكذوبة لا أصل لها من الصحة، ولا أساس لها من الواقع وإنما هي محض أوهام، بل أضغاث أحلام جاءت من قلب امرئ حاقد، أو جاهل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، فما كان لنا أن نُكذِّب ربنا ونُصدِّق ملحدًا حاقدًا أو مجادلًا جاهلًا، وهذه القضية في غاية الأهمية إذ إن كل من تأثَّر من المستشرقين لم تكن عنده هذه القاعدة من المسلمات، بل ضعف يقينهم في هذا الباب، وهذا الضعف هو الذي أدَّى بهم إلى المزالق.

القاعدة الثانية: إن عدم قدرة إنسان معين على الرَّدِّ ليس معناه الهزيمة والعجز وإثبات الطعن، بل إنه لا يخلو زمان من قائم لله بالحجة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

القاعدة الثالثة: نُورد فيها قانون العمل عند وجود الطعن لسبب ما من الأسباب، هذا القانون له عدَّة خُطُوات.

الخطوة الأولى: الجمع بين مدلولات النصوص والتوفيق بينها ما أمكن، فالخاص يُقدَّم على العام، والمطلق يقيد بالمقيد.

ثانيًا: إن تعذَّر الجمع فالنسخ إن أمكن ذلك، وعُلم المتقدِّم والمتأخر.

ثالثًا: إن تعذَّر النسخ لجأنا إلى الترجيح؛ أي: إن تعذَّر القول بالنسخ لجأنا إلى الترجيح فيُقدَّم الراجح للعمل، ومسلك الترجيح بين الآيات يقوم على الآتي: يقوم على تقديم المدني على المكي، أو أن يكون الحكم على غالب أحوال أهل مكة، والآخر على غالب أهل المدينة، فيقدم الحكم بالخبر الذي فيه أحوال أهل المدينة، وكذلك هناك خطوات كثيرة ذكرها الإمام الزركشي -رحمه الله- عندما قال: "فصل في القول عند تعارض الآية، إذا تعارضت الآي، وتعذَّر فيها الترتيب والجمع؛ طُلب التاريخ، وترك المتقدم منهما بالمتأخر، ويكون ذلك نسخًا له، وإن لم يوجد التاريخ، وكان الإجماع على استعمال إحدى الآيتين؛ عُلم بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل به، قال: ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تُعرَّيان عن هذين الوصفين".

وذكروا عند التعارض مرجِّحات:

الأول: تقديم المدني على المكي، وإن كان يجوز أن تكون المكية نزلت عليه ﷺ بعد عوده إلى مكة والمدنية قبلها، فيُقدَّم الحكم بالآية المدنية على المكية في التخصيص والتقديم؛ إذ كان غالب الآيات المكية نزولها قبل الهجرة.

ثانيًا: أن يكون أحد الحكمين على غالب أحوال أهل مكة، والآخر على غالب أحوال أهل المدينة، فيُقدَّم الحكم بالخبر الذي فيه أحوال أهل المدينة كقوله تعالى:

مع قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، فإذا أمكن بناء كل واحدة من الآيتين على البدل؛ جُعل التخصيص في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] كأنه قال: إلا من وجب عليه القصاص إلى آخر ما قال الإمام الزركشي -رحمه الله.

﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

وقد ذكر الإمام الشوكاني -رحمه الله- في كتابه (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) في باب أنواع الترجيح، ذكر -رحمه الله- طرقًا كثيرة للترجيح، فباعتبار المتن ذكر ثمانية وعشرين نوعًا، وباعتبار المدلول ذكر تسعة أنواع، والترجيح باعتبار أمور خارجة ذكر عشرة أنواع؛ فالمجموع سبعة وأربعون نوعًا للترجيح ذكرها الإمام الشوكاني -رحمه الله.

مقدمة تتعلق بجمع القرآن

أنتقل بعد ذلك للكلام على أبرز الطعون والشبهات والدعاوى المثارة ضدَّ القرآن، نقف معها وقفة علمية متأنية مفصلة، نسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإيَّاكم شرف الدفاع عن كتابه إنه ﷻ سميع مجيب، نبدأ بالكلام على الشبهات، أو الدعاوى، أو الطعون الموجه إلى جمع القرآن.

فهناك الكثير من الدعاوى والمطاعن والشبهات التي وُجِّهت إلى جمع القرآن؛ سواء في عهد النبي ﷺ، أو في جمع الصديق ﵁ أو في جمع سيدنا عثمان ﵁ وهذه الشبهات منها ما يتَّجه إلى طريقة الجمع، ومنها ما يتجه إلى اللجنة المؤلفة للجمع. وتفرع عن ذلك الكثير والكثير من المطاعن والشُّبهات التي سوف نقف مع رءوسها بإذن الله ﷻ وقفة متأنية مفصلة.

أبدأ بذكر مقدمة تتعلق بجمع القرآن قبل أن ندخل إلى الكلام على الدعاوى والطعون والرد عليها.

أقول في البداية: أجمع المسلمون على أن هذا الذي كُتب في المصاحف وحفظه الألوف عن الألوف هو القرآن، الذي أنزله رب العالمين على نبيه محمد ﷺ، لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فمن ادَّعى زيادة عليه أو نقصان؛ فقد أبطل الإجماع، وبهت جمهور الناس، وردَّ ما صح عن الرسول ﷺ وغير معقول أن نُبطل ما أجمع عليه المسلمون بروايات جُلُّها باطل موضوع، وما صحَّ منها فله محامل صحيحة، وليس كما يزعم الزاعمون، أو يطعن الطاعنون.

إن من يزعم أن القرآن نقص منه شيء، أو زيد فيه شيء كمن زعم أن الصلوات المفروضة كانت عشرًا فأنقصها المسلمون إلى خمس، أو أنها كانت ثلاثًا فصيروها خمسًا، سواء بسواء، فإذا صح في العقول شيء من هذا؛ صح ما يقولونه في القرآن، والله سبحانه وتعالى الذي وعد بحفظ كتابه قد هيَّأ له من الأسباب الداعية إلى حفظه وصيانته من التحريف والتبديل ما لم يتهيَّأ لكتاب غيره في الدنيا، وعلى كثرة ما صوَّبه أعداء الإسلام إلى القرآن من سهام غير صائبة، وتلفيقات مزورة؛ فقد بقي القرآن كالطود الشامخ الذي لا تُزحزحه عن مكانه الرياح والأعاصير، مهما اشتدَّت، وقد تكسرَّت على صخرته العاتية، كل ما راشوا من سهام، وبيتوا من كيد، وسيبقى هكذا صلدا قويًّا؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

لقد حظي كتاب الله تعالى بالحفظ والعناية منذ أن كان في السماء، وحظي بالحفظ والعناية في طريقه إلى الأرض، وحظي بالحفظ والعناية في الأرض، نعم، حظي بالحفظ والعناية منذ أن كان في السماء؛ حيث أودعه الله كتابًا مكنونًا، وأقسم سبحانه وتعالى

على هذه الحقيقة بقسم عظيم فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠]، فهو في اللوح المحفوظ مصونٌ مستور عن الأعين، لا يطَّلع عليه إلا الملائكة المقربون، ولا يمسُّه في السماء إلا الملائكة الأطهار، ولا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، وإنما يُحَفُّ بالملائكة.

وقد حفظ الله ﷻ القرآن الكريم وهو في طريقه إلى الأرض، فجاء به روح مُطهَّر، فما للأرواح الخبيثة عليه من سبيل، ولا وصول لها إليه قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وحفظه الله ﷻ من الشياطين التي كانت تسترق السمع؛ طلبًا لخبر السماء، فحفظه بالحرس الأقوياء من الملائكة، وبالكواكب التي تحرق وتمنع من أراد استراق السمع قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ٧-١٠].

وقد حفظ الله القرآن بعد نزوله إلى الأرض، فقد لقي القرآن من المسلمين على مرِّ العصور أبلغ العناية، وحظي بأقصى درجات الحرص والحيطة؛ فكان أهل كل عصر يجتهدون في المحافظة عليه بشتَّى الوسائل التي تُتاح له، فلم يخلُ عصر من العصور، ولم يخلُ مصر من الأمصار من حامل للقرآن يقوم به آناء الليل وأطراف النهار كما لم يخل من مصحف شريف دارت فيه آيات القرآن، وحُفظت من التحريف.

وفي زمن النبي ﷺ: اجتهد النبي ﷺ في حفظ القرآن الكريم، حتى إنه كان يَعْجَل بحفظ القرآن حال نزوله عليه، إلى أن طمأنه الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

كما حفظ القرآن خلائق لا يحصون من أصحاب النبي ﷺ، وفي ذلك العصر دُوِّن القرآن الكريم بين يدي النبي ﷺ، فكان ذلك التدوين درعًا آخر لكتاب الله، وحافظًا له من الضياع والتحريف، ثم انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وخرج حُفَّاظ القرآن إلى المواطن يُجاهدون في سبيل الله، فاستحرَّ فيهم القتل، ففزع أصحاب رسول الله ﷺ، وأشار الفاروق عمر على أبي بكر } بأن يجمع القرآن؛ خوفًا عليه من الضياع فكان ما أراد، وحفظ الله كتابه، فصدَّق ما وعد به من التكفُّل بحفظه.

وفي زمن عثمان > كادت فتنة عظيمة تقع بين المسلمين في الأمصار بسبب الاختلاف في قراءة بعض الكلمات القرآنية، فقام سيدنا عثمان ومن معه من الصحابة } فنسخوا المصاحف، وأرسلوها إلى الأمصار، وأرسلوا معها معلمين يقرئون الناس بها؛ فصارت هذه المصاحف مراجع لأهل تلك البلدان، واستقامت قراءتهم على قراءة من أُرسل إليهم من القُرَّاء، واستمرَّت محافظة المسلمين على القرآن، واستمرَّ اجتهادهم في ضبط وكتابة الكتاب المبين بما في حفظه من التبديل والتحريف بإذن الله تعالى، فلم يعدل أهل كل عصر أن يجدوا ما يبذلونه في سبيل حفظ كتاب الله تعالى؛ حتى صار المسلمون على مر الزمان مشاركين جميعًا في المحافظة على القرآن الكريم.

ولكن هنا سؤال يحتاج إلى إجابة، السؤال: ما هو السر في حفظ الله للقرآن؟

والإجابة: يتولَّى بيانها الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله؛ حيث قال: والسرُّ في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت، لا

التأييد. أما هذا القرآن فقد جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليه ؛ فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادًّا مسدَّها ، ولم يكن شيء منها -أي : من الكتب السابقة- ليسدَّ مسدَّه ؛ أي : ليسدَّ مسدَّ القرآن ، فقضى الله أن يبقى حُجَّة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمرًا يسَّر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم.

معاني جمع القرآن عند علماء المسلمين

جمع القرآن يعني : أمرين اثنين وهما : الأمر الأول : حفظه واستظهاره في الصدور. والأمر الثاني : كتابته كله حروفًا ، وكلمات ، وآيات ، وسور.

أما عن الأمر الأول أو المعنى الأول لجمع القرآن عند علماء المسلمين ألا وهو حفظ القرآن واستظهاره في الصدور ، فقد حفظ الرسول ﷺ كل ما نزل عليه من الوحي في صدره الشريف ، وليس أدلّ على ذلك من قوله ﷻ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ٦ ، ٧] ، وكان الرسول ﷺ يُعارض جبريل # بالقرآن في كل عام مرة ، وفي العام الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى عارضه مرتين ، كما ثبت عن فاطمة < : ((أنها قالت : أسرَّ إليَّ النبي ﷺ : أن جبريل كان يُعارضني بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي)).

كما حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب جمٌّ غفير من الصحابة } منهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وكذلك أبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وغيرهم من الصحابة } فهم الذين دارت أسانيد قراءات القُرَّاء عليهم.

هل كان همُّ الصحابة هو حفظ القرآن بلفظه فقط؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: لم يكن همُّ الصحابة } حفظ ألفاظ القرآن فحسب، بل جمعوا إلى حفظ اللفظ فهم المعنى، وتدبُّر المراد، والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام والآداب، وهذا هو الفارق بين جيل الصحابة وبين مَن جاء بعده. قال أبو عبد الرحمن السلمي: "حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا"، ولهذا كانوا يظلون مُدَّة في حفظ السورة الواحدة، وهذا هو السر فيما ورد أن ابن عمر { أقام على حفظ سورة البقرة ثماني سنين.

أما المعنى الثاني من معاني جمع القرآن عند المسلمين: فهو الجمع بمعنى الكتابة:

قال الإمام السخاوي -رحمه الله: "ومن أسمائه -أي: من أسماء القرآن-: الكتاب، سُمِّي بذلك لأن الكَتْب هو الجمع، يقال: كتب إذا جمع الحروف بعضها على بعض، وتكتَّب بنو فلان أي: اجتمعوا"، وقد حدث ذلك في الصدر الأول ثلاث مرات: المرة الأولى: كانت في عهد النبي ﷺ حيث كان النبي ﷺ يُنادي واحدًا من كُتَّاب الوحي، فيأمره بكتابة ما نزل عليه من الوحي، وكان ﷺ يُرشدهم إلى مواضع الآيات من السور، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن مكتوب كله مُرتَّب الآيات في سورها، غير أنه لم يكن مجموعًا في مصحف واحد، ولا موجودًا في مكان واحد، بل كان مفرَّقًا لدى الصحابة } وكان ذلك لما كان يُتوقَّع من نزول ناسخ لآية حكمًا أو تلاوة.

أما المرة الثانية من مرات الكتابة والجمع فكانت في خلافة الصديق > .

أما المرة الثالثة من مرات الكتابة والجمع فكانت في خلافة عثمان > .

أيُّهما هو المُعوَّل عليه في نقل القرآن: حفظ الصدور أم كتابة السطور؟

وقد تولَّى العلامة ابن الجزري -رحمه الله- الإجابة على هذا السؤال الذي يردُّ على الكثير من الدعاوى، ويدحض الكثير من الشبهات حيث قال -رحمه الله: "ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خَصيصة من الله تعالى لهذه الأمة".

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: ((إن ربي قال لي: قُم في قريش فأنذرهم، فقلت له: ربِّ إذن يثلغ رأسي -أي: يشدقوه ويشجُّوه، أو يكسروه- حتى يدعوه خبزة، فقال: إني مبتليك ومبتلٍ بك، ومنزِّل عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، فابعث جندًا أبعث مثلهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأنفق يُنفق عليك)).

فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تُغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة هذه الأمة ((أناجيلهم في صدورهم))، وقد ساعد الصحابة على حفظ القرآن نزوله منجمًا ومفرقًا.

سمات تدوين القرآن في عهد النبي ﷺ

بعد الكلام على معاني الجمع عند علماء المسلمين، والتي كانت عبارة عن حفظ الصدور، وكتابة السطور أنتقل إلى الكلام على سمات تدوين القرآن في عهد النبي ﷺ. يُمكننا أن نقرر أن القرآن الكريم لم يُستظهر في عهد الرسول فحسب، بل دُوِّن كاملًا، وهذا التدوين اتَّصف بصفات، ومن أبرز هذه الصفات ما يلي:

أولًا: أن النبي ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن الكريم مكتوب كله، كتبه كُتَّاب بلغوا عدد التواتر بتوجيهات من النبي ﷺ لهم.

ثانيًا: إن أمر النبي ﷺ بكتابة القرآن كان أمرًا عامًّا، ولم يكن يجمعه في صُحف، ولهذا لم يكن مجموعًا في مكان ومصحف واحد، فعن زيد بن ثابت > قال: قُبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن قد جُمع في شيء، قال الإمام السيوطي -رحمه الله: الكلام -أي: في أثر سيدنا زيد- في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة. أي: أن ما نفاه سيدنا زيد بن ثابت ليس مُطلق الجمع، بل ما نفاه هو أن يكون القرآن قد جُمع في مصحف واحد، أو في مكان واحد.

وقال الإمام القسطلاني -رحمه الله: "وقد كان القرآن كله مكتوبًا في عهده ﷺ، لكن غير مجموع في موضع واحد".

ثالثًا: إن كتابة القرآن الكريم تمَّت على أدوات متنوعة، وغير متجانسة؛ مما جعله غير محصور بين دفَّتين مع العلم أن النبي ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن علَّم الصحابة } ترتيب القرآن الكريم سورًا وآيات؛ حتى صاروا يقرءون القرآن الكريم كاملًا مرتبًا، على نحو ما أمر به ﷺ، بتعليم من جبريل # للنبي ﷺ في كل عرضة يعرض فيها القرآن على النبي.

ولا بدَّ في هذا المقام أن نتطرَّق إلى الكلام على السبب في عدم جمع القرآن في مُصحف واحد في عهد النبي ﷺ: وهذه المعلومة في غاية الأهمية؛ لأنها تردُّ على كثير من الشبهات والدعاوى والمطاعن.

أسباب عدم جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في عهد النبي ﷺ:

أولًا: ما كان يترقَّبه النبي ﷺ من تتابع نزول الوحي؛ حيث كانت تنزل بعض آيات سورة من السور، وتنقطع بنزول آيات سورة أخرى قبل تلك السورة، أو بعدها، ثم يستأنف الوحي آيات السورة الأولى، وهكذا حتى كمل التنزيل. ولا

شك -والحالة كذلك- أن في هذا الوضع استحالة جمع القرآن الكريم مباشرة عند نزوله في مصحف واحد؛ إذ يلزم ذلك تغييرًا مستمرًّا في الأدوات التي كُتب عليها القرآن.

قال الإمام الزركشي -رحمه الله: "وإنما لم يُكتب في عهد النبي ﷺ مصحف؛ لئلا يُفضي إلى تغييره كل وقت، فلهذا تأخَّرت كتابته إلى أن كمُل نزول القرآن بموت النبي ﷺ".

السبب الثاني من أسباب عدم جمع القرآن في مصحف واحد في حياة النبي ﷺ:

أن ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره لم يكن على حسب النزول؛ بل على حسب ما هو في اللوح المحفوظ الذي بُلِّغَه النبي ﷺ عن طريق جبريل # فلو كُتب القرآن مرتبًا حسب نزوله؛ لخالف ترتيبه في اللوح المحفوظ، ولوقع اضطراب في كثير من آياته، وتداخلت آيات سورة بآيات سورة أخرى، وكل ذلك يتنافى مع الإعجاز.

السبب الثالث: أن المدَّة بين ما آخر ما نزل من القرآن الكريم وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًّا، وهي غير كافية لجمع القرآن بين دفَّتي مصحف واحد.

السبب الرابع: أنه لم يُوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد في عهد النبي ﷺ مثل ما وُجد في عهد أبي بكر الصديق >، فقد كان المسلمون في عهد النبي ﷺ بخير، وأمن، والقُرَّاء كثيرون، والفتنة مأمونة، وفوق هذا كان النبي ﷺ حيًّا بينهم، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر الصديق > من مقتل بعض الحُفَّاظ حتى خاف على ضياع شيء من القرآن.

وفي هذا المقام لا بد أن نتكلم عن طعن من أهم الطعون التي تُوجه إلى جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، ذلك الطعن مفاده: أن النبي ﷺ قد مات ولم يكن القرآن قد جُمع في السطور، وهذا الطعن موجَّه إلى الجمع الأول في عهد النبي ﷺ.

ولا بدَّ للرد على هذا الطعن ردًّا شافيًا كافيًا وافيًا. ولكنني أجعل هذا الرد بإذن الله ﷻ في الدرس القادم؛ لكي يكون بداية لعرض الطعون والدعاوى والافتراءات والشبهات التي وجهت للقرآن سواء في مرحلة جمعه في عهد النبي ﷺ أو في مرحلة جمعه في عهد سيدنا أبي بكر الصديق > أو في مرحلة الجمع في العهد العثماني، أو في غير ذلك من الطعون والافتراءات والدعاوى والشبهات الموجه لكتاب الله ﷻ.

الادِّعاءات والشبهات التي تُثار حول جمع القرآن

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الادّعاء بعدم تدوين القرآن كاملًا كتابة في حياة النبي ﷺ	١٢١
العنصر الثاني :	الادّعاء بجواز نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن	١٢٤
العنصر الثالث :	دعوى زيادة شيء في القرآن	١٢٩

الادِّعاء بعدم تدوين القرآن كاملًا كتابة في حياة النبي ﷺ

أما الادعاء الأول فيما يتعلق بجمع القرآن في حياة النبي ﷺ: فهو الادِّعاء القائل بعدم تدوين القرآن كاملًا كتابة في حياة النبي ﷺ. فقد زعم الطاعنون أن النبي ﷺ قد مات ولم يكن القرآن قد جُمع في السطور.

هذا عرضٌ مجمل لهذه الدعوى، وفيما يلي أُبيِّن الجواب الكافي، والرد الوافي على هذه الدعوى، والله المستعان:

الرد على تلك الدعوى يتمثَّل في عرض وبيان الأدلة اليقينية التي تُثبت كتابة القرآن كاملًا في عهد النبي ﷺ لم يكتفِ النبي ﷺ بحفظ القرآن الكريم وإقرائه لأصحابه ﴿، وحثِّهم على تعلمه وتعليمه، بل جمع إلى ذلك الأمر بكتابته وتقييده في السطور، فكان ﷺ كلما نزل عليه شيء من الوحي دعا الكُتَّاب، فأملاه عليهم، فيكتبونه؛ وبذلك كان القرآن مكتوبًا كله بأمر النبي ﷺ، وفي عهده وحال حياته.

قال أبو عبد الله الحارث المحاسبي -رحمه الله-: "كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقًا في الرِّقاع والأكتاف والعُسُب". وقد وردت أدلة كثيرة تدل على كتابة القرآن الكريم في عهده ﷺ، وتدل على مبادرته ﷺ بالأمر بكتابته، ومن هذه الأدلة ما يلي:

الدليل الأول: إطلاق لفظ الكتاب على القرآن الكريم في مواضع عدَّة من القرآن الكريم، ومن ذلك على سبيل المثال قوله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]، فإطلاق لفظ الكتاب على القرآن يدل على أن القرآن مكتوب. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله-: "رُوعي في تسميته قرآنًا

كونه متلوًّا بالألسن، كما رُوعي في تسميته كتابًا كونه مدوَّنًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه"، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقِّه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني: أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المُجمَع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وُضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يُوافق ما عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر. كان هذا هو الدليل الأول.

أما الدليل الثاني: فهو أن الكتابة من الصفات الثابتة للقرآن الكريم قال ﷻ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣] قال الإمام الفخر الرازي -رحمه الله- في تفسيره لهاتين الآيتين: "فاعلم أن الصُّحف جمع صحيفة، وهي ظرف للمكتوب".

أما الدليل الثالث: فهو ما ورد من الأحاديث الدالة على وجود ما نزل من القرآن الكريم مكتوبًا في عهد النبي ﷺ، ومن ذلك حديث ابن عمر { : أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوِّ. وغير ذلك من الأخبار الدالة على أن القرآن الكريم كان مكتوبًا في عهد النبي ﷺ.

الدليل الرابع على كون القرآن مكتوبًا في عهد النبي ﷺ: إذنه ﷺ بكتابة القرآن الكريم، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه))، فهذا الحديث يدل على نهي النبي ﷺ للصحابة { عن كتابة شيء غير القرآن، وأن القرآن كان مأذونًا لهم في كتابته في حياة النبي ﷺ.

أما الدليل الخامس: فهو أن النبي ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون له الوحي، وكان يأمرهم بكتابته فَوْر نزوله، فقد أخرج الإمام البخاري عن البراء بن عازب > أنه

قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] دعا رسول الله ﷺ زيدًا فكتبها، فجاء ابن أم مكتوب فشكا ضرارته، فأنزل الله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] أي: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ وهذه جزء من آية من سورة النساء.

وأخرج البخاري أن أبا بكر > قال لزيد بن ثابت > في الحديث المشتمل على تكليف زيد بجمع القرآن: "وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ". وأخرج ابن أبي داود أن زيد بن ثابت > قال: "كنت جار رسول الله ﷺ، فكان إذا نزل الوحي أرسل إليَّ فكتبت الوحي". فهذه الأحاديث تدل على أن النبي ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون الوحي، ويدعوهم لكتابته فور نزوله.

أما الدليل السادس: فهو آيات التحدِّي، فقد تحدَّى القرآن المشركين وغيرهم بالإتيان بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة من مثله؛ مما يدل على أن القرآن بآياته وسوره كان في متناول أيديهم، بحيث يتثنى للمشركين أن يظفروا به، أو أن يُعطى لهم، وإلا كان ذلك تحديًا بغير الموجود، وهو لا يصح في الأذهان والعقول.

وإذا أضفنا إلى الأدلة السابقة الشواهد الكثيرة التي منها على سبيل المثال رواية إسلام سيدنا عمر >، وإذا أضفنا أيضًا إلى تلك الأدلة حرص الرسول ﷺ على تعليم صحابته الكتابة، بالإضافة إلى أهمية القرآن بالنسبة للنبي ﷺ، وبالنسبة للأمة الإسلامية والشريعة الغرَّاء يتحصَّل لدينا اليقين والقطع بأن القرآن لم يُستظهر في عهد رسول الله فحسب؛ بل دُوِّن تدوينًا كاملًا في حياة النبي ﷺ.

وبهذا تكون هذه الدعوى قد أحاط بها من الضِّياء ما تزول به ظلمة الجهل، والتدليس، والخفاء ويتبيَّن لنا أن هذه الدعوى ضعيفة أمام الحقائق العلمية، فلله الحمد والمنة.

الادِّعاء بجواز نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن

بعد الكلام على الادِّعاء الأول المتمثل في الادعاء بعدم كتابة القرآن كاملًا في حياة النبي ﷺ، وبعد الرَّدِّ على هذا الادعاء ردًّا شافيًا كافيًا وافيًا، ننتقل إلى ادِّعاء آخر ألا وهو الادِّعاء القائل بجواز نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن، وهذا هو الادِّعاء الثاني في رحلتنا مع الدعاوى، والطعون، والشبهات الموجَّهة للقرآن الكريم.

فقد شكَّك بعضُ الملاحدة في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن الكريم وجمعه، وهو حفظ النبي ﷺ للقرآن بدعوى جواز النسيان على النبي ﷺ، وقد كانت لهم على تلك الدعوى أدلَّة؛ هذه الأدلة تتمثَّل في آية من كتاب الله، وفي حديث من أحاديث النبي ﷺ.

وسنقف -بإذن الله ﷻ مع هذه الآية، ومع ذلك الحديث لنرى هل استدلالهم كان في محله أم لا.

أما الدليل الأول: فهو قوله ﷻ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فزعموا أن هذه الآيات تدلُّ بطريق الاستثناء على أن النبي ﷺ قد أُنسي بعض آيات القرآن الكريم، وتدل أيضًا على جواز النسيان على النبي ﷺ.

أما الدليل الثاني: فهو ذلك الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أم المؤمنين عائشة > قالت: سمع النبي ﷺ قارئًا يقرأ من الليل في المسجد، فقال: ((يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا))، وفي رواية: ((أُنسيتها من سورة كذا وكذا))، فزعموا أن النبي ﷺ أسقط عمدًا بعض آيات القرآن، أو أنسيها.

كانت هذه هي الأدلة التي استدلَّ بها الملاحدة والطاعنون على وقوع النسيان في حق النبي ﷺ، فيما يتعلق ببعض آيات القرآن. وفيما يلي أستعين بالله لأُبيِّن على تلك الدعوى:

يُجاب عن دعواهم أن الآيات الكريمات تدل على جواز نسيان النبي ﷺ شيئًا من القرآن بعدَّة أجوبة:

أولا: قوله ﷻ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] هو وعد كريم بعدم نسيان ما يقرؤه النبي ﷺ من القرآن؛ إذ إن "لا" في هذه الآية هي "لا" النافية، وليست ناهية، بدليل إشباع السين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، فأخبر الله فيها بأنه لا ينسى ما أقرأه إيَّاه. وهناك قول يقول: بأن "لا" ناهية، وإنما وقع الإشباع في السين لتُناسب رءوس الآيات، ولكن القول الأول هو القول الأكثر؛ أي: على اعتبار أن "لا" نافية وليست ناهية.

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- بعد أن ذكر القولين، والقول الأول -أي: الذي يجعل "لا" نافية- هو القول المختار، ومعنى الآية على هذا سنعلمك القرآن فلا تنساه، فهي تدل على عكس ما أرادوا الاستدلال به.

ثانيًا: إن الاستثناء في الآية معلَّق على مشيئة الله إيَّاه، والمشيئة لم تقع، بدليل ما مرَّ من قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، ولأن عدم حصول المُعَلَّق عليه يستلزم عدم حصول المُعَلَّق، ويستحيل أن تتعلق مشيئة الله بعدم بلوغ الرسالة.

ثالثًا: الاستثناء في الآية لا يدل على ما زعموا من أنه يدل على إمكان أن ينسى ﷺ شيئًا من القرآن.

وفي المراد بهذا الاستثناء قولان:

القول الأول: إن الاستثناء صوري أي: ليس بحقيقي، فهو للتبرك، وليس هناك شيء قد استثني، قال الإمام الفراء -رحمه الله: "لم يشأ الله ﷻ أن ينسى النبي شيئًا، وهو كقوله ﷻ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٧]، وأنت قائل في الكلام لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئتُ، أو إلا أن أشاءَ أن أمنعك، مع أن نية القائل ألا يمنع. وعلى هذا يجري الحلف والأيمان، يُستثنى فيها ونية الحالف هي التمام.

وقيل: إن الحكمة في هذا الاستثناء الصوري أن يعلم العباد أن عدم نسيان النبي ﷺ القرآن هو محض فضل الله، وإحسانه، ولو شاء تعالى أن يُنسيه شيئًا لأنساه، وفي ذلك إشعار للنبي ﷺ أنه دائمًا مغمور بنعمة الله، وعنايته، وإشعار للأمة بأن نبيهم مع ما خصَّ به من العطايا والخصائص لا يخرج عن دائرة العبودية، فلا يُفتنون به كما فُتن النصارى بالمسيح # .

القول الثاني في الاستثناء: هو أن ذلك الاستثناء حقيقي، وأن المراد به منسوخ التلاوة؛ فيكون المعنى: أن الله تعالى وعد بألا يُنسي نبيه ﷺ ما يقرؤه إلا ما شاء الله -سبحانه- أن يُنسيه إيَّاه بأن نسخ تلاوته لحكمة معينة، أو ما يعرض للإنسان بحُكم الجبلَّة الإنسانية، أو لأجل تعليم الناس وتبيين السنة لهم.

قال الإمام الطبري -رحمه الله-: "وقال آخرون: النسيان في هذا الموضع يراد به الترك، قالوا: ومعنى الكلام: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه، إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما نسخه".

وبناء على ما سبق فلا تعلق لأصحاب هذه الدعوى بتلك الآيات؛ إذ لا يفهم منها أن النبي ﷺ قد نسي حرفًا واحدًا مما أُمر بتبليغه، هذا فيما يتعلق بالآية.

أما فيما يتعلق بالحديث الذي استدلُّوا به، فلنا في الجواب عليه عدَّة أجوبة:

أولًا: الحديث الذي أوردُوه لا ينهض حُجَّة لهم فيما زعموا من الشَّك في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن وجمعه؛ إذ إن الآيات التي أُنسيها النبي ﷺ ثم ذكرها كانت مكتوبة بين يدي النبي ﷺ، وكانت محفوظة في صدور أصحابه }، أولئك الأصحاب الذين تلَقَوا هذه الآيات عن النبي ﷺ أولئك الأصحاب الذين بلغ عددهم مبلغ التواتر، وإنما غاية ما فيه الدلالة على أن قراءة ذلك الصحابي قد ذكَّرت النبي ﷺ بتلك الآيات، وكان قد أُنسيها، وليس في الخبر إشارة إلى أن هذه الآيات لم تكن مما كتبه كُتَّاب الوحي، وليس في الخبر كذلك ما يدل على أن أصحاب النبي ﷺ كانوا قد نسوها جميعًا حتى يُخاف عليها من الضياع.

ثانيًا: روايات الحديث لا تُفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول من أحد أصحابه كانت قد انمحت من ذهنه الشريف جملةً، بل غاية ما تفيده أنها كانت غائبة فقط عن ذهن النبي ﷺ ثم تذكرها، وحضرت في ذهنه بقراءة ذلك الصحابي، وليس غيبة الشيء عن الذهن كمحوه من الذهن تمامًا. فالنسيان هنا بسبب انشغال ذهن النبي بأشياء أخرى. أما النسيان التام فهو مستحيل في حق النبي ﷺ لإخلاله بوظيفة الرسالة والتبليغ.

ثالثًا: قوله ﷺ: ((أسقطتها)) مفسرة بقوله ﷺ في الرواية الأخرى: ((أنسيتها))؛ فدل ذلك على أنه ﷺ قد سقطت منه هذه الآيات نسيانًا لا عمدًا، فلا محلَّ لما أوردوه من أنه ﷺ قد يكون قد أسقط عمدًا بعض آيات القرآن.

قال الإمام النووي -رحمه الله- قوله ﷺ: ((كنت أنسيتها)) دليل على جواز النسيان على النبي ﷺ فيما قد بلَّغه إلى الأمة. وهاهنا تأتي مسألة في غاية

الأهمية، هذه المسألة هي مسألة وقوع النسيان من النبي ﷺ، ووقوع النسيان من النبي ﷺ يكون على قسمين:

القسم الأول: وقوع النسيان منه ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ، وهذا القسم جائز مطلقًا لما جُبل عليه النبي ﷺ من الطبيعة البشرية، كما حدث في سهوه في الصلاة ﷺ.

أما القسم الثاني: فهو وقوع النسيان من النبي ﷺ في شيء من الوحي، أو فيما طريقه البلاغ، وهذا قد يقع بشرطين:

الشرط الأول: أن يقع منه النسيان بعدما يقع التبليغ من النبي ﷺ أو بعدما يقوم النبي بالبلاغ، أما قبل التبليغ أو البلاغ فلا يجوز عليه النسيان أصلًا. قال الإمام النووي في شرح قوله ﷺ: ((كنت أنسيتها)) يقول: "هذا دليل على جواز النسيان عليه ﷺ فيما قد بلغه إلى الأمة".

أما الشرط الثاني: فقد يقع من النبي النسيان فيما طريقه البلاغ بشرط ألا يستمرَّ على النسيان، بل يحصل له ﷺ التذكر، إما أن يتذكر بنفسه، وإما أن يذكره غيره.

قال القاضي عياض -رحمه الله: "جمهور المحققين على جواز النسيان عليه ﷺ ابتداء فيما ليس طريقه البلاغ، واختلفوا فيما طريقه البلاغ والتعليم، ولكن من جوَّز ذلك قال: لا يُقرُّ عليه بل لا بد أن يتذكره أو يُذكّره".

ونسيان النبي ﷺ لشيء مما طريقه البلاغ يكون على قسمين أيضًا، قال الإمام الإسماعيلي: النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قمسين:

أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية، وعليه يدل قوله ﷺ في حديث ابن مسعود في السهو: ((إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون))،

وهذا القسم عارض سريع الزوال؛ لظاهر قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

أما القسم الثاني: فهو أن يرفعه الله عن قلبه على إرادة نسخ التلاوة، وهو المُشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] وذلك على بعض الأقوال. وهذا القسم داخل في قوله ﷻ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وزعم بعض الأصوليين وبعض الصوفية أنه لا يقع النسيان من النبي ﷺ في شيء أصلًا؛ وإنما يقع منه صورته ليُسِنَّ. قال الإمام القاضي عياض -رحمه الله- تعليقًا على هذا القول، قال: "وهذا تناقض مردود، ولم يقل بهذا أحد ممن يُقتدى به إلا الأستاذ الإسفراييني من شيوخنا، فإنه مال إليه، ورجحه، وهو ضعيف متناقض".

دعوى زيادة شيء في القرآن

هذه الدعوى يُجلِّيها لنا ما نُقل عن موقف سيدنا ابن مسعود > من كتابة الفاتحة والمعوذتين في مصحفه، فقد طعن الطاعنون في جَمْع القرآن بأن عبد الله بن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن، وكان > يمحوهما من مصحفه، وأنه لم يكتب فاتحة الكتاب في مصحفه، واستدلوا بذلك على وقوع التحريف في القرآن بزيادة سورتين على الوحي المُنزَّل على النبي ﷺ.

وقد ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، وورد أنه كان لا يكتب فاتحة الكتاب كذلك، فعن ذر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب قلت: "يا أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا، فقال أبي: سألت رسول الله ﷺ

فقال لي: قيل لي فقلت، قال: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ". أي: أن زرّ بن حبيش > سأل أبيًا > عما يُنقل عن ابن مسعود > من عدم ثبوت الفاتحة والمعوذتين في مصحفه، فردَّ عليه أبي بأن الصحابة } ومنهم أبي، إنما كان يقرءون ويتعلمون ما سمعوه من فَمِ النبي ﷺ فهم لا يقولون بشيء في القرآن إلا ما تعلموه، وحفظوه، وسمعوه من فَمِ النبي ﷺ، وكان ذلك هو ردُّ أبي بن كعب على ما سمعه من زر بن حبيش فيما يُنسب إلى سيدنا عبد الله بن مسعود من أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه.

وعن زر بن حبيش أيضًا أنه قال: "قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال أبي: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل قال له: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] فقلتها، فقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ".

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: "كان عبد الله ابن مسعود يحكّ المعوذتين من مصاحفه، ويقول: إنما ليستا من كتاب الله"، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: "قيل لابن مسعود لِمَ لَمْ تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة".

وعن ابن سيرين أن أبي بن كعب وعثمان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئًا منهنَّ.

كان هذا عَرْضًا للآثار المتعلقة بعدم كتابة ابن مسعود للفاتحة والمعوذتين في مصحفه، وفيما يلي أبين الجواب عن هذه الدعوى والله المستعان.

المسألة الأولى: ما يتعلق بفاتحة الكتاب: أما فاتحة الكتاب فإن الخبر الذي تعلق به أصحاب هذا الادعاء ليس فيه إنكار لقرآنية الفاتحة، وإنما قُصارى ما فيه أن ابن

مسعود > لم يكن يكتبها، وليس في ذلك جحدٌ بأنها من القرآن، ولا يجوز لمسلم أن يظن خفاء قرآنية الفاتحة على ابن مسعود؛ فضلًا عن أن يظن به إنكار قرآنيتها. وكيف يُظن به ذلك، وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن، وقد أوصى النبي ﷺ بقراءة القرآن على قراءته، كما ثبت في الصحيح؛ فعن عبد الله بن مسعود أن أبا بكر وعمر بشَّراه أن رسول الله ﷺ قال: ((من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)).

كما أن ابن مسعود كان من السابقين للإسلام، ولم يزل يسمع النبي ﷺ يقرأ بالفاتحة في الصلاة ويقول: ((لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب))؛ فوجب أن يُحمل ما يتعلَّق بفاتحة الكتاب على محمل مقبول، وذلك بأن يقال: إن عبد الله بن مسعود كان يرى أن القرآن كُتب في المصاحف؛ مخافة الشك والنسيان، أو الزيادة والنقصان، فلما رأى ذلك مأمونًا في فاتحة الكتاب، لأنها تثنى في الصلاة، ولأنه لا يجوز لأحد من المسلمين ترك تعلمها، لما كان ذلك هو وضع فاتحة الكتاب ترك كتابتها، وهو يعلم أنها من القرآن، وذلك لانتفاء علَّة الكتابة في شأن الفاتحة؛ لأنه لا يخاف عليها من النسيان، فكان سبب عدم كتابتها في مصحفه وضوح أنها من القرآن، وعدم الخوف عليها من الشكّ والنسيان، والزيادة والنقصان.

قال الإمام أبو بكر الأنباري -رحمه الله- تعليقًا على قول ابن مسعود: "لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة" قال: يعني أن كل ركعة سبيلها أن تُفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوّة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولو أثبتها في موضع فإنه يلزمني أن أكتبها مع كل سورة؛ إذ كانت تتقدمها في الصلاة".

ويدل على ذلك أيضًا أنه قد صح عن ابن مسعود قراءة عاصم، وقراءة عاصم فيها الفاتحة، وهذا نقلٌ متواتر يوجب العلم. وعدم كتابته للفاتحة دليل على أنه > لم يكن يكتب كل القرآن في مصحفه، وإنما كان هذا مصحفًا خاصًّا بابن مسعود > . وبذلك تكون هذه الدعوى قد ذهبت أدراج الرياح فلله الحمد والمنة؛ كان هذا فيما يتعلق بفاتحة الكتاب.

أما ما يتعلق بالمعوذتين فقد ثبت بما لا مجال للشك معه أن المعوذتين قرآن مُنزَّل لورود التصريح بقرآنيَّتِهما عن النبي ﷺ، فعن عقبة بن عامر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أُنزل أو أُنزلت عليَّ آيات لم يُرَ مثلهنَّ قط المعوذتين))، كما ورد أنه ﷺ صلى بهما صلاة الصبح، وفي قراءتهما في الصلاة دليل صريح على كونهما من القرآن العظيم.

فعن عقبة بن عامر قال: بينا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب؛ إذ قال: ((ألا تركب يا عقبة))، فأجللت رسول الله -أي: عظمت رسول الله ﷺ أن أركب مركب رسول الله ﷺ، ثم قال: ((ألا تركب يا عقبة))، فأشفقت أن يكون معصية، فنزل وركبت هنيهة -أي: فترة قليلة- ونزلتُ، وركب رسول الله ﷺ، ثم قال: ((ألا أُعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس))، فأقرأني ﷺ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فأقيمت الصلاة، فتقدَّم النبي فقرأ بهما، ثم مرَّ بي فقال: ((كيف رأيت يا عقبة بن عامر، اقرأ بهما كلما نمتَ وقمتَ)).

أما ما نُقل عن عدم إثبات ابن مسعود للمعوِّذتين في مصحفه، فهذا المنقول عنه إما أنه ضعيف مردود، أو له تأويل سائغ يجب أن يُحمل عليه على فرض صحَّة النقل عن ابن مسعود، وتفصيل ذلك فيما يلي بإذن الله:

أولًا: إنكار ما نُقل عن ابن مسعود في عدم إثبات المعوذتين: أنكر كثير من أهل العلم صحَّة النقل عن ابن مسعود في إنكاره قرآنية المعوذتين، وفي عدم إثباتهما في مصحفه، قال الإمام الباقلاني -رحمه الله: "وأما المعوذتان فكل من ادَّعى أن عبد الله بن مسعود أنكر أن تكون من القرآن؛ فقد جهل وبعد عن التحصيل"، وقال الإمام ابن حزم -رحمه الله: "وكل ما رُوي عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه، فكذب موضوع، ولا يصح، وإنما صحَّت عنه قراءة عاصم، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود، وفيها أم القرآن والمعوذتان".

وقال الإمام النووي -رحمه الله: "أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة، وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن، وأن من جحد شيئًا منه كفر، وما نُقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل ليس بصحيح عنه".

كان هذا كلام كثير من أهل العلم، هذا الكلام يُنكرون فيه ما نُقل عن ابن مسعود في عدم إثبات المعوذتين، ويشكِّكون في كون هذا النقل صحيحًا عن ابن مسعود > . وللعلماء في الرد على ما ورد عن ابن مسعود فيما يتعلق بالمعوذتين مسلكان:

المسلك الأول: ردُّ هذه الروايات من ناحية المتن. المسلك الثاني: تأويل هذه الروايات على فرض التسليم بثبوتها، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولا: ردُّ هذه الروايات لشذوذ متونها، وذلك لما يلي: سبيل نقل المعوذتين هو سبيل نقل القرآن وهو ظاهر مشهور، والمعوذتان فيهما من الإعجاز ما لا خفاء فيه لذي فهم، فكيف يُنقل عن ابن مسعود إنكار كونهما قرآنًا مع ما ذُكر من النقل والإعجاز، كذلك فإن ابن مسعود لو أنكر أن المعوِّذتين من القرآن؛ لأنكر

عليه الصحابة، ولنقل إلينا ذلك نقلًا مستفيضًا، مثلما أنكروا عليه ما هو أقل من ذلك، وهو اعتراضه > أي: اعتراض ابن مسعود على اختيار زيد لجمع القرآن.

كذلك أن ابن مسعود كان مشهورًا بإتقان القراءة، منتصبًا للإقراء، وقد صحَّ عنه قراءة عاصم وفيها المعوذتان، ولو كان أقرأ تلاميذه القرآن دون المعوذتين؛ لنُقل ذلك إلينا، فلما لم يروَ عنه ذلك، ولا نُقل عن أحد من تلاميذه؛ دلَّ هذا على بطلان ذلك النقل، وعلى عدم صحته.

كذلك ما رُوي من حكه للمعوذتين من مصحفه، فذلك لا يخلو مما يلي: أن يكون حكَّهما من مصحفه، أو من مصاحف أصحابه الذين أخذوا عنه، أو من مصحف عثمان وما كُتب منه. فمحال أن يكون قد حكهما من مصحفه؛ لأن العقل يقول بأنهما لم يكونا فيه أصلًا؛ لأنه لم يكتبهما أصلًا. وكذلك محال أن يكون قد حكهما من مصاحف من أخذ عنه من أصحابه؛ لأن هذه المصاحف بالضرورة لا بد وأن تكون موافقة لمصحفه، فلا يتصوَّر أن يكون فيها المعوذتان، وإن كان قد حكهما من مصحف عثمان فذلك بعيد؛ لأنه لو حدث فإنه يكون شقًّا للعصى، وخلافًا شديدًا يطول فيه الخَطْب بينهما، ولو حصل ذلك لنقل إلينا، وفي عدم ورود ذلك دليل على عدم حدوثه، وعلى بطلان الروايات التي تقول به.

وأما قول الراوي: إنه كان يحكهما من مصحفه، ويقول: لا تخلطوا به ما ليس منه، يقصد بذلك المعوذتين، فهذا تفسير من الراوي، ويحتمل أنه كان يحكّ الفواتح والفواصل، ويدل على ذلك ما رواه ابن أبي داود قال: "أتيت إبراهيم - أي: إبراهيم النخعي- بمصحف لي مكتوب فيه سورة كذا وكذا آية، قال إبراهيم: امح هذا، فإن ابن مسعود كان يكره هذا، ويقول: لا تخلطوا بكتاب الله ما

ليس منه" أي: أنهم كانوا يمحون أو يزيلون ما يتعلّق باسم السورة، أو بعدد آياتها، ويقولون في ذلك: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس منه، ويكون هذا هو المراد من المحو، وليس محو أصل الآيات التي علمهم إيَّاها النبي ﷺ. كذلك جاء في الأثر المستدلّ به عن عبد الرحمن بن يزيد قال: "وكان يحكّ المعوذتين من مصاحفه"، وإننا هنا نسأل ما هي مصاحف ابن مسعود؟ هل كتب > أكثر من مصحف، وإذا كان قد كتب عدَّة مصاحف فلما يحكّ ما كتبه، أو لماذا يكتب ما يحكه بعد ذلك.

المسلك الثاني من مسالك العلماء في الكلام على هذه الروايات: تأويل هذه الروايات على فرض التسليم بثبوتها، إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين ومحوهما من المصاحف قد صحَّحه بعد العلماء، وعندئذٍ لا بد أن نلجأ إلى تأويل فعل ابن مسعود على افتراض صحة هذه الروايات عنه > .

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله: "وأما قول الإمام النووي أجمع المسلمون على كذا، ففيه نظر، وقد سبقه لنحو ذلك ابن حزم، ثم قال ابن حجر: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يُقبل، بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل".
وقال الإمام ابن كثير -رحمه الله- فيما يتعلق بما نُقل عن ابن مسعود في عدم كتابة المعوذتين يقول: "وهذا مشهور عند كثير من القُراء والفقهاء أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده، ثم قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة أثبتوهما في المصاحف الأئمة، ونفذُّوها إلى سائر الآفاق ولله الحمد والمنة".

كان هذا بعضًا من الجواب والرد على ما يتعلق بزيادة المعوذتين، أو ما يتعلق بما نُقل عن ابن مسعود > من أنه كان لا يُثبت المعوذتين في القرآن، ولكن بقيتْ هناك بعض الأوجه في استكمال الردّ على هذا الادعاء.

الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

عناصر الدرس

العنصر الأول : الرَّدِّ على ما نُقل عن ابن مسعود في إنكار ثبوت المعوِّذتين في القرآن ١٣٩
العنصر الثاني : الوجوه من الأول إلى الرابع في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ ١٤١
العنصر الثالث : الوجه الخامس والسادس في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ ١٤٩

الرَّدِّ على ما نُقل عن ابن مسعود في إنكار ثبوت المعوِّذتين في القرآن

على افتراض صحَّة هذا النقل عن ابن مسعود > يكون الجواب على هذه الدعوى كما يلي:

أولًا: أن ترك كتابة ابن مسعود للمعوذتين في مصحفه ليس بالضرورة إنكارًا لقرآنيتهما؛ إذ لا يجب على الإنسان أن يكتب جميع القرآن، فلو أنه كتب بعضًا وترك بعضًا فليس عليه عيب ولا إثم.

ثانيًا: يُحتمل أن يكون ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ، ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما، فإن قيل: ولِمَ لَمْ يُنكر عليه الصحابة؟ فيُجاب: بأنهم لم ينكروا عليه لأنه كان بصدد البحث والتثبت في هذا الأمر.

ثالثًا: أنه يُحتمل أنه كان لا يسمعهما من النبي ﷺ، وكان يراه ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين بهما، فظن ابن مسعود أنهما ليستا من القرآن، وظن أنهما مجرَّد رقية، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة جميعًا، ثم لما تيقَّن له قرآنيتهما رجع إلى قول الجماعة، فعن سفيان قال: "وليستا في مصحف ابن مسعود، كان يرى رسول الله ﷺ يعوِّذ بهما الحسن والحسين، ولم يسمعه يقرؤهما في شيء من صلاته، فظن ابن مسعود أنهما عُوِّذتان، وأصر على ظنه، وتحقق الباقون كونهما من القرآن فأودعوهما إيَّاه".

ومما يؤيد أنه رجع إلى قول الجماعة ما أوردناه قبل ذلك من صحة قراءة عاصم عن ابن مسعود، وقراءة عاصم قد اشتملت على المعوذتين.

رابعًا: أنه لو صح أن ابن مسعود قد أسقط المعوذتين من مصحفه، فإن ذلك لا يدل على إنكاره كونهما من القرآن، بل لعله أن يكون قد أسقطهما لعدم خوف النسيان عليهما، وظن من رأى ذلك أنه أسقطهما؛ لأنهما ليستا عنده بقرآن.

خامسًا: يمكن أن يكون قد سُئل عن عوذة من العِوَذ رواها عن النبي ﷺ، وظن السائل عنها أنها من القرآن، فقال عبد الله: "إن تلك العوذة ليست من القرآن"، وظن سامع ذلك، أو راويه أن ابن مسعود يريد بذلك المعوذتين، ويُمكن أن يُحمل على ذلك أيضًا جوابه لمن قال له في المعوذتين: أهي من القرآن؟ فقال: بأنها ليست من القرآن، فإنه يُحتمل أن يكون قد سأله عن معوذتين أخريين غير سورة الفلق وسورة الناس.

سادسًا: لو ثبت عن ابن مسعود بنصٍّ لا يُحتمل الرَّدِّ أنه حكَّ المعوذتين، فإن ذلك يحتمل وجوهًا من التأويل، منها أن يكون رآها مكتوبة في غير موضعها الذي يجب أن تُكتب فيه، ويكون قد أراد بقوله: "لا تخلطوا به ما ليس منه" أي: أراد بذلك عدم وضع السورة في غير موضعها الصحيح، أو أنه رآها كُتبت مغيرة بضرب من التغيير في الأحرف، أو ما شابه ذلك فحكها أي: محاها وقال: "لا تخلطوا به ما ليس منه".

سابعًا: أنه على فرض استمرار عبد الله بن مسعود على إنكار قرآنية المعوذتين، ومحوهما من المصاحف يُجاب بأنه قد انفرد بهذا الإنكار، ولم يتابعه عليه أحد من الصحابة وغيرهم، وانفراده على فرض استمراره عليه لا يطعن في تواتر القرآن، فإنه ليس من شرط التواتر ألا يُخالف فيه مخالف، وإلا لأمكن هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه بمجرَّد أن يُخالف فيه مخالف، فلو ثبت أن ابن مسعود أنكر المعوذتين، بل أنكر القرآن كله واستمر على ذلك، فإن إنكاره لا يقدح في تواتر القرآن.

قال الإمام البزار -رحمه الله: "لم يُتابع عبد الله أحد من الصحابة، ولا شك أن إجماع الصحابة على قرآنية المعوذتين كافٍ في الرد على هذا الطعن، ولا يضر

هذا الإجماع مخالفة ابن مسعود > "، فإنه لا يُعقل تصويب رأي ابن مسعود وتخطئة الصحابة كلهم، بل الأمة كلها. فمن لي بمن يُخبر مدَّعي التحريف أنه ما صحَّ كلامه العجيب للمسلم اللبيب، وإنما صحَّ جوابنا على ادِّعائه السخيف.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن هذا الادِّعاء من أوهى الادعاءات، وأضعفها، وأسخفها، وقد نسف علماء المسلمين هذا الادعاء من قواعده، وبيَّنوا ما تنجلي به هذه الدعوى أتمَّ بيان، فسقطت الدعوى وزالت الشبهة، ولله الحمد والمنة.

الوجوه من الأول إلى الرابع في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام على شبهة رئيسة من الشبهات التي يفتريها الطاعنون على كتاب الله ﷻ، مجمل هذه الشبهة يتلخص في التشكيك في نسبة القرآن إلى الله تعالى، أو التشكيك في مصدر القرآن؛ فيدعون تارة أن القرآن من تأليف النبي ﷺ، ويدعون تارة أن النبي ﷺ قد نقل القرآن عن أحد آخر، أو تعلم القرآن من غيره، وتفصيل ذلك فيما يلي:

أولًا: دعواهم أن القرآن من عند النبي ﷺ، أو من تأليف النبي ﷺ هذا الطعن من أقدم الطعون، ولقد ذُكر هذا الطعن في القرآن كما في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١]، قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ [النحل: ١٠١] أي: متقوِّل على الله ﷻ، وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

ولا زال الطاعنون يردِّدون هذه الشُّبهة إلى اليوم، ففي دائرة المعارف الإسلامية قالوا: "القرآن ليس من عند الله"، ويقول المستشرق ويلز: "محمد هو الذي صنع القرآن"، ويقول يوليوس فلهاوزن: "القرآن من عند محمد"، ويقول جوستاف لوبو: "القرآن من تأليف محمد"، ويقول نولدكه: "كانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة، والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج، فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه، مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة".

هذا هو مجمل أقوال المستشرقين وغيرهم من الطاعنين في الوحي، الذي يُوحى إلى النبي ﷺ، فمنهم من قال: "إن القرآن إلهام سمعي"، ومنهم من يرى أنه تأثير انفعالات عاطفية، ومنهم من يرى أنه تجربة ذهنية فكرية، ومنهم من يرى أنه حالة كحالة الكهنة والمنجمين، ومنهم من يرى أنه حالة صرع وهستيريا.

كان هذا عرضًا مجملًا لهذه الدعوى، وفيما يلي -بإذن الله تعالى- أُبيِّن الرَّدَّ الكافي، والجواب الشافي على هذه الدعوى، فالله المستعان.

الرد على هذه الدعوى من وجوه:

الوجه الأول: لقد فصل الله ﷻ الكلام على هذه القضية بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧].

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته، وبلاغته، ووجازته، وحلاوته، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة

في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يُشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ فكلامه لا يُشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٧]" أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليها، ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا، لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب > : ((فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم)) أي: خبر عما سلف، وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يُحبه الله ويرضاه.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله- في كتابه (النبأ العظيم): "لقد علم الناس أجمعون علمًا لا يُخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي، وُلد بمكة في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هذا القدر لا خلاف بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يُماثلها ولا يُدانيها شهادته لكتاب غيره، ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض، أما بعد: فمن أين جاء به محمد بن عبد الله أمن عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من معلم، ومن هو ذلك المعلم، نقرأ في هذا الكتاب أنه ليس من عمل النبي، وإنه ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، ذلكم هو جبريل # تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزل بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ، فتلقاه منه النبي كما يتلقاه التلميذ عن أستاذه

نصًّا من النصوص، ولم يكن للنبي فيه شيء إلا الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤]، هكذا سمّاه القرآن حيث يقول: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ويقول تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [يونس: ١٥].

وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إيحاء المعاني، ثم يقول تعالى في شأن الإيحاء اللفظي: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

فانظر كيف عبَّر عن القرآن بالقراءة والإقراء، والتلاوة، والترتيب، وتحريك اللسان، وكون الكلام عربيًّا، وكل ذلك من عوارض الألفاظ لا المعاني، فالقرآن إذن صريح في أنه لا صنعة للنبي، ولا لأحد من الخلق في هذا القرآن، وإنما هو مُنزَّل من عند الله بلفظه ومعناه، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ.

الوجه الثاني: فلو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضة القرآن، لكن النبي ﷺ كان يتحدَّاهم دائمًا، ويُكرِّر عليهم التحدِّي، ومع هذا لم يقدر أحد منهم على معارضته، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغًا؛ بحيث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال؛ لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيؤلفوا قرآنًا، ومن المعلوم أن الجماعة

تُبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد، فلو اجتمع مائة شاعر -مثلًا- في تأليف قصيدة؛ لكانت في جمالها وقوتها وسبكها أفضل بمراحل من شاعر واحد ألف قصيدة، مهما بلغ هذا الشاعر من البلاغة والبيان.

فإذا كان آحاد المشركين لم يستطيعوا معارضة القرآن، فلماذا لم يجتمعوا لمعارضته، ولكن هيهات، فإنه لو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل والجن ما كان لهم أن يأتوا بمثل آية منه، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

الوجه الثالث: تبرُّؤ النبي ﷺ من نسبةِ القرآن إليه ليس ادِّعاء يحتاج بينة، بل هو إقرار يُؤخذ به صاحبه، في الحقيقة إن هذه القضية لو وَجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل، أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس الدعاوى التي تحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع الإقرار الذي يُؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدوٌّ في قبوله منه، فأي مصلحة للعاقل الذي يدَّعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة. نقول: أيُّ مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخًا، على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها، فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها -أي: لو نسبها لنفسه- لما وجد من البشر أحدًا يُعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها، أو يسرقون منها ما خَفَّ حمله، وغلت قيمته، وأمنت تهمته حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم، ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب

المستعارة. أما أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأجلى ما تجود به قريحته، فهذا ما لم يلده الدهر بعد.

الوجه الرابع: لا أدلَّ على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من مخالفة القرآن للنبي ﷺ في عدة مواطن، فقد خالف القرآن في عدة مواطن رأي النبي الشخصي، وطبعه الخاص، وعاتبه على بعض الأمور كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربِّه: ((اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني))، وفي الحديث فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ((ما ترون في هؤلاء الأسارى؟)) فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ((ما ترى يا بن الخطاب؟)) قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عُقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -يُريد نسيبًا له- فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قال عمر، فلما كان من الغد جئت -أي: عمر- فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت -والقائل هو عمر: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ:

((أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، وأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

تأمل آية الأنفال المذكورة تجد فيها ظاهرة عجيبة، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أُسارى بدر، وقبول الفداء منهم، وقد بُدئت الآية بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن خُتمت بإقرارها وتطييب النفوس بها، فهل الحالة النفسية التي يصدر عنها أول الكلام يُمكن أن يصدر عنها آخر الكلام، ولما تمضِ بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم، وبين ابتسامة الرضا والاستحسان. كلا، إن هذين الخاطرين لو فُرض صدورهما عن النفس متعاقبين؛ لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، فأيُّ داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر، وتسجيله على ما فيه من تقريع علني، وتنغيص لهذه الطعمة التي يُراد جعلها حلالًا طيبًا.

إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا ذاتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده لقد أسأت، ولكني عفوت عنك، وأذنت لك.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] عن مسروق -رحمه الله- قال: كنت متكئًا عند عائشة فسألتُ عائشة هل رأى محمد ربَّه؟ فقالت: سبحان الله قد قفَّ شعري مما قلت. يا أبا عائشة ثلاثٌ من تكلم بواحدة منهنَّ فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت أي أم المؤمنين: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وفي الحديث قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله؛ فقد أعظم على الله الفرية، والله

يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] قالت أم المؤمنين عائشة: ومن زعم أنه النبي ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥].

وعن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك. قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه الآية، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكنَّ أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله- وهو يتكلم عن أدلَّة صدق النبي ﷺ، فذكر أن من بين الأدلة على ذلك مخالفة القرآن لطبع الرسول، وعتابه الشديد له في عدد من المسائل المباحة، وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يُحبه النبي ويهواه، فيخطِّئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبَّس فيه يسيرًا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقد المر حتى في أقلّ الأشياء خطرًا مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١]، ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكما في قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ

﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١: ١٠].

أرأيت لو كان هذا العتاب صادرًا عن وجدان النبي ﷺ، مُعبرًا عن ندمه، ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فعله، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهوين، ألم يكن له في السكوت عنها سترٌ على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؛ بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴾ [التكوير: ٢٤]، وقد أقرَّ بهذا الدليل بعض المستشرقين قال أحدهم: "أوحى الله إلى النبي وحيًا شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلًا غنيًّا من ذوي النفوذ، وقد نشر النبي ذلك الوحي، فلو كان محمد كاذبًا -كما يقول أغبياء النصارى بحقه- لما كان لذلك الوحي من وجود".

الوجه الخامس والسادس في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

الوجه الخامس: نسبة النبي ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالًا منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله، لو أننا افترضناه افتراضًا لما عرفنا له تعليلًا معقولًا ولا شبه معقول، اللهم إلا شيئًا واحدًا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي ما يُعينه على استصلاح الناس، باستيجاب طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة -أي: نسبة ما يقوله إلى الله- تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون لو نسبه إلى نفسه.

ونقول للرد على ذلك الافتراض: هذا قياس فاسد في ذاته وفاسد في أساسه، أما إنه فاسد في ذاته، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، ألا وهو الأحاديث النبوية، وصدر عنه الكلام المنسوب إلى الله؛ فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة في طاعته شيئًا؛ بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء؛ أي: استوجب على الناس طاعته فيما بلَّغ عن ربه، وفيما بلغ أيضًا، ولكن من ألفاظ نفسه، استوجب على الناس طاعته فيما بلغه من القرآن، واستوجب عليهم طاعته فيما بلغه من الأحاديث النبوية؛ فكانت حرمتهما في النفوس على السواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلَّا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر موافقًا لهذا الافتراض. هذا من ناحية الفساد في الذات؛ أي: فساد هذا الافتراض في ذاته.

أما من ناحية فساد هذا الافتراض من أساسه، فلأنه مبنيٌّ على افتراض باطل، ذلك الباطل هو تجويز أن يكون النبي من أولئك الذين يصلون إلى أهدافهم على قنطرة من الكذب والتمويه، وهذا أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبَّع سيرة النبي ﷺ في حركاته، وسكناته، وعباراته، وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته، لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن الكذب، وأن ذلك كان أخصَّ شمائله؛ أي أن الصدق كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، شهد بذلك أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا. وقد سبق معنا في الدروس السابقة أن النبي ﷺ شهد بصدقه الصديق والعدو، وشهد بصدقه من عاشره، ومن رآه لأول وهلة، ومن سمع به وبأخباره.

الوجه السادس: في بعض المواقف المذكورة في سيرة النبي ﷺ تكون حاجة النبي ﷺ للقرآن شديدة، بل لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تُحفِّزه إلى القول،

وكانت حاجته القصوى تُلحّ عليه أن يتكلم ؛ بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالًا ومجالًا ، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ، ولا يجد في شأنها قرآنًا يقرؤه على الناس ، ومع هذا لم يتقوَّله ، ولم ينزل عليه شيء ، وهذا يدل على صدق النبي ﷺ ؛ إذ الكاذب لا يتأخر في افتراء الكذب عند الحاجة الماسَّة إليه ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك.

عن ابن عباس } قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله : فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا النضر وعقبة حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم ؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاثة أشياء نأمركم بهنَّ ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقوِّل ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عَجَب ، وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوِّل ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها ، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا ، فسألوه عما سمعوه من اليهود ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((أخبركم غدًا عما سألتم عنه)) ، ولم يستثنِ ﷺ أي : لم يقل إن شاء الله ، أو إلا أن يشاء الله ، فانصرفوا عنه.

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل # ؛ حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمدٌ غدًا، واليوم هو الخامس عشر أصبحنا فيها لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه؛ حتى حزن بسبب تأخُّر الوحي عن النبي ﷺ، وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل # من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبة للنبي ﷺ على حزنه على عدم إيمان قومه، وفيها خبر عما سألوه من أمر الفتية، ومن أمر الرجل الطوَّاف، وعن قول الله ﷻ في الروح قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

كذلك من ضمن الأمثلة التي تُدلِّل على ذلك الوحي فترة الوحي في حادثة الإفك نقول: ألم يُرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوج النبي ﷺ أم المؤمنين عائشة، وأبطأ الوحي، وطال الأمر، والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: ((إني لا أعلم عنها إلا خيرًا))، ثم إنه بعد بذل جهده في التحرِّي، والسؤال، واستشارة الأصحاب، ومضي شهر بأكمله، والكل يقولون: "ما علمنا عليها من سوء" لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: ((يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسوف يُبرِّئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله)).

هذا كلامه ﷺ بوحي ضميره، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وهو كلام الصادق المتثبِّت، الذي لا يظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر ﷺ مكانه بعد أن قال هذه الكلمات؛ حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءة أم المؤمنين عائشة، ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها، وطهارتها. فماذا كان يمنعه لو أن أمر القرآن إليه نقول: ماذا كان يمنعه أن يتقوَّل هذه الكلمات الحاسمة من قبل؛ ليحمي بها عرضه، ويذُبَّ بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي

السماوي ؛ لتنقطع ألسنة المتخرصين ، ولكنه ﷺ ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧].

كذلك من الأدلة التي تدل على ذلك الوجه أن النبي ﷺ كان يتحرَّق شوقًا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة ، وظل يُقلِّب وجهه في السماء ستة عشر شهرًا ، أو سبعة عشر شهرًا لعلَّ الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام ، ولكن ربَّ القرآن لم يُنزل في هذا التحويل قرآنًا على الرغم من تلهف الرسول إلى ذلك التحويل ، إلا أن القرآن لم ينزل إلا بعد قرابة عام ونصف العام.

فعن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر ، أو سبعة عشر شهرًا ، وكان رسول الله ﷺ يُحب أن يوجَّه إلى الكعبة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، فتوجه النبي نحو الكعبة.

فلو كان الوحي من تأليف النبي ﷺ لما تأخَّر كل هذه المدة لشيء يحبه ، ويشتهيه ، ويتشوف إليه ، ويتحرك شوقًا له ، ولكنه وحي الله ، وحي الله الذي لا ينزل إلا بأمر الله ، وحي الله الذي لا ينزل إلا بإذن الله.

تابع الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول :	الوجه السابع والثامن والتاسع في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي	١٥٧
العنـــصر الثـــاني :	الوجوه من العاشر إلى الثالث عشر في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي	١٦٠
العنـــصر الثـالـــث :	ادعاء أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره	١٧٠

الوجه السابع والثامن والتاسع في الرد على ادعاء أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

هذا الوجه هو: توقف الرسول ﷺ أحيانًا في فهم مغزى بعض نصوص الوحي حتى يأتيه البيان من الله تعالى.

وأفصل هذا الوجه فأقول: لقد كان الأمر يأتي إلى النبي ﷺ أحيانًا بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبينه هو، ولا أصحابه، لا يستبينون تأويله وتفسيره حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد ذلك، وهنا نقول لكل عاقل: قل لي بربك أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا، وهو لا يفهم معناه؟ وكيف تأمره أمرًا، وهو لا يعقل حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أن النبي ناقلٌ لا قائل؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أن النبي مأمور لا آمر؟ ومن أمثلة ذلك: موقفه ﷺ في قضية المحاسبة على النيات.

لقد نزل قوله ﷻ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فلما نزلت هذه الآية أزعجت الصحابة إزعاجًا شديدًا، وداخل قلوبهم منها شيء؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا: يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية، ولا نطيقها، فقال لهم النبي ﷺ: ((أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير)).

فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهنالك علم الصحابة أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من أعمال القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة، والعزائم المستقرة لا من الخواطر، أو الأماني الجارية على النفس بغير اختيار.

وموضع الشاهد هنا أن النبي ﷺ لو كان يعلم تأويل الآية، أو تفسير الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] لو كان يعلم التأويل، أو التفسير من أول الأمر لبين لهم خطأهم، ولأذهب عنهم سبب انزعاجهم، وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن ليتركهم لهذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم، وهو بهم رءوف رحيم ﷺ ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها.

ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان، وكذلك لأمر ما وضع الحق سبحانه وتعالى حرف التراخي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

الوجه الثامن: إخباره ﷺ في القرآن بأمور تحصل بعد موته، وإخباره بعلوم لم تكن في عصره.

وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت.

ولنفرض أن النبي ﷺ استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علمًا؟ فهو يخبر بأمور فلكية، وأخرى طبية، وثالثة جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه كل هذا، وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم بعد ذلك لا يأتي الواقع إلا مطابقًا لما قال ﷺ، ولا يأتي العلم -بالرغم من التقدم الكبير- لا يأتي إلا بتأكيد كلامه ﷺ، ولا يأتي إلا بتأييد آرائه ﷺ.

وإننا نتساءل سؤالا منطقيًّا معقولًا بدهيًّا نقول: أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه؟ بلى إنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر، والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية.

قال أحدهم في ضمن شهادته التي يشهد بها للإسلام، والقرآن، والنبي العدنان ﷺ قال: "كيف استطاع محمد الرجل الأمي، الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ.

الوجه التاسع: هو منهج النبي ﷺ في تلقي النص القرآني في بداية نزول الوحي.

أفصل هذا الوجه: لقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي، كان النبي يتلقفه متعجلًا، فيحرك به لسانه، وشفتيه طلبًا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفًا من عادته في تحضير كلامه لا قبل دعواه النبوة، ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب.

فلو كان القرآن منبجسًا من معين نفسه ﷺ لكان على عادته، ولما احتاج إلى تحضير، ولما كان متلهفًا متعجلًا في تلقفه، ولجرى على سنته في الكلام، وفي كلام العرب، ولكان له من الروية، والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي، وتمحيص الفكرة.

ولكنه ﷺ كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيًّا، ويلم به سريعًا بحيث لا تجدي الروية شيئًا في اجتلابه لو طلبه بعد ذلك، ولا تجدي الروية شيئًا في تداركه، واستذكاره لو ضاع منه شيء، وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفيًّا؛ لكي يبلغه إلى أصحابه، فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة، التي لم يألفها من نفسه لا بد أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية حتى ضمن الله

لـه حفظـه، وبيانـه لقولـه تعـالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩]، وقال تعـالى في موضـع آخـر: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن، وهـي شـواهد ناطقة بـصدقه في أن القـرآن لم يصدر عن نفسه، بل ورد إليه ﷺ.

وهي شواهد ناطقة بأن هذا القرآن لم يفض عن قلب النبي، بل أفيض على قلب النبي من عند ربه العلي ﷻ بواسطة أمين الوحي جبريل # .

وبـذلك نكـون قـد أنهينـا الوجـه التاسـع مـن الوجـوه، الـتي نـرد بهـا علـى هـذه الدعوى.

الوجوه من العاشر إلى الثالث عشر في الرد على ادعاء أن القرآن من تـأليف الـنبي ﷺ

الوجه العاشر: ألـيس يكفـي للحكـم ببراءة الإنسان مـن عمـل مـن الأعمـال. أن يقوم من الطبيعة شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟

فلينظر العاقل هل كان هذا النبي الأمي أهلًا بمقتضى وسـائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟

سيقول الجهلاء من الملحدين: نعـم، فقـد كـان لـه مـن ذكائـه الفطـري، وبـصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق، والباطل مـن الآراء، ومـا يؤهلـه لإدراك الحـسن، والقبيح من الأخلاق، وما يؤهله لإدراك الخير، والشر من الأفعال، حتـى لـو أن شيئًا في السماء تناله الفراسة، أو تلهمه الفطرة، أو توحي به الفكرة لتناولـه الـنبي بفطرته السليمة، وعقله الكامل، وتأملاته الصادقة.

هكذا يقولون، وبهذا يدعون، وهنا نتساءل: هل كل ما في القرآن هو مما يستنبطه العقل والتفكير؟ هل كل ما في القرآن هو مما يدركه الوجدان والشعور؟ كلا، فطبيعة المعاني القرآنية ليست كلها مما يدرك بالذكاء، وصدق الفراسة؛ لأن منها أنباء الماضي، والحقائق الدينية الغيبية، وأنباء المستقبل.

وكل هذه الأمور لا تأتي لا بالفراسة، ولا بالفطرة، ولا بالفكرة بل لا بد فيها من تعليم، وتلقين، ووحي، وإخبار، ونتناول تلك الأمور بالتفصيل فيما يلي:

أولًا: أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي، والدراسة، وأفصل في ذلك، فأقول: في القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء، والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة، والتلقي، والتعلم، فماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق؟ وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع، أيقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضًا بإعمال الفكر، ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى، فيقولون: إن محمدًا قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها، فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان؟ أو أنه ورث كتب الأولين، وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟

إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك؛ لأنهم معترفين مع العالم كله بأنه ﷺ لم يكن من أولئك، ولا من هؤلاء، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ

﴿ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

لا نقول: إن العلم بأسماء بعض الأنبياء، وبأسماء الأمم الماضية، وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد، وثمود، وطوفان نوح، وأشباه ذلك.

لا نقول: إن ذلك لم يصل إلى الأميين، فإن هذه المعلومات اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو، أو الحضر؛ لأنها مما توارثته الأجيال، وسارت به الأمثال.

وإنما كلامنا في التفاصيل الدقيقة، والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين.

وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن، فنرى مثلًا في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥]، وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنون الشمسية، والقمرية.

فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب، ولا تحسب. نعم إنها لعجيبة حقًّا رجل أمي بين قوم أميين يحضر مشاهدهم، ويعيش معيشتهم مشغولًا برزق نفسه، وزوجه، وأولاده راعيًا بالأجر لا صلة له بالعلم والعلماء، يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم، أفي مثل هذا يقول القائلون: إنه استوحى عقله، واستلهم ضميره فألف ذلك الكلام؟!

أي منطق يسوغ أن يكون هذا نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية للنبي ﷺ؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال سر آخر يلتمس خارجًا عن حدود نفس النبي ﷺ وعن دائرة معلوماته القديمة. إنه الوحي إنه خبر السماء الذي يأتيه من الله ﷻ. كذلك إذا انتقلنا إلى الكلام على الحقائق الدينية الغيبية، فكلنا يعلم أن الحقائق الغيبية لا سبيل للعقل إليها في حال من الأحوال.

إن غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل في أمر الدين ؛ هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبَّره، ولم يخلقه باطلًا، بل وضعه على مقتضى الحكمة، والعدالة، ولا بد، وأن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف عند هذه المرحلة، ولا ينتهي عند هذا الحد، بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، ويصف النار وألوان عذابها كأنهما رأي عين حتى إنه ليحصي عدد أبواب النار، ويحصي عدد الملائكة الموكلة بتلك الأبواب.

فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل البتة، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخييل، وإما حق فلا يكون إلا بالتعليم، والتلقين إنه الحق الذي شهدت به الكتب، واستيقنه أهلها قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

بعدما تكلمنا عن أخبار الأمم الماضية، وعن الحقائق الدينية الغيبية نتكلم عن أنباء المستقبل، فإن أنباء المستقبل قد تستنبط بالمقايسة الظنية -أي: بالقياس- لكنها لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق، وأفصل في ذلك، فأقول: هل تعرف كيف يحكم ذو العقل الكامل في النبوءات الغيبية؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا. يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة جاعلًا الشاهد من هذه مقياسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمًا محاطًا بكل تحفظ وحذر قائلًا: ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو صارت الأمور على طبيعتها، ولم يقع ما ليس في الحسبان، أما إن يبت الحكم بتًّا، وأن يحدده تحديدًا حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية.

فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين: إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه: صدق، أو كذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرافين، والمنجمين.

وإما رجل اتخذ عند الله عهدًا، فلن يخلف الله عهده، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلًا روى أخباره عن واحد منهما.

فأي الرجلين تراه في مبلغ هذا القرآن؟ حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام، وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطًا من الصدق، والكذب، والصواب، والخطأ.

بل كان ﷺ مع براءته من علم الغيب، وقعوده عن طلبه، وتكلفه كان يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر، وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفًا واحدًا مما ينبئ به ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

ولنسرد هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية ؛ لنرى هل كانت مقدماتها القريبة ، أو البعيدة حاضرة.

فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة ، والألمعية ، والذكاء أم لا ، نقول : ما ورد مثلًا في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه ، وصيانته قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧]، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤، ٢٥]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]، أتعلم متى ، وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة بل العهود الوثيقة؟

إنها آيات مكية من سور مكية ، وأنت تعرف كيف كان أمر الدعوة المحمدية في مكة عشر سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع للقرآن وصد لغيرهم عن الإصغاء له ، واضطهاد ، وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت بالنبي ، ثم مقاطعة له ، ولعشيرته ، ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة.

ثم مؤامرات سرية ، أو علنية على قتل النبي ، أو نفيه ﷺ فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك الذي طوله عشرة أعوام ، هل للمرء أن يلمح في ثنايا ذلك شعاعًا ، ولو ضئيلًا من الرجاء أن يتنفس الصبح عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم ، وإعلان دعوتهم؟

ولو شاء المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه ، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربو الأمل في نفسه حتى يصير حكمًا قاطعًا؟

وهبه قد امتلأ رجاءً بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه ، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة؟ ومن يتكفل له بحماية هذه الدعوة وسط أمواج

المستقبل العاتية؟ وكيف يأتيه اليقين في ذلك، وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح، فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح، وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت، ودرست آثارها، وكم من نبي قتل، وكم من كتاب فقد، أو انتقص، أو بدل، وهل كان النبي ﷺ هل كان ممن تستخفه الآمال، فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيًّا يوحى إليه قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦]، ولا كان بعد نبوته ﷺ يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظًا لديه قال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٦، ٨٧].

فلا بد إذن من كفيل؛ لا بد من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفس النبي ﷺ، فمن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ من الذي يملك هذا الضمان إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها؟ والذي قدر مبدأها، ومنتهاها، والذي أحاط علمًا بمجراها ومرساها، فلولا فضل الله، ورحمته لما استطاع القرآن أن يقاوم الحروب العنيفة التي أقيمت، ولا تزال تقام عليه بين حين، وآخر.

سل التاريخ كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام؟ سل التاريخ كم مرة تسلط الفجار على المسلمين؟ فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أممًا منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد، وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلًّا، أو بعضًا كما فعل بالكتب قبله، لولا أن يد العناية تحرسه، فبقي القرآن في وسط هذه المعامع رافعًا راياته، وأعلامه حافظًا آياته، وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية، كم من القناطير المقنطرة من الذهب، والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا

القرآن؟ وصد الناس عن الإسلام بالتضليل، والبهتان، والخداع، والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك، إلا بما أخبر به الحق ﷻ في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا؛ ذلك بأن الله هو الذي أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، والله بالغ أمره، ومتم نوره فظهر القرآن، وسيبقى ظاهرًا لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله.

وبذلك نكون قد أنهينا الكلام على الوجه العاشر من الوجوه التي يرد بها على من يقول: إن القرآن من تأليف النبي ﷺ.

الوجه الحادي عشر: لماذا يستبعد المستشرقون إمكانية نزول الوحي على النبي ﷺ عن طريق جبريل؟ مع أن كثيرًا منهم يسلمون بأبعد من ذلك، فإن المستشرقين يؤمنون إيمانًا كاملًا بأن موسى # قد تلقى التوراة من الله -تعالى- مباشرة من غير واسطة.

الوجه الثاني عشر: انظر إلى هذا التناقض، فتارة يصفون النبي ﷺ بأنه عبقري، وتارة يصفونه بأنه فنان موهوب، وتارة يصفونه بأنه ملهم استطاع بذكائه الشديد أن يصنع هذا الدين، وأن يؤلف هذا القرآن، وتارة يقولون: هو مجنون، وتارة يقولون: مصروع، وتارة يقولون: مهووس.

ألا ترى كيف أوقعهم بغضهم في الحق، أو بغضهم للحق، ألم تر كيف أوقعهم هذا البغض في هذه الأمور المضحكة المتناقضة؟

وتأمل كيف استطاعت السيدة خديجة > بفطرتها البسيطة. أن تعرف أن ما يأتي به النبي ﷺ وأن ما يتنزل على النبي ﷺ ليس شيطانًا، ولا جنونًا، ولا

هوسًا حين قالت له في الحديث الصحيح: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

فما أبعد هذا الكمال الإنساني عن الهوس، الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة، وأفعالًا منكرة ينبو عنها الذوق السليم؛ لذلك، فإن بعضهم لا يملك نفسه عندما يقرأ سيرة النبي ﷺ، وما يأمر به النبي ﷺ، فيسلم تسليمًا مباشرًا بنبوة النبي ﷺ.

وعلى سبيل المثال: أذكر كلام توماس كارليل الذي يقول في شهادته للنبي ﷺ: "هل رأيتم قط رجلًا كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجيبًا، إن الكاذب لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب".

ويقول في موطن آخر: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في ذلك العصر أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خداع مزور، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل، ما زالت السراج المنير قرونًا من الزمان لمئات الملايين من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة أكذوبة، وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إذن إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث كان الأولى ألا تخلق".

الوجه الثالث عشر: يتمثل في أوقات نزول القرآن، وأفصل ذلك فأقول: ليس للنبي ﷺ اختيار فيما ينزل، ومتى ينزل؛ فقد يأتيه الوحي، وهو في الفراش مع أهله، وقد يأتيه الوحي وهو نائم في فراشه، وقد يأتيه الوحي وهو مع أصحابه،

أو وهو يمشي في الطريق، وقد يتتابع الوحي حتى يشعر بكثرته عليه، وقد يفتر عنه الوحي، أي: يتأخر عنه الوحي حتى يشتاق إليه، بل قد يمرض ﷺ من تأخر الوحي عليه.

وفيما يلي بعض النصوص من السنة التي تبين بعض هذه الأحوال:

فعن عائشة > أن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر: فيه أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ، وفي الحديث، فقال النبي ﷺ لإحدى نسائه: ((لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة)).

وعن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: ((أنزلت علي آنفًا سورة))، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

ففي هذا الحديث رأينا أن الوحي نزل على النبي ﷺ وهو موجود مع أصحابه.

وفي الحديث السابق رأينا النبي ﷺ يقول لإحدى نسائه: ((لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني، وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة)). مما يدلل على أن الوحي، كان ينزل على النبي ﷺ، وهو مع أهله.

كذلك عن ابن عباس } قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ((ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟)) قال: فنزل قوله ﷻ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ [مريم: ٦٤].

وعن جندب بن سفيان قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ فاشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثًا.

فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قد قربك منذ ليلتين، أو ثلاثة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

وبعد هذه الوجوه التي نرد بها على من يدعي أن القرآن من تأليف النبي ﷺ نقول: كل هذه الوجوه السابقة تدل على أن القرآن ليس من تأليف النبي ﷺ، وإن كان بعض هذه الوجوه كافيًا في التدليل على ذلك، إلا أنني أردت أن أسرد أكبر عدد من الوجوه، والأدلة المنطقية، والعقلية، والبدهية حتى لا يكون لمعترض حجة، فلله الحمد، والمنة.

ادعاء أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره

بعد بيان الجواب الكافي، والرد الوافي على من يشكك في مصدر القرآن، ويقول بأن القرآن من تأليف النبي ﷺ ننتقل إلى الطرف الآخر في هذه الدعوى الرئيسة ألا وهو الرد على من يقول: إن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره.

فنقف أولًا مع عرض لهذه الدعوى، ثم نقف ثانيًا للرد والجواب على تلك الدعوى.

أولًا: عرض هذه الدعوى؛ دعوى أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره:

يقرر بعض المشككين، أو الطاعنين أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ ولكنه أيضًا ليس من عند الله، بل هو مما نقله النبي من غيره.

وقد قال ذلك مشركو مكة قالوا: إنه قد تعلمه من غلام نصراني، فقال تعالى في الرد على هذه الدعوى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وهذا الغي قد يكون من أهل الكتاب، وقد يكون من غيرهم، وقد ألفت في هذا الطعن مؤلفات استشراقية كثيرة منها على سبيل المثال: كتاب (عناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدينية) للمستشرق المجري برنت هيلر، وكذلك كتاب (الكلمات الأجنبية في القرآن) رسالة دكتوراه للمستشرق الألماني فرانكاي، وكتاب (مراجع القرآن، وعلومه) للمستشرق الألماني برتزل، وكتاب (مصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء) لسيدر سكاي، وكتاب (مصادر القصص الكتابي في القرآن) لمؤلفه اسباير.

فهذه الكتب ألفت في هذا الطعن فقط، وهناك كتب أخرى ذكر هذا الطعن في أثنائها منها مثلًا: دائرة المعارف الإسلامية حيث يقولون: "إنه ليس في سورة الفاتحة أي شيء إسلامي، بل على العكس فيها ألفاظ يهودية، ونصرانية".

وفي دائرة المعارف أيضًا قالوا: "القرآن عبارة عما كان عند الكهان بدليل وجود السجع، والقسم بالطبيعة".

ويقول جولد تسيهر: "إن القرآن ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف، وآراء دينية عرفها واستقاها محمد بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه، لقد تأثر بهذه الأفكار تأثرًا وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًّا".

ويزعم المبشر نلسون: "أن الإسلام مقلد، وأن أحسن ما فيه مأخوذ من النصرانية، وسائر ما فيه مأخوذ من الوثنية".

وحكى الكونت هنري دكاستري في كتابه (الإسلام؛ سوانح وخواطر) حكى عن أحد المبشرين قوله: "إن الرسول كان يقرأ، ويكتب فقرأ التوراة، وقرأ الإنجيل، وأخذ تعاليمه منهما".

كان هذا عرضًا مجملًا لتلك الدعوى، التي يدعون فيها أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره.

ولا بد بعد عرض هذه الدعوى لا بد من بيان الجواب الكافي، والرد الشافي على تلك الدعوى.

الرد على ادعاء أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول	:	تابع ادعاء أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره	١٧٥
العنـــصر الثـــاني	:	الوجوه من الأول إلى التاسع في الرد على من زعم أن النبي قد نقل القرآن من غيره	١٧٧
العنـــصر الثالــث	:	الوجوه من العاشر إلى الحادي عشر في الرد على من زعم أن النبي قد نقل القرآن من غيره	١٨٢

تابع ادعاء أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره

يقرر بعض المشككين، أو الطاعنين: أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ ولكنهم يقولون أيضًا: إنه ليس من عند الله، بل هو مما نقله النبي ﷺ عن غيره.

وقد قال بهذه الدعوى مشركو مكة قالوا: إنه تعلمه من غلام نصراني، ولقد حكى الله ﷻ قولهم في كتابه.

ويقول بلاشير: "كان أسلوب النبي في القرآن أول عهده بالدعوة مفعمًا بالعواطف، قصير العبارات فخم الصورة، يقدم أوصاف العقاب، والثواب في ألوان صارخة، وكثيرًا ما يكرر الآيات تكرارًا مملًّا حتى تنقلب معانيها إلى الضد، فلما تقدم الزمن بالنبي ﷺ فقد الأسلوب منهجه الأول، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء، مثلما تراه في قصة حب يوسف.

وكانت هذه السورة مثيرةً لخيال كثير من شعراء الفرس، والترك، وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة، وكل فن، وأصبح مغرمًا بالجدل الديني مع اليهود، والنصارى".

وقال الحداد: "إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهوديةً، والقرآن نسخةٌ عربيةٌ من الكتب السماوية السابقة، المنزلة على الأنبياء السابقين، ومقتبس منها، والقرآن كتاب توراتي إنجيلي في موضوعه، ومصادره، وقصصه، وجدله، وكان محمد متأثرًا إلى أبعد الحدود باليهود، والنصارى، وكان متأثرًا باليهودية، والنصرانية، والتوراة، والإنجيل حتى كأنه واحد منهم، وذلك مع غلبة المسحة المسيحية".

وقال أيضًا -أي الحداد-: "والسر الكبير في ثقافة محمد الكتابية، والإنجيلية وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة في جوار النبي، وهو الذي زوجه ابنة عمه، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر، وكان يترجم التوراة، والإنجيل إلى العربية، فهو إذن عالم مسيحي كبير، وقد عاش محمدٌ في جواره خمسة عشر عامًا قبل مبعثه، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله؛ لكي يأخذ عنه شيئًا من علوم التوراة، والإنجيل".

ويضيف قائلًا: "وينص (صحيح البخاري) على أن ورقة هو الذي ثبت محمدًا في دعوته، وبعثته لما عاد خائفًا من غار حراء، وعلى أن الوحي فتر لما توفي ورقة، وحاول محمد الانتحار مرارًا لفقده أي: لفقد الوحي، وفتوره، ونجد في المدينة في معية النبي حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت، أو سايرت الإسلام.

نجد بلالًا الحبشي مؤذن النبي، وصهيبًا الرومي المسيحي الثري، وسلمان الفارسي المسيحي الأصل، وعبد الله بن سلام اليهودي الوحيد، الذي أسلم في المدينة مع كعب الأحبار، وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة سوى التوراة، والإنجيل، إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبي، والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها، وذلك بمعزل عن الوحي والتنزيل.

وقد ذهب إلى أبعد من ذلك المستشرق كليمن حيث كتب فصلًا زعم فيه أنه اكتشف مصدرًا جديدًا للقرآن، فيا ترى ما هو ذلك المصدر؟ إنه ادعى أن مصدر القرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت.

وقد أورد توسدال نفس هذه الدعوى السابقة، وقال: "إن من مصادره أي: من مصادر القرآن شعر امرئ القيس حيث قال -يقصد امرئ القيس- قال:

دنت الساعة، وانشق القمر ❖ عن غزال صاد قلبي، ونفر

ولو أردنا أن نجمع أقوال كل من تكلم لطال بنا المقام، ولكن ما سبق يكفي في استحضار هذه الدعوى، التي يرددها الطاعنون تجاه القرآن.

الوجوه من الأول إلى التاسع في الرد على من زعم أن النبي قد نقل القرآن من غيره

وبعد عرض هذه الدعوى، وبعد بيان قبس من كلام هؤلاء الطاعنين، ننتقل بإذن الله، وحوله، وقوته إلى الكلام على الإجابة، والرد على هذه الدعوى، فالله المستعان.

نقول: الرد على من زعم أن النبي قد نقل القرآن من غيره، أو اقتبس القرآن من غيره، سيكون الرد من عدة وجوه:

الوجه الأول: لقد تكفل الله ﷻ بالرد على هذه الشبهة كما يلي:

إن القرآن يمكن أن يأتي إلى النبي ﷺ عن طريق من أربعة طرق: إما أن يأتي القرآن إلى النبي ﷺ من عند نفسه؛ أي: من تأليف نفسه، أو أن يأتي القرآن إلى النبي ﷺ من عند شخص آخر عن طريق النقل أو الاقتباس، أو أن يأتي القرآن إلى النبي ﷺ من كتاب بأن يتعلمه النبي ﷺ من كتاب من الكتب السابقة، أو أن يأتي القرآن للنبي ﷺ من عند الله ﷻ.

أما الطريق الأول: بأن يكون القرآن قد أتى إلى النبي ﷺ من عند نفسه، وتأليفه، فقد تقدم معنا الرد على هذه الدعوى في الدرس الماضي.

أما أن يكون القرآن قد أتى للنبي ﷺ من عند شخص ما بمعنى أنه نقل إلى النبي من غيره، أو نقله النبي من غيره، أو اقتبسه النبي من غيره؛ فهاهنا سؤال يحتاج

إلى إجابة نقول: من هو هذا الشخص الذي نقل منه النبي القرآن؟ أكثر الطاعنين على أنهم نصارى أو يهود؛ إلا أن الله ﷻ قد رد عليهم بأن لسان أولئك القوم، ولغتهم أعجمية، ولكن لغة هذا القرآن عربي مبين، فكيف للأعجمي أن يأتي بأعلى درجات الفصاحة، وذروة البلاغة في اللغة العربية؟ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

أما من يقول: إن النبي ﷺ قد نقل القرآن من كتاب، أو اقتبس القرآن من كتاب، فنقول له: إن النبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، إنه أمي ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

بعد انتفاء الاحتمالات السابقة لم يبق إلا أن نقول: إن القرآن من عند الله تعالى.

الوجه الثاني: العهد القديم لم يكن مترجماً إلى اللغة العربية قبل الإسلام، وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم.

فهذا بوتين يقول عن صحائف اليهود: "إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية، وقد أشارت (الموسوعة البريطانية) إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام.

وأشارت كذلك إلى أن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية، إذن كيف للنبي ﷺ كيف له أن يأخذ من هذه الصحائف؟ لا بد إذن على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ قد درس لغة التوراة، فكان يترجمها للقرآن، وهذا الافتراض لا يخفى ما فيه من السخف والهراء.

الوجه الثالث: من لطائف الاستدلال على أن النبي ﷺ لم ينقل القرآن من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول دلالته على إعجاز القرآن، وأنه من الله -تعالى؛ لأن نزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع الدعوى القائلة: "بأن القرآن أساطير الأولين، أو من كتب السابقين".

فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره أي: لو كان النبي ﷺ ينقل القرآن من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة، ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل، بل يسأله الرجل، فيعطيه الجواب الموافق للصواب الذي لم يكن قرأه، ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها الوحي.

الوجه الرابع: إن من أوضح الأدلة على رد تلك الدعوى دعوى نقل النبي ﷺ القرآن من غيره.

إن من أوضح الأدلة على بطلان تلك الدعوى التحدي أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن، وقد تقدم تفصيل ذلك في الدروس الأولى لهذه المادة.

الوجه الخامس: لو كان القرآن مأخوذًا من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة لما استطاع محمد ﷺ أن يتحدى الناس.

ويقدم على هذا الخطأ الفادح؛ لأن هذه الأصول المنقولة عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس إذن بشيء موجود؟

ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه، والعمل مثل عمله، فينكشف أمر النبي ﷺ.

الوجه السادس: هذه الأساطير، والمراجع ليست خاصة بالنبي محمد ﷺ بل هي كتب متداولة بيد الجميع.

فنقول لهؤلاء الطاعنين: لماذا لا تحضرون لنا هذه الكتب التي نقل منها النبي ﷺ كما تدعون؟

الوجه السابع: افتراض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام، ويهود المدينة، وغيرهم لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله ﷺ في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم أولئك الذين عاصروه، وعرفوا أخباره، وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات، ورحلات.

الوجه الثامن: وجود بعض الشرائع في القرآن التي تتفق مع ما في التوراة، والإنجيل، أو حتى ما عند العرب ليس دليلًا على أنه مأخوذ منها.

فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء، هذه قاعدة مهمة أعيدها مرة أخرى، فأقول: القرآن لم يأت لهدم كل شيء بل جاء القرآن لتصحيح الخطأ، وإقرار الحق.

فالصدق، والشجاعة، والكرم، والحلم، والرحمة، والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة، ومع هذا جاء الإسلام، ولم يغير منها شيئًا بل باركها، وحث عليها لذلك قال النبي ﷺ: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))، ولم يقل: لأنشئها بل قال: ((لأتمم صالح الأخلاق)).

إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كل الوضع، الذي كانت الإنسانية عليه قبل حتى يثبت صحة نفسه؛ فمن الطبعي أن يقر القرآن بعض الشرائع سواء في الكتب السماوية السابقة، أو في عادات الناس، وأعرافهم، أما الخطأ، فإن القرآن لا يقره، وقد نص القرآن على هذا المعنى في

مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧].

الوجه التاسع: كيف يمكن اعتبار التوراة، والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن قد خالفهما في كثير من الأشياء.

ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية، ونجد القرآن يتمسك بهذه الحقائق بإصرار تلك الحقائق، التي يخالف فيها التوراة، والإنجيل في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل تفاديًا للاصطدام بالتوراة والإنجيل، وعلى سبيل المثال، ففي قصة موسى # يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون مع أن (سفر الخروج) يؤكد أن التي كفلت موسى هي ابنة فرعون.

كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق. لا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه كل ذلك في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم.

ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل؛ حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون. إلى غير ذلك من الأمثلة التي نجد فيها المخالفة ظاهرة بين ما ذكره القرآن، وما جاء ذكره في التوراة والإنجيل.

فكيف، والحالة كذلك؟ كيف ندعي بأن القرآن منقول عن التوراة والإنجيل، أو مقتبس من التوراة والإنجيل؟

هل يكون هذا الادعاء بعد بيان هذا الوجه هل يكون ادعاءً مقبولًا؟ هل يكون ادعاءً منطقيًّا؟ هل يكون ادعاءً معقولًا؟ كلا.

الوجوه من العاشر إلى الحادي عشر في الرد على من زعم أن النبي قد نقل القرآن من غيره

الوجه العاشر: من المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى، وعلى سبيل المثال: قصة هود، وصالح، وشعيب.

هذه القصص لم يأت لها ذكر في كتب اليهود والنصارى، والسؤال الملح الذي يفرض نفسه، ويحتاج إلى إجابة هذا السؤال يقول: كيف أتى النبي ﷺ بهذه القصص، ومن أين أتى بها إذن؟

الوجه الحادي عشر: إذا كان النبي ﷺ قد أخذ القرآن من النصارى الذين خالطهم من أمثال سلمان، وصهيب، وورقة بن نوفل، فلِمَ لَمْ يفضحوه عندما سب النصارى؟ ولِمَ لَمْ يفضحوه عندما كفر النصارى في كتابه في عدة آيات؟ حتى إن سورة المائدة، وهي من آخر السور نزولًا كانت من أكثر السور تكفيرًا للنصارى، فلِمَ لَمْ يفضحوه؟ ولِمَ لَمْ يكشفوا أمره عندما سبهم، وعندما كفرهم ﷺ في آيات القرآن؟

من هذه الآيات قوله ﷻ في سورة المائدة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٧، ١٨].

فها نحن قد رأينا في الآيتين السابقتين. رأينا القرآن يصرح بتكفير الذين قالوا بألوهية المسيح، ورأينا كذلك ادعاء اليهود، والنصارى أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله، وأحباؤه، ولكن القرآن رد عليهم ردًّا عقلانيًّا مفحمًا عندما قال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، ثم يقرر القرآن الحقيقة في أنهم خلق كبقية خلق الله يقول لهم: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

ثم يعيد التأكيد على الحقيقة التي ذكرها في الآية السابقة بأن الملك لا يكون إلا لله وحده له ﷻ ملك السموات والأرض وما بينهما ومرجع جميع الخلائق لا يكون إلا إليه ﷻ يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

فإذا انتقلنا إلى موضع آخر من المواضع التي ذكر فيها القرآن عقيدة أهل الكتاب. ننتقل إلى قوله ﷻ في سورة المائدة قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٤].

وهكذا نرى القرآن بكل صراحة يحكم بتكفير أهل الكتاب بسبب تلك العقائد التي اعتقدوها في المسيح # .

فإذا كان ذلك هو موقف القرآن من اليهود والنصارى، فكيف إذن يعقل أن يكون القرآن منقولًا عن كتب أهل الكتاب، أو مقتبسًا من كتب أهل الكتاب، أو متعلمًا من أهل الكتاب الذين عاصرهم النبي ﷺ؟

وإذا كان ذلك واردًا، فلماذا لم يفضحوه عندما كفرهم في القرآن؟

الوجه الثاني عشر: من تناقضهم في تلك الدعوى زعمهم أن النبي ﷺ قد أخذ القرآن من سلمان وصهيب النصرانيين، وأخذ القرآن من ابن سلام اليهودي، وغيرهم ممن أسلم من أهل الكتاب، وحقيقة الأمر أن إسلام هؤلاء حجة عليهم إذ لو كان النبي ﷺ قد أخذ القرآن والشريعة من أهل الكتاب، فلماذا إذن يتركون الأصل، ويذهبون إلى الفرع؟

لماذا يتركون التوراة والإنجيل، ويذهبون إلى القرآن الذي جاء به النبي ﷺ؟ ألا يقولون: إن التوراة والإنجيل هي الأصل، والقرآن هو الفرع، وهو الذي نقل من التوراة والإنجيل، أو اقتبس من التوراة والإنجيل؟

إذا كان ذلك كذلك، فلماذا يتركون الأصل، ويذهبون إلى الفرع، ويتبعون النبي ﷺ.

الوجه الثالث عشر: إذا كان النبي ﷺ قد أخذ دينه من اليهود والنصارى، وإذا كان القرآن نسخة عربيةً من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين، ومقتبسًا منها، وإذا كان القرآن كتابًا توراتيًا إنجيليًا في موضوعه، ومصادره، وقصصه، وجدله كما يقول الحداد، فلماذا إذن هذه الحرب الشعواء على القرآن؟ ولماذا هذا الطعن في كتاب مأخوذ من الإنجيل، والتوراة؟ أليس حقيقة هذا الطعن أنه طعن في الأصل المأخوذ منه أي: طعن في التوراة والإنجيل؟

أم أن هؤلاء الطاعنين علموا في قرارة أنفسهم أنه كتاب عظيم منزل من الله تعالى، وأنه ناسخ للشرائع السابقة، فهالهم هذا الأمر، وحاولوا تنفير الناس منه بأي طريق؛ فأخذوا يتكلمون بأي كلام لا لشيء إلا بغضًا لهذا الكتاب، فجرفهم الحماس حتى قالوا كلامًا طعنوا به في التوراة والإنجيل، وهم لا يشعرون.

الوجه الرابع عشر: لقد شهد المنصفون من المستشرقين بضد هذه الدعوى القائلة بأن النبي قد نقل القرآن من غيره، أو اقتبسه من غيره.

وعلى سبيل المثال يقول المستشرق الإنجليزي لايتنر: "بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباساً بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب في ذلك".

ويقول هنري دكاستري: "ثبت إذن أن محمدًا لم يقرأ كتابًا مقدسًا، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه".

الوجه الخامس عشر: احتجاج الطاعنين بقولهم: إن القسم المدني من القرآن هادئ لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسن، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة، والبرهان الساكن، ويهجر مع أعدائه الترهيب، والقسوة، ويسلك سبيل الترغيب، والتطميع في المكافأة نرد عليه بشهادة طاعن مثله ألا، وهو الحداد حيث قال: "حين استقر محمد في المدينة انقلب انقلابًا شاملًا كاملًا انقلابًا في الدعوة، وانقلابًا في الداعية الذي أصبح رجل دولة وحرب، وانقلابًا في طريق الدعوة لقتال المشركين إلى أن يؤمنوا، وقتال الكتابيين حتى يخضعوا للجزية انقلابًا في الأسلوب حيث كان بالحكمة، والموعظة الحسنة فصار بالقتال والجهاد"، فمن نصدق منهما، والحق أن أسلوب القرآن واحد، ولكنه يشتد مع الكافرين، ويتلطف مع المؤمنين.

الوجه السادس عشر: احتجاج الطاعنين بقولهم: إن النبي قد اقتبس القرآن من أهل الكتاب أمثال ورقة بن نوفل، وصهيب، وسلمان، وعبد الله بن سلام، فنرد عليهم بما يلي:

إن القارئ لكلامهم يدرك أنه قد حوى من المغالطات الشيء الكثير.

فتارة نجد كذبًا صريحًا في هذا الادعاء كقولهم: إن ورقة بن نوفل قد زوجه ابنة عمه مع أن كتب السيرة تذكر أن خديجة هي التي كانت راغبة في النبي ﷺ وأرسلت له تعرض في زواجها.

وكتب السيرة كذلك ذكرت أن الذي خطبها للنبي ﷺ هو عمه أبو طالب، فكيف لورقة أن يزوج السيدة خديجة مع وجود أعمامها الذين هم أقرب منه، وأحق منه في ولاية أمرها.

نعود إلى كلامهم الذي يقول فيه أحدهم: وقد عاش محمد في جوار ورقة خمسة عشر عامًا قبل مبعثه، ونقف مع هذه الجملة، فنقول: لم تذكر كتب السيرة أن النبي ﷺ قد التقى بورقة إلا مرة واحدة؛ فكيف يزعم أن النبي قد لازمه خمس عشرة سنة، ثم لو كان النبي ﷺ يعرف ورقة هذه المعرفة، لما احتاج إلى خديجة لتوصله إليه، ويكفي في الرد على هذا الكلام أنها دعوى لا دليل عليها.

ثم نعود إلى كلام أحدهم الذي يقول فيه: ينص (صحيح الإمام البخاري) على أن ورقة هو الذي ثبَّت محمدًا في دعوته وبعثته لما عاد خائفًا من غار حراء.

ونرد على ذلك قائلين: لقد نص الحديث الصحيح أن التي ثبتت النبي ﷺ هي أم المؤمنين خديجة < أما ورقة، فقد خوف النبي ﷺ فقال له: ليتني فيها جذعًا يا ليتني أكون فيها حيًّا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: ((أومخرجيَّ هم؟)). قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وفي رواية: إلا عُودِي.

وفيما يلي نص الحديث كما جاء في (الصحيحين)، فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حراء،

فيتحنث فيه -أي يتعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود بمثلها حتى فجئه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: ((ما أنا بقارئ))، قال: ((فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني))، فقال: اقرأ، قلت: ((ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني))، فقال: اقرأ قلت: ((ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني))، فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١-٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: ((زملوني زملوني))، فزملوه حتى ذهب عنه الروع قال لخديجة: ((أي خديجة ما لي؟ لقد خشيت على نفسي))، فأخبرها الخبر، قالت خديجة: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به حتى أتت به ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي.

فقالت خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك قال ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا -أي: شابًّا قويًّا- ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك، قال رسول الله ﷺ: ((أومخرجي هم؟)) قال ورقة: نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حيًّا أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ.

نقول: إذا كان ورقة يعرف حال النبي ﷺ وإذا كان النبي قد لازمه خمس عشرة سنة، وأخذ منه القرآن، فلماذا يقول ورقة إذن: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى؟

ولماذا يقول للنبي: إن يدركني يومك حيًّا أنصرك نصرًا مؤزرًا؟ أليس في كل هذه الجمل تصديق للنبي ﷺ وإثبات لصحة نبوته؟

أم أن الطاعنين يأخذون من الحديث ما يوافق هواهم، ويعرضون عما يكون حجة عليهم.

أما قول أحد الطاعنين نجد في المدينة في معية النبي حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت، أو سايرت الإسلام.

نرد على هذا الكلام قائلين: إن القارئ لكتب السيرة يدرك كم حوى هذا الكلام من المغالطات.

فصهيب لم يكن من الأثرياء بل كان فقيرًا معدمًا مستضعفًا، وسلمان لم يكن مسيحي الأصل بل كان مجوسيًّا، ثم تنصر ثم أسلم بعد وصية الراهب النصراني له بذلك.

وعبد الله بن سلام لم يكن الوحيد الذي أسلم من اليهود، فهناك الغلام اليهودي جار النبي ﷺ. الذي زاره النبي في مرضه، فأسلم، وهناك صفية بنت حيي بن أخطب، وغيرهم، أما كعب الأحبار، فلم يدرك النبي ﷺ بل كان من التابعين، فانظر كيف يلقي الهوى صاحبه في مهاو، ومزالق؟

الوجه السابع عشر: أما زعمهم أن من مصادر القرآن شعر أمية بن أبي الصلت، فإن الغريب في الأمر أن المستشرقين يشككون في صحة السيرة النبوية نفسها،

ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرونها مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا، فهم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة، ويغالون في هذا الموقف، وفي المقابل نجدهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من السيرة النبوية، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو هذه الأخبار دون أخبار السيرة؟

الأمر الذي يرد به على هذا الافتراء هو كذبهم في هذه الدعوى، فشعر أمية بن أبي الصلت، وشعر امرئ القيس محفوظ معروف، فلا يحتاج الأمر إلى كثير عناء لإثبات بطلان دعواهم.

وما يتعلق بما نسب إلى أمية بن أبي الصلت، فإن بعض العلماء نسبوا هذه الأبيات له، ولكن أمية أدرك الإسلام، ورأى الرسول ﷺ وسمع القرآن من النبي ﷺ في مكة، وانصرف عنه، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيما جاء به النبي ﷺ فقال أمية: أشهد أنه حق، فقالوا له -أي قريش-: هل تتبعه؟ قال -أي أمية-: حتى أنظر في رأيه، أو حتى أنظر في أمره.

ثم خرج أمية إلى الشام، ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية من الشام يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر، وفيهم ابنا خال له، فامتنع عن الإسلام، وأقام في الطائف حتى مات.

فها هو أمية قد تأثر بالقرآن، وها هو قد شهد على صحة القرآن.

هذا، وقد ذكر في ترجمته أنه كان مطلعًا على الكتب القديمة، وكان يلبس المسوح تعبدًا، وكان ممن حرموا على أنفسهم الخمر، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية.

ولو سلمنا جدلًا بأن النبي ﷺ قد أخذ هذا الموضع من أمية، فما هو المانع أن يجري الله الحق على ألسنة بعض الناس؟

وما هو المانع من أن ينزل الله القرآن موافقًا لما قالوا؟ كما حصل هذا مع الفاروق عمر، فعن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب < : وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وآية الحجاب قلت -أي عمر-: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر، والفاجر، فنزلت آية الحجاب.

واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت الآية، وقد قررنا قبل ذلك أن القرآن جاء ليقر الحق، ويصحح الخطأ.

ثم نقول لهؤلاء الطاعنين: إن العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ كانوا أعرف الناس بالشعر، وكانوا أحرص الناس على الطعن في القرآن؛ ومع هذا لم يورد أحد منهم هذا الطعن الساذج.

وبهذا نكون قد انتهينا بحمد الله وفضله ومنه من عرض الوجوه، والأدلة الشرعية، والعقلية، والمنطقية، والتاريخية التي ترد على من يدعي أن النبي ﷺ قد نقل القرآن من غيره.

الدعاوى المتعلقة بنقل القرآن وجمعه

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	دعوى ندرة الحفاظ من الصحابة {	١٩٣
العنصر الثاني	:	دعوى أن بعض الآيات القرآنية لم يحصل لها شرط التواتر	١٩٩
العنصر الثالث	:	دعوى اجتهاد الصحابة في ترتيب الآيات، والسور	٢٠٣

دعوى ندرة الحفاظ من الصحابة {

نتنقل إلى الدعاوى المتعلقة بنقل القرآن، وجمعه:

زعم الطاعنون قلة، وندرة عدد حفاظ القرآن من الصحابة { ، وذلك لمقتل بعضهم في الغزوات، والمعارك الحاسمة، وفيما يلي أبين الجواب الكافي، والرد الوافي على هذه الدعوى، والله المستعان.

الرد العلمي على هذه الدعوى:

كان العرب قبل الإسلام أمة أمية لا تقرأ، ولا تكتب، والأمي إنما يعتمد في حفظ ما يحتاج إلى حفظه على ذاكرته، فليس ثم كتاب يحفظ منه ما يريد حفظه.

وقد كان العرب يحفظون في صدورهم ما يحتاجون إلى حفظه من الأنساب، والأشعار، والخطب، قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد شرف الله ﷻ أمة الإسلام بخصيصة لم تكن لأحد من أهل الملل قبلهم، وهي أنهم يقرءون كتاب ربهم عن ظهر قلب، كما جاء في صفة هذه الأمة عن وهب بن منبه قال: "أمة أناجيلهم في صدورهم" بخلاف أهل الكتاب، فقد كانوا يقرءون كتبهم نظرًا لا عن ظهر قلب.

ولقد حفظ القرآن الكريم من الصحابة جمع كبير يصعب حصره، فقد ثبت في (الصحيحين) أنه قتل في بئر معونة سبعون من القراء، فعن أنس < قال: "جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالًا يعلمونا القرآن، والسنة فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار يقال لهم: القراء، يقرءون القرآن، ويتدارسون

بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة، وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم".

وقد قتل كذلك في وقعة اليمامة كثير من القراء، ويدل على ذلك قول عمر > : "إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن".

وقد عرف من قراء الصحابة } كثيرون منهم: الخلفاء الأربعة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبو موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد الأنصاري، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمر، وعقبة بن عامر، وعبادة بن الصامت، وغيرهم كثير، ولم يكن الحفاظ من الرجال فقط، بل لقد كان هناك حفاظ من النساء، فقد أمر النبي ﷺ أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري > أمرها أن تؤم أهل دارها، وكانت قد جمعت القرآن، وكان لها مؤذن، وكانت تؤم أهل دارها، وكثرة الحفاظ كان لها دواع كثيرة، وأسباب عديدة جعلت الصحابة } يتسابقون، ويجتهدون في حفظ القرآن، وسوف أشير إلى طرف من هذه الدواعي، والأسباب فيما يلي:

دواعي حرص الصحابة } على حفظ القرآن:

أولًا: مباشرة النبي ﷺ تعليم القرآن بنفسه، لقد باشر النبي ﷺ تعليم المسلمين القرآن بنفسه، وأمره الله ﷻ بأن يقرأه على الناس على مكث أي: تؤدة، وتمهل، وما ذلك إلا ليحفظوا لفظه، ويفقهوا معناه قال ﷻ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

عن عبد الله بن مسعود < أنه قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ، وأنزلت عليه والمرسلات، وإنا لنتلقاها من فيه)) أي: من فمه ﷺ.

وعن ابن عباس } أنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد، كما يعلمنا السورة من القرآن)). وفي رواية: ((كما يعلمنا القرآن)).

وعن جابر بن عبد الله } قال: ((كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن)).

وكان الصحابة } إذا عجز أحدهم عن تخصيص وقت؛ لتحصيل القرآن الكريم مباشرة من فم رسول الله ﷺ، أناب عنه من يحصل عنه، فعن عمر بن الخطاب < قال: "كنت أنا، وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، كنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك".

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يحفظون القرآن بمجرد سماعهم له من النبي ﷺ، فعن شقيق بن سلمة قال: "خطبنا عبد الله بن مسعود، فقال: والله لقد أخذت من فِيِّ أي: من فم رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة".

ولم يقتصر الحفظ عن طريق التلقي المباشر أي: لم يقتصر الحفظ عن طريق المشافهة على الرجال فقط، بل شمل النساء أيضًا، فهذه أم هشام بنت حارثة بن النعمان < تحفظ سورة من القرآن من فم رسول الله ﷺ.

فعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان، قالت: ((لقد كان تنورنا، وتنور رسول الله ﷺ واحدًا سنتين، أو سنة، وبعض سنة، وما أخذت ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق: ١]، إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس)).

وكان ﷺ يحرص أن يتعلم كل من التحق بدار الإسلام بالمدينة القرآن، وكان يختار لهم من يعلمهم، فعن عبادة بن الصامت > قال: ((كان رسول الله ﷺ يشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن)).

ثانيًا: من دواعي حرص الصحابة } على حفظ القرآن:

مجيء القرآن الكريم معجزًا متميزًا في نظمه، فريدًا في أسلوبه، لا يطاوله كلام البلغاء، ولا تدنو منه فصاحة الفصحاء.

وكان الصحابة } ينتظرونه بشغف، ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما كان أعداء النبي ﷺ يحرصون على سماعه، إما للبحث عن نقاط ضعف فيه تعينهم على مغالبته، أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي، ويمكننا أن نتصور مدى الاهتمام، الذي كان يثيره القرآن في نفوس المؤمنين، والكافرين على السواء.

ثالثًا: تشريع قراءة القرآن الكريم في الصلاة فرضًا كانت أم نفلًا سرًّا كانت أم جهرًا، وذلك الأمر جعلهم يحرصون على حفظ القرآن الكريم لأداء هذه العبادة.

فعن حذيفة > قال: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، ((فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، يقول: فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها ثم افتتح آل عمران، فقرأها؛ يقرأ مترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع ﷺ)).

رابعًا: أي السبب الرابع من تلك الدواعي، التي جعلت الصحابة حريصين على حفظ القرآن ارتباط القرآن الكريم بالتشريعات، فإن كثيرًا من آياته تحوي أحكامًا

في العبادات كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وتحوي أحكامًا في المعاملات كالبيع، والشراء، والدين، وتحوي أحكامًا في سائر أمور الحياة، فلابد إذًا أن يستظهروه أي يحفظوه ليعملوا بمقتضى تلك الآيات.

خامسًا: الترغيب في قراءة القرآن الكريم، وحفظه، وتعلمه، وتعليمه، وقد ورد ذلك في القرآن نفسه، وفي أحاديث رسول الله ﷺ، وهي أكثر من أن تحصى في ذلك المقام.

من تلك الآيات قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

ومن الأحاديث في ذلك المقام ما روته السيدة عائشة > قالت: قال رسول الله ﷺ: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق فله أجران)).

ومن ذلك ما رواه عثمان بن عفان > عن النبي ﷺ أنه قال: ((خيركم من تعلم القرآن، وعلمه)).

ومن ذلك أيضًا ما رواه أبو موسى الأشعري > عن النبي ﷺ أنه قال: ((تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيًا، -أي: تفلتًا- من الإبل في عقلها)).

سادسًا: سهولة حفظ القرآن الكريم، وتيسيره، فقد كان من رحمه الله على خلقه أن يسر لهم حفظ القرآن الكريم؛ ليجعل ذلك سببًا مانعًا من ضياع شيء من القرآن.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

النتيجة المترتبة على كل ما سبق نقول فيها: كان من نتيجة كل ما سبق أن كثر الحفاظ في عهد النبي ﷺ، وكانوا يعرضون على النبي القرآن، ويقرءونه عليه، فعن ابن مسعود > قال: "قال لي النبي ﷺ: ((اقرأ علي: قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: أمسك، فإذا عيناه تذرفان ﷺ)).

وكان مسجده ﷺ عامرًا بتلاوة القرآن يضج بأصوات الحفاظ، فأمرهم رسول الله ﷺ ذات مرة أن يخفضوا أصواتهم؛ لئلا يتغالطوا، وكان كل حافظ للقرآن ينشر ما حفظه، ويعلمه للأولاد، والصبيان، والذين لم يشهدوا نزول الوحي.

بل كان الرسول ﷺ يدفع كل مهاجر جديد إلى أحد الحفاظ؛ لكي يعلمه حفظ القرآن الكريم، فشاع حفظ القرآن، وانتشر بين الرجال، والنساء، وكانت المرأة المسلمة ترضى بسورة من القرآن، أو أكثر مهرًا لها.

فعن سهل بن سعد > قال: "أتت النبي ﷺ امرأة، فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله، ولرسوله ﷺ فقال -أي النبي-: ((ما لي في النساء من حاجة، فقال رجل: زوجنيها، قال: أعطها ثوبًا، قال: لا أجد قال: أعطها، ولو خاتمًا من حديد، فاعتلّ له، فقال: ما معك من القرآن؟ فقال الرجل: كذا، وكذا فقال: فقد زوجتكها بما معك من القرآن)).

وخير دليل على كثرة الحفاظ في زمن النبي ﷺ أنه قد قُتل منهم في بئر معونة، المعروفة بسرية القراء قتل منهم سبعون رجلًا، كما قتل منهم يوم اليمامة في عهد أبي بكر الصديق > سبعون قارئًا.

وقد ذكر أبو عبيد -رحمه الله- في كتابه (القراءات) عددًا كبيرًا من القراء أصحاب النبي ﷺ، فذكر كثيرًا من المهاجرين، وذكر كثيرًا من الأنصار { ، وذكر بعض أزواج النبي ﷺ.

وذكر الإمام العيني -رحمه الله- بعضا من أصحاب الرسول ﷺ، ممن جمعوا القرآن، ثم قال: "وقد ظهر من هذا أن الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لا يحصيهم أحد، ولا يضبطهم عدد".

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن دعوى الطاعنين قلة، وندرة الحفاظ من الصحابة { هي من أوهى الدعاوى، وأضعفها، وأسخفها، وقد نسف علماء المسلمين هذه الدعوى من قواعدها، وبينوا كثرة عدد الحفاظ من الصحابة { ، فلله الحمد، والمنة.

دعوى أن بعض الآيات القرآنية لم يحصل لها شرط التواتر

إنهم يدعون أن بعض الآيات القرآنية لم يحصل لها شرط التواتر، وذلك أثناء جمع القرآن، لذلك لابد وأن نقف مع تلك الدعوى نعرضها أولًا، ثم نرد عليها ردًّا شافيًا كافيًا وافيًا، وذلك فيما يلي بإذن الله، فالله المستعان، وعليه التكلان، ومنه الهداية، والتوفيق.

دعوى عدم حصول التواتر لبعض الآيات القرآنية أثناء جمع القرآن:

زعم الطاعنون عدم حصول التواتر لبعض الآيات القرآنية، أثناء جمع القرآن في عهد الصديق > مستدلين على ذلك بالأثر المتعلق بالآيتين الأخيرتين من سورة التوبة، حيث قالوا ما نصه: كيف يكون القرآن متواترًا كله مع ما يروى من

وجود بعض الآيات عند الواحد من الصحابة، فعن زيد بن ثابت أنه قال: "نسخت الصحف في المصاحف، ففقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله يقرأ بها، فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، الذي جعل رسول الله شهادته شهادة رجلين".

وحديث زيد بن ثابت، وفيه قوله: "حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري، لم أجدهما مع أحد غيره". فهل تتماشى هذه الأخبار الصحيحة مع تواتر القرآن؟

نقول في الرد العلمي على هذه الدعوى: استدل الطاعنون على هذه الدعوى بما ورد من أن الصحابة أثبتوا الآية بشهادة رجل واحد من الصحابة، وقالوا: كيف يكون القرآن كله متواترًا، مع أن زيد بن ثابت قال في أثناء ذكره لحديث الجمع في عهد الصديق > .

قال: "فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره". وقال في أثناء ذكره لكتابة المصاحف في عهد عثمان: "ففقدت آية من الأحزاب، كنت أسمع رسول الله يقرأ بها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري، الذي جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين".

فهاتان الروايتان تدلان على أنه قد اعتمد في جمع القرآن على بعض الروايات الآحادية، وهذا يخالف ما هو مقرر من أن القرآن ثابت بالتواتر.

وفي الجواب على تلك الدعوى نقول: هاتان الروايتان لا تتنافيان مع تواتر القرآن، فقد ذكرنا فيما سبق أن الاعتماد في جمع القرآن كان على حفظ الصدور، وكان غرضهم من البحث عن المكتوب زيادة الاطمئنان.

وأن ما كتبوه إنما هو عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، فقول زيد : "لم أجدهما" أي : لم أجدهما مكتوبتين ، وهذا لا ينافي أنهما كانتا محفوظتين عند جمع يثبت بهم التواتر.

التواتر إنما هو في الحفظ لا في الكتابة ، يدل على ذلك قول زيد في الرواية الثانية : "ففقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها".

وهذا يدل على أن زيدًا كان حافظًا لهذه الآية ، ومتيقنًا لقرآنيتها ، وكذلك من كانوا معه كانوا يحفظونها ، ولكن كانوا يبحثون فقط عن الأصل المكتوب. قال الإمام ابن حزم -رحمه الله- : "وأما افتقاد زيد بن ثابت الآية ، فليس ذلك على ما ظنه أهل الجهل ، وإنما معناه أنه لم يجدها مكتوبة إلا عند ذلك الرجل ، فزيد بن ثابت كان يعرف الآية ، وإلا فكيف يقول : فقدت آيةً من سورة كذا ، فالعقل يقول : إنه إن لم يكن يعرفها ، فإنه لا يدري هل فقد شيئًا أم لا ؟ فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده".

وقد قرر الإمام العلامة ابن عاشور هذا الجواب بقوله : "وقد قال أبي بن كعب : إنهما آخر ما أنزل ، فلفظهما ثابت بالإجماع ، وتواترهما حاصل إذ لم يشك فيهما أحد. فإن قيل : إن اتجه هذا الجواب ، واستقام فيما يتعلق بالآيتين الأخيرتين من سورة التوبة ، فكيف يتجه ذلك الجواب فيما يتعلق بآية الأحزاب ، فقد كانت آية الأحزاب مكتوبة في الصحف ، التي كتبت في عهد الصديق > ؟

نقول في الجواب : لعلها امحت أي : محيت ، ولعلها قد تطاير مدادها ، فلم يبق ما يدل عليها ، أو لعل الأرضة أكلت موضعها من الصحيفة ، فاضطر أن يبحث عن أصلها المكتوب ، فوجده مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ، أو نقول : لعل زيدًا كان قد نسيها ثم تذكرها لما سمعها".

وفي ذلك يقول الإمام الزركشي -رحمه الله- : "وقول زيد : لم أجدها إلا مع خزيمة ليس فيه إثبات القرآن بخبر الواحد ؛ لأن زيدًا كان قد سمعها ، وعلم موضعها في سورة الأحزاب بتعليم النبي ، وكذلك غيره من الصحابة ، ثم نسيها فلما سمعها تذكرها".

وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم ، ولو كان الأمر على ما فهمه الطاعنون ، فإننا نتساءل : أليس قد انتشرت هذه المصاحف بين الأمة لاسيما في الصدر الأول ، الذي حوى من الأكابر ما حوى؟

الجواب : بلى ، وانتشار هذه المصاحف في جيل الصحابة لا يبقي في ذهن مؤمن احتمال سقوط شيء من القرآن ، وإلا لوقع الشك في كثير من ضروريات هذا الدين.

وأختم الجواب بتقرير أن القاعدة الأساسية ، التي تهدم هذه الدعوى هي أن المعول عليه في جمع القرآن هو التواتر الحفظي لا الكتابي ، والتواتر الحفظي ثابت في كل آية من آيات القرآن بحمد الله تعالى.

وهنا قاعدتان ينبغي التنبيه إليهما في رد كل دعوى تفيد زيادة شيء في القرآن ، أو نقص شيء من القرآن ، وهاتان القاعدتان هما :

القاعدة الأولى : كل رواية آحادية لا تقبل في إثبات شيء من القرآن.

القاعدة الثانية : كل رواية آحادية تخالف المتواتر من القرآن لا تقبل ، ويضرب بها عرض الحائط.

مما سبق يتبين أن القرآن لا يوجد فيه سقط ، ولا تحريف ، وإنما أوجدته الجهالات ، وغذته الظلمات ، وأكبرته الخيالات عند الطاعنين الحاقدين ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

دعوى اجتهاد الصحابة في ترتيب الآيات، والسور

قضية ترتيب الآيات، والسور:

نريد أن نقف مع هذا الترتيب، ونتساءل هل كان ترتيب الآيات والسور باجتهاد الصحابة، كما يدعي الطاعنون، أم كان بتوقيف من النبي ﷺ؟

دعوى اجتهاد الصحابة في ترتيب الآيات، والسور:

أورد الطاعنون عدة روايات تتعلق بترتيب الآيات، والسور يدللون بهذه الروايات على تدخل الصحابة { في ترتيب آيات، وسور القرآن على حسب زعمهم.

ومما أوردوه ما أخرجه ابن أبي داود في كتاب (المصاحف)، أن الحارث بن خزيمة أتى بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة، فقال: "أشهد أني سمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما. فقال عمر: أنا أشهد لقد سمعتهما، ثم قال أي عمر: لو كانت ثلاثة آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا آخر سورة من القرآن، فألحقوها في آخرها".

نقول في الرد العلمي على هذه الدعوى: نقسم الرد إلى أمرين، أو نقسم الرد إلى قضيتين: القضية الأولى: قضية ترتيب الآيات، والقضية الثانية: قضية ترتيب السور.

أما عن قضية ترتيب الآيات:

أولًا: إن ترتيب الآيات ثبت بالتوقيف عن النبي ﷺ، فقد كان جبريل ينزل بالآيات على رسول الله ﷺ، ويرشده إلى السورة التي هي منها.

ويرشده أيضًا إلى موضع هذه الآيات في تلك السورة، وكان النبي ﷺ بعد ذلك يأمر كتبة الوحي بكتابتها، وإدراجها في الموضع الذي أرشده إليه جبريل، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

عن جبير بن نفيل أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطيتهما من كنزه، الذي تحت العرش فتعلموهن، وعلموهن نساءكم، فإنهما صلاة، وقرآن ودعاء)). ومن ذلك أيضًا ما رواه الإمام مسلم عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)).

قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: "ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالًا ما ثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة كالبقرة، وآل عمران، والنساء في حديث حذيفة، والأعراف في المغرب أي: في صلاة المغرب.

وقد أفلح في الصبح أي: قراءته ﷺ لسورة المؤمنون في صلاة الصبح، ثم قال أي: الإمام السيوطي -رحمه الله-: تدل قراءته ﷺ لها أي: لهذه السور بمشهد من الصحابة أن ترتيب آيها توقيفي.

وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبي يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر". كذلك لا بد، وأن نعلم من خلال ردنا على تلك الدعوى، لا بد أن نعلم أن الإجماع قد انعقد على أن ترتيب الآيات ثبت بالتوقيف عن النبي ﷺ.

فنقول: قد انعقد الإجماع على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة، كان بتوقيف من النبي عن الله ﷻ وأنه لا مجال للرأي، والاجتهاد في ذلك الأمر، ولم يُعلم في ذلك مخالف.

قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: "الإجماع، والنصوص مترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي، ولا شبهة في ذلك، أما الإجماع فنقله غير واحد منهم:

الزركشي في (البرهان)، وأبو جعفر بن الزبير، وعبارته يقول فيها: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ، وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين.

قال الإمام مكي بن أبي طالب: ترتيب الآيات في السور هو من النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة، أي: لما يأمرهم النبي ﷺ أن يقرءوا البسملة في أول سورة براءة تركت".

وهذا مما يدل دلالة أكيدة على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة، كان بتوقيف من النبي ﷺ، وأنه لا دخل للصحابة في شيء من ذلك على الإطلاق.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: "ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقال أيضًا أي: الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني -رحمه الله-: ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها ﷺ".

ونختم الكلام على هذه الدعوى، التي رددنا عليها فيما سبق نختم الكلام بإيراد شبهة، وردها.

نقول: لا يرد على هذا الإجماع الذي نقلناه قبل ذلك لا يرد عليه ما رواه الإمام أحمد، وابن أبي داود عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: "أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨].

أتى بهاتين الآيتين إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إلا أني أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، ووعيتها، وحفظتها.

فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، ثم قال أي: عمر: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها فوضعتها في آخر براءة".

فهذا الأثر يدل دلالة واضحة على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة كان باجتهاد من الصحابة، وللجواب على هذا الأثر، وهذه الشبهة، نقول: هذا الأثر مردود سندًا، ومتنًا، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولًا: رد الأثر من ناحية السند: هذا الأثر ضعيف من ناحية الإسناد، إذ إن في سنده محمد بن إسحاق، وهو مدلس، ولم يصرح في هذه الرواية بالتحديث، وعلى ذلك، فالرواية مردودة من ناحية السند.

ثانيًا: رد هذا الأثر من ناحية المتن، فنقول في ذلك: هذا المتن منكر إذ إنه يدل على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة كان باجتهاد من الصحابة، وهذا يعارض الإجماع الذي سبق نقله. هذا يعارض الإجماع الحاصل على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة، كان بتوقيف من النبي ﷺ، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "ظاهر هذا -أي: هذا الأثر- أنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم.

يقول الحافظ: وسائر الأخبار تدل على أنهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك إلا بتوقيف". وعليه فإن هذا المتن منكر من وجهين:

الوجه الأول: أنه معارض للقاطع، وهو ما أجمعت عليه الأمة، ومعارض القاطع ساقط عن درجة الاعتبار، فهذا خبر ساقط مردود على قائله.

الوجه الثاني: أن هذا الخبر، أو أن هذا المتن معارض لما لا يحصى من الأخبار الدالة على خلافه، قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: "يعارضه ما أخرجه ابن أبي داود عن أبي بن كعب أنهم جمعوا القرآن.

فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن.

فقال لهم أبي بن كعب >: إن رسول الله ﷺ قد أقرأني بعدها آيتين ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة".

القضية الثانية: قضية ترتيب السور:

أما ترتيب السور على ما هي عليه الآن، فقد اختلف فيه هل هذا الترتيب بتوقيف من النبي ﷺ أو من فعل الصحابة } أو يفصل في ذلك؟ الأقوال في تلك القضية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن النبي ﷺ فوض ذلك إلى أمته من بعده، وذلك يعني أن هذا الترتيب إنما هو من فعل الصحابة، وممن ذهب إلى ذلك الإمام مالك -رحمه الله- وقد استدلوا على ذلك بعدة أدلة منها ما يلي:

أولًا: أنه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر، وفشا، ونقل مثله، وفي العلم بعدم ذلك النقل دليل على أنه لم يكن منه ﷺ توقيف في شيء من ذلك، فدل ذلك على أن ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة.

ثانيًا: أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان > ، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي ﷺ ما ساغ لهم أن يهملوه، ويتجاوزوه. فمن ذلك أن مصحف أبي بن كعب قدمت فيه النساء على آل عمران، ومن ذلك أن مصحف ابن مسعود كان مبدوءًا بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف، ثم الأنعام.

وروي أن مصحف علي > كان مرتبًا على حسب النزول، فأوله سورة العلق، ثم المدثر ثم ق ثم المزمل ثم تبت، ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي، والمدني.

ولكن يبقى لنا أن نعلق على هذه الأدلة، ويبقى لنا أن نبين القول الثاني وأدلته، ويبقى لنا أن نبين القول الثالث وأدلته.

تابع الدعاوى المتعلقة بنقل القرآن وجمعه

عناصر الدرس

العنصر الأول : تابع دعوى اجتهاد الصحابة في ترتيب السور ٢١١

العنصر الثاني : دعوى وقوع الاختلاف بين المصاحف العثمانية ٢١٩

تابع دعوى اجتهاد الصحابة في ترتيب السور

الدليل الثالث من أدلة القائلين بأن ترتيب السور على ما هو عليه الآن، إنما هو باجتهاد من الصحابة: حديث ابن عباس قال: "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة الأنفال، وهي من المثاني، وإلى سورة براءة، وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، فوضعتموهما في السبع الطوال، فما حملكم على ذلك؟

قال: ((كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان، وهو يُنزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا أُنزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له، فيقول: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا، وكذا. وكانت سورة الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت سورة براءة من أواخر ما أُنزل من القرآن قال: فكانت قصتها شبيهًا بقصتها فظننا أنها منها. وقبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطوال))".

ووجه الدلالة من هذا الحديث حديث ابن عباس قول سيدنا عثمان: "فظننا أنها منها، وقبض رسول الله، ولم يبين لنا أنها منها". فهذه الجملة صريحة في عدم التوقيف.

فهذا الحديث يدل عند أصحاب هذا الرأي على أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ بل كان باجتهاد من الصحابة، في الأدلة السابقة حجة لمن قال: إن ترتيب السور كان اجتهاديًا من الصحابة، ولم يكن بتوقيف من النبي ﷺ.

ولكن قبل أن نبين، هل هذا القول راجح، أم مرجوح؟ لابد أن نتعرض إلى بيان القول الثاني، وأدلته ثم إلى بيان القول الثالث، وأدلته، وبعد ذلك يأتي مقام الترجيح.

القول الثاني في هذه القضية: أن هذا الترتيب أي: للسور إنما ثبت بتوقيف من النبي ﷺ، قال أبو جعفر النحاس: "المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب، إنما هو من رسول الله ﷺ.

وروي ذلك عن علي بن أبي طالب". وقال الإمام الكرماني -رحمه الله-: "ترتيب السور هو هكذا عند الله تعالى في اللوح المحفوظ". وقال الإمام أبو بكر الأنباري: "أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا، ثم فُرق في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث.

والآية جوابًا لمستخبر، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة، والآية فاتساق السور كاتساق الآيات، والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة، أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات".

فيما سبق بينا أقوال العلماء القائلين بأن ترتيب السور كان بتوقيف من النبي ﷺ، وهؤلاء العلماء لهم أدلتهم، التي يستدلون بها على قولهم.

فيا ترى ما هي أدلتهم، التي يستدلون بها على أن ترتيب السور، إنما هو بتوقيف من النبي ﷺ، فيما يلي عرض لهذه الأدلة:

أولًا: أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان > ، ولم يخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب، الذي أجمعوا عليه عن توقيف.

لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم، ولكنهم عدلوا عن مصاحفهم، وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان، وترتيبه جميعه.

ثانيًا: استدل القائلون بذلك بعدة أحاديث منها: عن ابن مسعود > أنه كان يقول في بني إسرائيل -أي: سورة الإسراء- كان يقول في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: "إنهن من العِتاق الأُول، وهن من تلاد".

التالد: هو القديم.

ومعنى أثر ابن مسعود: أن هذه السور من قديم، وأوائل ما أخذ من النبي ﷺ.

وجه الدلالة في هذا الأثر أن ابن مسعود > قد ذكر هذه السور مرتبة، كما استقر ترتيبها في المصاحف الآن.

فذكرهن على الترتيب الموجود الآن: بني إسرائيل، ثم الكهف ثم مريم، ثم طه ثم الأنبياء.

من الأدلة أيضًا عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: ((أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل)).

قال أبو جعفر النحاس: "وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأن القرآن مؤلف من ذلك الوقت أي: في حياة النبي ﷺ، ومعنى مؤلف أي: مرتب".

قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: "ومما يدل على أنه توقيفي أي: مما يدل على أن ترتيب السور توقيفي، كون الحواميم رتبت ولاءً، والحواميم: هي السور التي بدئت بحم. وكذلك الطواسين أي: السور التي بدأت بطس، ولم ترتب

المسبِّحات ولاءً بل فُصل بين سورها، والمسبحات هي السور التي بدأت بسبح لله، أو يسبح لله".

وبذلك الدليل يستدل الإمام السيوطي على أن هذا الترتيب توقيفي، وليس باجتهاد من الصحابة.

وقد سئل ربيعة -رحمه الله-: "لم قُدمت البقرة، وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلتا بالمدينة؟ أي: إنما كان نزول البقرة، وآل عمران في المدينة.

فقال: قدمتا، وأُلف القرآن على علم ممن ألفه به، ومن كان معه فيه، فهذا مما ينتهى إليه، ولا يسأل عنه".

قال الإمام الكرماني -رحمه الله-: "وعلى هذا الترتيب كان يعرضه ﷺ على جبريل كل سنة، وعرض عليه في السنة التي توفي فيها مرتين أي: عرض النبي على جبريل القرآن في العام، الذي توفي فيه النبي ﷺ عرض عليه القرآن مرتين".

قال الإمام أبو بكر الباقلاني: "فالذي يظهر أنه عارضه به هكذا على هذا الترتيب، وبه جزم ابن الأنباري". كان هذا عرضًا للقول الثاني، وأدلته.

القول الثالث في هذه القضية يقول بأن ترتيب كثير من السور كان بتوقيف من النبي ﷺ، وعُلم ذلك في حياته، وأن ترتيب بعض السور كان باجتهادٍ من الصحابة.

ولأصحاب القول الثالث أدلة يستدلون بها على قولهم، منها: أنهم استدلوا على ذلك بورود أحاديث تفيد ترتيب بعض السور بتوقيف من النبي ﷺ كالأدلة التي احتج بها الفريق القائل بالتوقيف.

واستدلوا كذلك بورود آثار تصرح باجتهاد الصحابة في ترتيب بعض السور، كحديث ابن عباس عن عثمان، الذي استدل به أصحاب القول الأول.

قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: "والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة، والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورًا ولاءً على أن ترتيبها كذلك.

وحينئذٍ لا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران؛ لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز".

بعد بيان الأقوال الثلاثة في هذه القضية، وبعد بيان الأدلة التي يستدل بها أصحاب كل قول لابد، وأن نأتي إلى مقام الترجيح.

فنقول: القول الراجح في هذه القضية -قضية ترتيب السور في القرآن- القول الذي أراه راجحًا، والله أعلم هو القول الثاني القائل، بأن ترتيب سور الكتاب العزيز كلها توقيفي ثبت بالتوقيف عن النبي ﷺ.

لأن أدلة أصحاب هذا القول هي الأقوى مقارنة بأدلة الأقوال الأخرى، ولما يأتي من ردود على تلك الأقوال، لذلك سنشرع بإذن الله في الرد على القائلين بأن ترتيب السور اجتهادي من فعل الصحابة.

نقول: أما أدلة الفريق القائل بأن ترتيب السور اجتهادي، فمردودة بما يأتي:

أولًا: يجاب عن دعواهم أنه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر، وفشا، ونقل مثله، وأن في العلم بعدم ذلك النقل دليلًا على عدم التوقيف.

نقول في الرد على ذلك: إن عدم النقل ليس دليلًا على عدم وجود النص، بل إن إجماع الصحابة على هذا الترتيب دليل على التوقيف؛ لأنهم لا يجمعون على خلاف السنة.

فإن قيل: كيف يكون الصحابة مجمعين على هذا الترتيب، مع أن مصاحفهم كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان > ، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي ما ساغ لهم أن يهملوه، ويتجاوزوه.

نقول في الجواب على ذلك: يجاب بأنهم إنما اختلفوا في هذا الترتيب في بداية الأمر قبل أن يعلموا بالتوقيف، فلما علموا بالتوقيف تركوا ترتيب مصاحفهم، ويجاب كذلك بأن مصاحفهم كانت شخصية فردية، ولم يكونوا يكتبونها للناس.

فالواحد منهم لا يثبت في مصحفه، إلا ما وصل إليه مجهوده، وقد يفوته ما لم يفت الجماعة من تحقيق أدق، وعلم أوسع، أما عمدة أدلتهم وهو حديث ابن عباس عن عثمان } ، وهو أقوى الحجج.

فالتحقيق أنه أوهى تلك الحجج، وذلك إذا نظر إليه بعين التمحيص؛ لأن فيه ضعفًا لا ينكر من ناحية السند، وفيه الرد على شبهتم من ناحية المتن، وفيما يلي البيان، والتفصيل:

أولًا: رد هذا الأثر من ناحية السند: مدار الأثر أي مدار حديث ابن عباس عن عثمان، مداره على شخص يسمى بيزيد الفارسي، وقد قال فيه العلامة الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- قال: "وفي إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جدًّا.

بل هو حديث لا أصل له". وقال العلامة أحمد شاكر في موضع آخر: "فهذا يزيد الفارسي، الذي انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولًا، حتى اشتبه على مثل ابن مهدي، وأحمد، والبخاري أن يكون هو ابن هرمز، أو غيره.

فلا يقبل منه مثل هذا الحديث الذي ينفرد به. وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي، وفيه تشكيك كذلك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه، وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك.

فلا علينا إذا قلنا: إنه حديث لا أصل له، فلا عبرة في هذا الموضع بتحسين الترمذي، ولا بتصحيح الحاكم، ولا بموافقة الذهبي، وإنما العبرة بالحجة، والدليل". كان هذا هو كلام العلامة أحمد شاكر على سند هذا الحديث، وفيما يلي أبين الكلام على المتن:

فنقول: رد هذا الأثر من ناحية المتن:

أ. هذا الأثر يحمل تناقضًا ظاهرًا لماذا؟ لأنه أثبت للأنفال، وبراءة اسمين مختلفين، فقد ثبت في نص الأثر أن هناك سورة تسمى الأنفال، وسورة تسمى براءة، فأثبت للأنفال، وبراءة اسمين مختلفين.

وفيه مع ذلك أن عثمان ظن أن براءة من الأنفال فقرنها بها، وكان الأولى أن يقول: إنهما سورة واحدة قال الإمام الباقلاني -رحمه الله-: "وقد تضمن ذلك أنهما سورتان؛ لأنه سمى كل واحدة باسمها، وهذا تناقض ظاهر يقوي رد هذا المتن".

ب. هذا الأثر يحمل طعنًا في التوقيف في ترتيب الآيات؛ لأن قول عثمان < : "فظننا أنها منها" يدل على أن النبي ﷺ لم يفصح بأمر سورة براءة، فأضافها عثمان إلى الأنفال اجتهادًا منه.

وهذا مخالف لما لا يحصى من الأخبار الصحيحة الدالة على أن ترتيب الآيات كان توقيفيًّا، وبتوقيف من النبي ﷺ، وهو كذلك مخالف للإجماع المنقول عن أهل العلم على أن ترتيب آي السور ليس محلًّا للاجتهاد، وإنما كان بتوقيف من النبي ﷺ.

كما أن قول ابن عباس { : "عمدتم إلى سورة الأنفال، وهي من المثاني، وإلى سورة براءة، وهي من المئين، فوضعتموها في السبع الطوال".

هذه الجملة، وهذا القول لابن عباس يحمل ما يرد على احتجاج هؤلاء بهذا الحديث، فهو يذكر أن الأنفال من المثاني، ويذكر أن براءة من المئين، ويقول: "فوضعتوهما في السبع الطوال".

وهذا يدل على أن السبع الطوال كانت معلومة توقيفًا قبل الجمع، وكذلك المثاني كانت معلومة، وكذلك المئون كانت معلومة، وإلا فما وجه استنكار ابن عباس لهذا الترتيب.

بعد أن رددنا بحمد الله، وفضله، ومنه على أدلة القائلين بأن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة نرد على أصحاب القول الثالث القائل بالتفصيل.

فنقول: أما الفريق الثالث القائل بالتفصيل، الذي يقول: إن معظم السور كان ترتيبها بتوقيف من النبي إلا الأنفال، وبراءة فإن الصحابة قد رتبوهما باجتهاد منهم }، نقول: أما هذا الفريق، فيجاب عليه بنفس الأجوبة السابقة إذ لم يأت بدليل جديد.

كما يرد عليهم أيضًا بأن العلم بتوقيف البعض يدل على التوقيف في الكل، إذ لو علم الصحابة التوقيف لما فاتهم أن يسألوا عن كل سورة بعينها.

والنبي ﷺ حي بين أظهرهم، وإلا لكانوا، وحاشاهم مقصرين في حفظ القرآن، وبذلك يكون علماء المسلمين -رحمهم الله- قد زلزلوا هذه الدعوى من قواعدها.

وأثبتوا بما لا يدع مجالًا للشك أن ترتيب السور قد ثبت بالتوقيف، عن النبي ﷺ كما ثبت أن ترتيب الآيات كان بتوقيف عن النبي ﷺ، فلله الحمد المنه.

دعوى وقوع الاختلاف بين المصاحف العثمانية

فقد أورد الطاعنون عدة روايات تتعلق بوجود اختلافات بين المصاحف العثمانية، التي أرسلت إلى الأمصار، وأراد الطاعنون أن يدللوا بهذه الروايات على وقوع التحريف في القرآن، على حسب زعمهم.

الرد العلمي على هذه الدعوى:

شرع الصحابة الموكلون بجمع القرآن في كتابة المصحف الإمام، الذي نسخوا منه بعد ذلك المصاحف المرسلة إلى الأمصار، وكان الخليفة عثمان > كان يتعاهدهم، ويشرف عليهم.

وكان الموجودون من الصحابة جميعًا يشاركون في هذا العمل، وما زعمه الطاعنون من وجود اختلاف بين المصاحف العثمانية المرسلة إلى الأمصار، ما هو إلا مجرد وهم، وجهل.

وسيزول الوهم، والجهل بمجرد معرفة منهج كتابة المصاحف العثمانية، وهذا ما سأبينه فيما يلي بمشيئة الله وعونه، يمكن أن يلخص منهج كتابة المصاحف العثمانية فيما يلي:

أولًا: الاعتماد على جمع أبي بكر الصديق > ، ويظهر هذا جليًّا في طلب عثمان > الصحف، التي جمع فيها أبو بكر القرآن من حفصة > وقد كانت هذه الصحف مستندة إلى الأصل المكتوب بين يدي النبي ﷺ.

وبذلك ينسد باب الكلام، فلا يزعم زاعم أن في الصحف المكتوبة في زمن أبي بكر ما لم يكتب في المصحف العثماني، ولا يزعم زاعم أنه قد كتب في مصاحف عثمان ما لم يكن في صحف أبي بكر.

عن أنس بن مالك > قال: "فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث، فنسخوها في المصاحف".

الأمر الثاني: فيما يتعلق بمنهج كتابة المصاحف العثمانية أن يتعاهد لجنة الجمع، ويشرف عليها خليفة المسلمين بنفسه.

فعن كثير بن أفلح قال: "لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلًا من قريش، والأنصار فيهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت قال: فبعثوا إلى الربعة، التي في بيت عمر.

والرَّبْعة: عبارة عن صندوق تحفظ فيه أجزاء المصحف، فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر، فجيء بها قال: وكان عثمان يتعاهدهم". أي: يشرف عليهم بنفسه.

ثالثًا: أن يأتي كل من عنده شيء من القرآن بما عنده، فكل من سمع شيئًا من النبي ﷺ وكان عنده شيء من القرآن كان ملزمًا بأن يأتي بما عنده، وأن يشترك الجميع في علم ما جمع.

فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده من القرآن شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع في المصحف، ولا يشك في أنه جُمع عن ملأ من الصحابة.

ويدل على ذلك ما صح عن الإمام علي بن أبي طالب > أنه قال: "يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرًا في المصاحف، وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعًا، فقال أي: عثمان يحكي ذلك عنه علي بن أبي طالب. فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن

يكون كفرًا قلنا: فماذا ترى؟ قال أي عثمان: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف، فقلنا: نِعم ما رأيت".

وورد كذلك أن عثمان > دعا الناس إلى أن يأتوا بما عندهم من القرآن المكتوب بين يدي النبي ﷺ، وأنه كان يستوثق لذلك أشد الاستيثاق.

فعن مصعب بن سعد قال: "قام عثمان > ، فخطب الناس فقال: أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة سنة، وأنتم تمترون في القرآن، فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من القرآن شيء أن يأتي به. وكان الرجل يأتي بالورقة، والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان، فدعاهم رجلًا رجلًا، فناشدهم: لسمعت هذا من رسول الله؟ أو لسمعت رسول الله ﷺ، وهو أملاه عليك؟ فيقول الرجل: نعم". وهذا يدل على شدة الاستيثاق من جانب أمير المؤمنين، سيدنا عثمان بن عفان > .

رابعًا: الاقتصار عند الاختلاف على لغة قريش، جاء في حديث أنس بن مالك أن عثمان قال للرهط القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم، وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش. فإنما نزل بلسانهم ففعلوا".

والمقصود من الجمع على لغة واحدة، الجمع على القراءة المتواترة المعلوم عند الجميع ثبوتها عن النبي ﷺ، وإن اختلفت وجوهها؛ حتى لا تكون فرقة، ولا اختلاف، فإنما يعلم الجميع أنه قراءة ثابتة عن رسول الله ﷺ، فإنهم لا يختلفون فيه، ولا ينكر أحد منهم القراءة به.

فلعل عثمان > عندما جمع القرآن رأى أن الحرف، الذي نزل القرآن أولًا بلسانه هو الأولى، فحمل الناس عليه عند الاختلاف، ولكن هل وقع ثمة اختلاف في الجمع العثماني؟

نقول: الاختلاف الوحيد الذي حدث بين لجنة الجمع العثماني هو اختلاف الصحابة في كلمة واحدة، ألا وهي كلمة التابوت، هل هي بالتاء، أم بالهاء؟

قال الإمام الزهري: "واختلفوا يومئذٍ في التابوت، والتابوه فقال النفر القرشيون: التابوت بالتاء، وقال زيد: التابوه بالهاء، فرفع اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه التابوت أي بالتاء، فإنه بلسان قريش".

خامسًا: أن يمنع من كتابة ما نسخت تلاوته، وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وما كانت روايته آحادًا، وما لم تعلم قرآنيته، أو ما ليس بقرآن كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة، إما شرحًا لمعنى، أو بيانًا لناسخ، أو منسوخ، أو نحو ذلك.

ومما يدل على ذلك ما ورد عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: "فكانوا إذا تدارءوا في شيء أي: إذا اختلفوا في شيء أخروه، قال محمد بن سيرين: فقلت لكثير -وكان هذا الرجل كان ممن يكتب في لجنة الجمع العثماني- فقلت لكثير، وكان فيهم: هل تدرون لما كانوا يؤخرونه؟ قال: لا قال محمد أي: ابن سيرين: فظننت أنهم إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهدًا بالعرضة الأخيرة، فيكتبونها على قوله".

سادسًا: أن يشتمل الجمع على الأحرف التي نزل بها القرآن، والتي ثبت عرضها في العرضة الأخيرة مع مراعاة ما يأتي:

أ. عند كتابة اللفظ الذي تواتر النطق به على أوجه مختلفة، عن النبي ﷺ يبقيه الكتبة خاليًا عن أي علامة، والمقصود بالعلامة النقط، أو التشكيل يبقيه الكتبة خاليًا عن أي علامة تقصر النطق به على وجه واحد.

وذلك لسبب في غاية الأهمية، وهو أن تكون دلالة المكتوب على كلا اللفظين المنقولين المسموعين متساوية، فتكتب هذه الكلمات برسم واحد في جميع المصاحف محتمل لما فيها من الأوجه المتواترة، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

ب. قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، في قوله تعالى: ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي المنقوطة قرأها أبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب قرءوها "ننشرها" بالراء بدلًا من الزاي. ولذلك تركت بدون نقط حتى تحتمل جميع الأوجه، التي نزلت على النبي ﷺ، وعلمها للصحابة.

كذلك قوله ﷻ في سورة يونس: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا﴾ بالباء الموحدة فقد قرأ حمزة، والكسائي "هنالك تتلو" بالتاء بدلًا من الباء. ويقصدون بتتلو من التلاوة، ووضعوها مكان الباء الموحدة، فترك هذا الحرف بدون نقط حتى يحتمل جميع القراءات التي نزلت على النبي ﷺ، وعلمها الصحابة.

وقوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩]، في سورة الهمزة، في كلمة عَمَد بفتح العين، والميم قرأ حمزة، والكسائي، وشعبة "في عُمُد ممددة" بضم العين، والميم. لذلك تركت الكلمة في المصاحف العثمانية الأولى تركت بدون تشكيل، حتى تحتمل جميع الأوجه المتواترة، التي وردت بها هذه الكلمة.

ج. ما لا يحتمله الرسم الواحد كالكلمات التي تضمنت قراءتين، أو أكثر، ولم تنسخ في العرضة الأخيرة، ورسمها على صورة واحدة لا يكون محتملًا لما فيها من أوجه القراءة، فمثل هذه الكلمات ترسم في بعض المصاحف على صورة تدل على قراءة. وفي بعضها الآخر ترسم برسم آخر يدل على القراءة الأخرى.

ولم يكتب الصحابة } تلك الكلمات برسمين في مصحف واحد أحدهما في الأصل، والآخر في الحاشية؛ لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول. ولئلا يتوهم أن الأول خطأ، وكذلك؛ لأن جعل إحدى القراءات في الأصل، والقراءات الأخرى في الحاشية تحكم، وترجيح بلا مرجح إذ إنهم تلقوا جميع تلك الأوجه عن النبي ﷺ، وليست إحداها بأولى من غيرها.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦]، قرأها عبد الله بن عامر الشامي: "قالوا اتخذ الله ولدًا" بدون واو، وهي كذلك في مصاحف أهل الشام.

كذلك في قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢]، قرأها أبو جعفر، ونافع، وابن عامر: "وأوصى" بدلًا من ﴿وَوَصَّىٰ﴾ فقال: "وأوصى بها إبراهيم" من الإيصاء. وقد رسمت في مصاحف أهل المدينة، والشام بإثبات ألف بين الواوين أي: "وأوصى" قال أبو عبيد: "وكذلك رأيتها في الإمام مصحف عثمان > ، ورسمت في بقية المصاحف بواوين قبل الصاد". أي: ووصى من غير ألف بينهما.

وإنما رسمت بهذين الرسمين؛ لأن القراءتين ثابتتان عن النبي ﷺ، وقد علمهما النبي ﷺ للصحابة هكذا.

ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله ﷻ في سورة التوبة: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فقد قرأها عبد الله بن كثير المكي: "وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار" بزيادة حرف من قبل كلمة "تحتها". وهي كذلك في المصحف المكي، أما بقية المصاحف فقد حذف منها حرف من.

والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف، وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته وبكافة حروفه التي نزل

عليها، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها، حتى لا يقال: إنهم أسقطوا شيئًا من قراءاته، أو منعوا أحدًا من القراءة بأي حرف شاء، على حين أنها كلها منقولة نقلًا متواترًا عن النبي ﷺ.

ورسول الله ﷺ يقول: ((نزل القرآن على سبعة أحرف على أي حرف قرأتم، فقد أصبتم فلا تتماروا فيه)).

سابعًا: المراجعة: فبعد الفراغ من كتابة المصحف الإمام راجعه سيدنا زيد بن ثابت > ثم راجعه سيدنا عثمان > بنفسه.

فعن زيد بن ثابت قال: "فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري. قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، يقول سيدنا زيد: فألحقناها في سورتها في المصحف". كانت هذه هي المراجعة الأولى لسيدنا زيد بن ثابت > .

ويظهر من الروايات أنه عرضه مرتين أخريين، فأظهرت الثانية الاختلاف في لفظ التابوت أما المرة الثالثة، فلم تكشف عن أي اختلاف، قال الإمام الزهري - رحمه الله -: "واختلفوا يومئذٍ في التابوت، والتابوه، فقال النفر القرشيون: التابوت بالتاء. وقال زيد: التابوه بالهاء فرفع اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه التابوت بالتاء فإنه بلسان قريش".

وفي هذا الأثر ما يدل على أن المعارضة بما جمعه الصديق كانت بعد الانتهاء من كتابة المصحف الإمام، وذلك لمزيد الاطمئنان، وفي هذا ما يدل على بقاء الأوجه الثابتة من القراءة بغير اختلاف بين الحفاظ، والعلماء.

وقد نفذ الصحابة } هذه الضوابط أدق تنفيذ، فكانوا ربما انتظروا الغائب الذي عنده شيء من القرآن زمانًا، حتى يستثبتوا مما عنده على الرغم من أن القائمين بالكتابة، والإملاء كانوا من الحفاظ القراء.

فعن مالك بن أبي عامر قال: "كنت فيمن أملى عليهم، فربما اختلفوا في الآية، فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله ﷺ ولعله أن يكون غائبًا، أو في بعض البوادي فيكتبون ما قبلها، وما بعدها. ويدعون موضعها أي: يتركون موضعها حتى يجيء الرجل، أو حتى يرسل إليه، فيأتي إليهم". ثم أمر سيدنا عثمان > بعد ذلك بنسخ المصاحف عن المصحف الإمام، وإرسالها إلى الأمصار، وهي تلك المصاحف، التي عرفت فيما بعد بالمصاحف العثمانية.

بعد بيان منهج الجمع في عهد سيدنا عثمان > نخلص إلى نتيجة في غاية الأهمية:

أولًا: مما سبق يتبين أن ما وجد من اختلاف بين المصاحف العثمانية في كلمات قليلة جدًّا ليس تحريفًا، ولا زيادة ولا نقصانًا إنما هو منهج حكيم، ومقصود أريد به إثبات كل ما أنزل على النبي ﷺ من القرآن، الذي ثبت في العرضة الأخيرة، ولم ينسخ إذ إنهم تلقوا جميع تلك الأوجه عن النبي ﷺ.

ثانيًا: ينبغي كذلك أن نلفت النظر إلى أنه لا يوجد مثال واحد يتضمن أي تناقض، أو تضاد بين هذه الأوجه الثابتة، فلا يوجد مثلًا في وجه من هذه الوجوه إثبات، وفي وجه آخر نفي، ولا يوجد في وجه من هذه الوجوه أمر، وفي الوجه الآخر نهي.

وأتحدى أن يأتي واحد من الطاعنين بمثال واحد لهذه القراءات، أو لهذه الأوجه يتضمن تناقضًا، أو تضادًّا بين هذه الأوجه، وغاية الأمر أنه تغاير يسير جدًّا في بعض الحروف، أو الأوجه التي ثبتت كلها عن النبي ﷺ، ونزل بها الوحي.

موقف أبي بن كعب من الجمع العثماني، ودعوى وقوع اللحن في الجمع العثماني

عناصر الدرس

العنصر الأول : موقف سيدنا أبي بن كعب من الجمع العثماني ٢٢٩

العنصر الثاني : دعوى وقوع اللحن في الجمع العثماني ٢٣٦

موقف سيدنا أبي بن كعب من الجمع العثماني

أورد الطاعنون عدة روايات تتعلق بسيدنا أبي بن كعب يدللون بتلك الروايات على وقوع التحريف في القرآن الكريم على حسب زعمهم، وهذه الروايات تدور على ما ورد عن سيدنا أبي بن كعب بشأن ما يسمى بسورتي الخلع والحفد.

كل هذا عرضًا مجملًا لكلام الطاعنين في هذه الدعوى، وفيما يلي أبين الجواب الكافي والرد الوافي على هذه الدعوى فالله المستعان.

الرد على ما يتعلق بما يسمى بسورتي الخلع والحفد في مصحف سيدنا أبي بن كعب > : وردت بعض الآثار التي توحي بأن أبي بن كعب > كان يقرأ دعاء القنوت المعروف بسورتي الخلع والحفد على أنه من القرآن، وقد اتخذ المستشرقون والمبشرون والملحدون هذه الآثار وجعلوها مستندًا لهم في دعوى تحريف القرآن؛ فعن الأعمش أنه قال: في قراءة أبي بن كعب: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك"، وفيها أيضًا: "اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق".

كما ورد عنه أنه كان يكتبهما في مصحفه؛ فعن ابن سيرين قال: "كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين، واللهم إنا نستعينك، واللهم إياك نعبد، وتركهن ابن مسعود، وكتب عثمان منهن فاتحة الكتاب والمعوذتين".

وعن أبي بن كعب أنه كان يقنت بالسورتين، وأنه كان يكتبهما في مصحفه، كما ورد أن بعض الصحابة كان يقنت بهاتين السورتين؛ فعن عمر بن الخطاب أنه قنت بعد الركوع فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك

ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك، بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق".

هذه الآثار أوردها الإمام البيهقي في (السنن الكبرى) والإمام ابن أبي شيبه في (مصنفه) والإمام عبد الرزاق في (مصنفه).

ومن خلال هذه الآثار زعم الطاعنون أن ما روي من إثبات أبي للقنوت في مصحفه يطعن على جمع الصحابة للقرآن، ويدل على أن الصحابة قد نقصوا من القرآن، وزعموا أن اشتباه القنوت بالقرآن عند أبي بن كعب > دليل على عدم اشتهار أمر القرآن وعدم انتشاره، ودليل على إمكانية التباسه بغيره من الكلام؛ إذ قد التبس على أبي بن كعب مع كونه من أعلم الناس بالقرآن وأحفظهم له.

وفيما يلي أبين الجواب على هذه الدعوى:

فنبدأ أولًا ببيان معاني المفردات التي وردت في هذه الآثار، أو وردت في الدعاء الذي كان يقنت به سيدنا أبي بن كعب > قوله: "اللهم" أي: يا الله، فحذفت ياء النداء وعوض عنها الميم وشددت، ولا يجمع بين أداة النداء والميم المشددة إلا في ضرورة الشعر.

قوله: "إنا نستعينك" أي: نطلب منك الإعانة على طاعتك، أو على جميع مهماتنا.

قوله: "ونستغفرك" أي: نطلب منك المغفرة وهي ستر ذنوبنا وعدم مؤاخذتنا عليها، "ونؤمن بك" أي: نصدق بوجوب ما يجب لك علينا ونعمل بمقتضى

ذلك، "ونتوكل" أي: نعتمد عليك في جميع أمورنا، "نخلع" أي: نزيل رقة الكفر من أعناقنا، بمعنى أن نترك جميع الأديان الباطلة ونتبع دين الحبيب ﷺ. "ونترك" أي: نطرح مودة كل من يكفرك، "اللهم إياك نعبد" أي: نخصك بالعبادة، وذلك لأن عبادة غير الله كفر، "ولك نصلي ونسجد" أي: لا نصلي ولا نسجد إلا لك، وذكر الصلاة والسجود بعد العبادة تنبيهًا على شرفهما، "وإليك نسعى" أي: لا نعمل طاعة ولا شيئًا من أنواع إلا لك.

"ونحفد" بكسر الفاء وبفتح الفاء وهما لغتان صحيحتان، "ونحفد" أي: نخدم ونسرع في طاعتك، ومنه تسمية الخدمة بالحفدة؛ وذلك لسرعتهم في خدمة أسيادهم أو ساداتهم، "نرجو رحمتك" أي: نطلب ونطمع في نيل إحسانك ونخاف عذابك فنجتنب جميع المنهيات؛ "الجد" بكسر الجيم على الأكثر؛ أي: الثابت الحق؛ لأنه ضد الهزل، وجمع بين الرجاء والخوف؛ لأن شأن القادر أن يرجى فضله وأن يخاف من عذابه، جاء في الحديث: ((لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخافه)). "إن عذابك الجد بالكفار ملحِق" و"ملحَق" وهما لغتان صحيحتان بكسر الحاء وفتحها؛ فالكسر بمعنى لاحق، والفتح بمعنى أن الله سيلحقه بالكافرين.

بعد بيان معاني مفردات دعاء القنوت ننتقل إلى الجواب على هذه الدعوى فنقول:

للعلماء في الرد على هذه الآثار مسلكان:

أولًا: رد هذه الآثار من ناحية السند ومن ناحية المتن.

ثانيًا: تأويل هذه الآثار على فرض التسليم بصحتها.

وبيان ذلك فيما يلي:

أما ما يتعلق برد هذه الآثار من ناحية السند فنقول: الروايات التي وردت عن سيدنا أبي في أمر القنوت روايات منقطعة الإسناد؛ فأثر أبي بن كعب > إنما هو من طريق ميمون بن مهران قد أخرجه الإمام عبد الرزاق -رحمه الله- في (المصنف) عن الثوري عن جعفر بن بُرقان عن ميمون بن مهران عن أبي بن كعب، وأخرجه أيضًا الإمام ابن أبي شيبة في (المصنف) من طريق ميمون بن مهران، وابن مهران لم يسمع من أبي بن كعب، ويترتب على ذلك أن هذا السند منقطع.

أما ما يتعلق برد هذه الآثار من ناحية المتن؛ فنقول: القنوت ليس من القرآن؛ لأنه لو كان من القرآن لأثبته الرسول ﷺ وأظهره وقرأ به، وإن الواقف مع نص هذه الآثار ليعلم أن نظمها قاصر عن نظم القرآن، يعلم ذلك أهل البلاغة والفصاحة، وقد يرد هنا اعتراض يحتاج إلى جواب؛ إذ قد يعترض على هذا بأن يقال: كيف يشكل على سيدنا أبي أمر هذا الدعاء، وبأنه يلزم من ذلك أنه لم يكن على معرفة بوزن القرآن من غيره من الكلام، أو لم يكن على معرفة بتمييز القرآن عن غيره من الكلام.

ويجاب عن ذلك فيقال: بأنه قد يكون سيدنا أبي قد ظن أن القنوت يجوز أن يكون قرآنًا وإن كان غيره من القرآن أبلغ منه كما قيل: قد يكون بعض القرآن أفصح من بعض.

أولًا: فيما يتعلق برد هذه الآثار من ناحية المتن نقول: مما يدل على ضعف متن هذه الآثار ما علم من أن عثمان > قد تشدد في قبض المصاحف المخالفة لمصحفه وتحريقها، والعادة توجب أن مصحف سيدنا أبي كان من أول ما يقبض، وأن تكون

سرعة سيدنا عثمان إلى مطالبته به أشد من سرعته إلى مطالبة غيره بمصحفه، والسبب في ذلك أن سيدنا أبيًّا > كان ممن شارك في ذلك الجمع.

وقد صحت الرواية بما يدل على أن سيدنا عثمان قد قبض مصحف أبي > فعن محمد بن أبي أن ناسًا من أهل العراق قدموا إليه فقالوا: إنما تحملنا إليك من العراق؛ أي إنما جئنا إليك من مسافة بعيدة وتحملنا مؤنة ذلك فأخرج لنا مصحف أبي، قال محمد -أي: ابن سيدنا أبي بن كعب-: قد قبضه عثمان، قالوا: سبحان الله أخرجه لنا، قال: قد قبضه عثمان.

ثانيًا: تأويل هذه الآثار على فرض التسليم بصحتها ما روي عن سيدنا أبي بن كعب ليس فيه أن دعاء القنوت قرآن منزل، وإنما غاية ما فيه أنه أثبته في مصحفه، فإن صح أنه أثبته في مصحفه فلعله أثبته على أنه دعاء، أو أثبته في آخر مصحفه أو تضاعيف مصحفه لأجل ذلك، لا على أنه قرآن منزل قامت به الحجة.

وقد كان الصحابة { يثبتون في مصاحفهم ما ليس بقرآن من التأويل والمعاني والأدعية اعتمادًا على أنهم لا يشكل عليهم أنها ليست من القرآن في شيء، ثم إن ما ورد في الروايات السابقة حجة لنا على أنهما دعاء؛ أي على أن هاتين السورتين دعاء.

حيث إن قوله في الأثر: "قنت" وقوله: "بعد الركوع" دليل لنا على كون هاتين السورتين دعاء، وأما ما ورد من ذكر البسملة في بدايتهما فلأنها مكتوبة في كل أمر مهم؛ سواء كان قرآن أو غير قرآن.

على أن هذه الجمل التي وردت في تلك الآثار ليس فيها شيء من جمال القرآن البياني الذي يأخذ بالقلوب ويسحر الأفئدة؛ يعرف ذلك أصحاب الذوق والمعرفة.

كذلك نقول فيما يتعلق بتأويل هذه الآثار على فرض التسليم بصحتها: يحتمل أن يكون بعض هذا الدعاء كان قرآنًا منزلًا ثم نسخ، وأبيح الدعاء به وخلت به ما ليس بقرآن؛ فكان إثبات سيدنا أبي هذا الدعاء أولًا فنقل ذلك عنه قبل أن يعلم من نقل أنه نسخ عنه بعد ذلك.

وعلى فرض التسليم بأن أبيًّا كان يرى أن القنوت من القرآن، وعلى فرض التسليم أنه استمر على ذلك الرأي؛ فليس ذلك بمطعن في صحة نقل القرآن فإنه على هذا الفرض كان منفردًا بذلك الرأي، ويدل على ذلك عدم إثباته في صحف أبي بكر، ولا في مصاحف عثمان؛ أي يدل على أنه كان منفردًا بهذا الرأي أن هاتين السورتين لم تثبتا لا في جمع الصديق ولا في جمع سيدنا عثمان { إذ كانت كتابة القرآن في عهد في غاية الدقة والالتزام بحيث لم تقبل قراءة إلا بشاهدين؛ فلما كانت قراءة أبي > لما كانت قراءته فردية لم تقبل، وكذلك ردت قراءة سيدنا عمر في آية الرجم ولم تثبت في المصحف أو في القرآن المتواتر المجمع عليه.

فلو سلمنا أن سيدنا أبيًّا ظن دعاء القنوت قرآنًا فأثبته في مصحفه فإن ذلك لا يطعن في حال من الأحوال في تواتر القرآن؛ لأنه انفرد بذلك، وقد حصل الإجماع على ما بين الدفتين، وحصل الإجماع على تواتره؛ فلا يضر بعد ذلك مخالفة من خالف، ثم لو سلمنا أن سيدنا أبيًّا > كان يعتقد أن القنوت من القرآن فقد ثبت أنه رجع إلى حرف الجماعة واتفق معهم، والدليل على ذلك قراءته > التي رواها الإمام نافع والإمام ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وغيرهم، وليس في هذه القراءة تلك السور التي زعموها، والتي سموها بسورتي الخلع والحفد.

كما أن مصحف سيدنا أبي > كان موافقًا لمصحف الجماعة، قال الإمام أبو الحسن الأشعري: قد رأيت مصحف أنس بالبصرة عند قوم من ولده فوجدته مساويًا لمصحف الجماعة، وكان ولد أنس يروي أن هذا المصحف خط أنس وإملاء أبي؛ أي أن هذا المصحف الذي رآه الإمام أبو الحسن الأشعري الخط إنما من كتابة سيدنا أنس، أما الإملاء فقد كان من إملاء سيدنا أبي يقول أبو الحسن كما جاء في المقولة السابقة عنه: فوجدته مساويًا لمصحف الجماعة، وبذلك تكون هذه الدعوى قد ذهبت أدراج الرياح فلله الحمد والمنة.

وفي النهاية أسوق ردًّا عقليًّا عامًّا على كل ما يوجه إلى مصحف سيدنا أبي بن كعب > فنقول: على التسليم بثغور الآثار السابقة عن سيدنا أبي بن كعب؛ فإن هذه الآثار لم تقع منه > في مقام المجادلة أو الاعتراض، بل إذا كانت وقعت منه يكون قد وقعت في مقام التبليغ والافتخار، وذلك بمزيد العلم الذي عنده في أمر القرآن، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فيحتمل أنه أراد > أن يخبر الصحابة والتابعين الذين عاصروه بما يعلمه من أمر القرآن وحاله قبل جمعه وقبل إجماع الأمة على المتواتر منه، والله أعلم.

وكيف نظن بسيدنا أبي بن كعب > مخالفة ما أجمعت عليه الأمة وما اجتمعت عليه الأمة؛ وقد كان له نصيب وقدم في الجمع البكري والجمع العثماني؛ فقد أشركه سيدنا أبو بكر > في الجمع الأول كما ثبت في الأثر، فكان رجالًا يكتبون ويملي عليه أبي بن كعب، وهذا الأثر يحكي ما حدث في جمع القرآن في عهد الصديق > .

وكذلك ثبت في الأثر أن عثمان > قد جمع اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار لكتابة المصحف وفيهم أبي بن كعب.

والحاصل: أن سيدنا أبيًّا قد اشترك في جمع القرآن في المرتين، وهذا دليل على أنه لم يخالف المصحف العثماني فهو ممن أجمعوا عليه، وإن صح أنه كان له مصحف خاص فقد أحرق ذلك المصحف مع بقية المصاحف، وهذا الرد يتوجه لكل ما روي عن مصحف سيدنا أبي بن كعب.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن هذه الدعوى هي من أوهى الدعاوى وأضعفها وأسخفها؛ فقد نسف علماء المسلمين هذه الدعوى من قواعدها، وبينوا ما تنجلي به هذه الدعوى أتم بيان؛ فسقطت الدعوى وزالت الشبهة ولله الحمد والمنة.

دعوى وقوع اللحن في الجمع العثماني

أورد الطاعنون عدة روايات يستدلون بها على وجود اللحن في القرآن، والطاعنون عندنا يذكرون كلمة اللحن يقصدون بها الخطأ، ومن هذه الرايات التي أوردوها في ذلك المقام عن عكرمة الطائي قال: "لما أوتي عثمان بمصحف رأى فيه شيئًا من لحن فقال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا".

وعن يحيى بن يعمر قال: قال عثمان < : "إن في القرآن لحنًا وستقيمه العرب بألسنتها".

وعن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر قال: "لما فرغ من المصحف أوتي به إلى عثمان فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى شيئًا من لحن ستقيمهم العرب بألسنتها".

كان هذا عرضًا مجملًا لكلام الطاعنين وما أوردوه فيما يتعلق بهذه الدعوى، وفيما يلي أبين الجواب والرد على تلك الدعوى فالله المستعان.

الرد العلمي على هذه الدعوى:

يحسن في البداية أن أذكر المعنى اللغوي لكلمة اللحن؛ فقد ذكر ابن منظور -رحمه الله- في (لسان العرب) تحت مادة "لحن" أن للحن ستة معان: الخطأ في الإعراب، واللغة، والغناء، والفطنة، والتعريض، والمعنى؛ أي أن اللحن قد يطلق ويراد به الخطأ في الإعراب، واللحن قد يطلق في لغة العرب به اللغة أو اللهجة، واللحن قد يطلق ويراد به الغناء، وقد يطلق ويراد به الفطنة، وقد يطلق ويراد به التعريض، وقد تطلق كلمة اللحن ويراد بها المعنى.

بعد ما أورد ابن منظور -رحمه الله- هذه المعاني ساق الأمثلة والشواهد على كل معنى من هذه المعاني، وهذا التأصيل في غاية الأهمية؛ لأنه يدل على أن كلمة اللحن في لغة العرب لا يراد بها الخطأ فقط، وسنستفيد من هذا التأصيل في الرد على الآثار المتعلقة باللحن فيما يلي، فالله المستعان.

في البداية لا بد أن نقف وقفة مع الآثار الدالة على وقوع اللحن في المصاحف العثمانية: وردت بعض الآثار التي استدل بها الطاعنون على أن القرآن العظيم قد وقع فيه لحن عند جمعه في زمن سيدنا عثمان > فعن يحيى بن يعمر قال: "لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفًا من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستغيرها -أو قال: ستعربها بألسنتها- لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف". هذا الأثر أورده ابن أبي داود في كتاب (المصاحف).

وعن سعيد بن جبير قال في القرآن أربعة أحرف لحن ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] وقوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ [النساء: ١٦٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣].

وقد تعلق الطاعنون بهذه الآثار واستدلوا بها على الطعن في جمع القرآن ونقله، وزعموا أن هذه الآثار تدل على أن جمع الصحابة للقرآن لا يوثق به، وفيما يلي نبين الجواب على تلك الآثار:

أولًا: الجواب عن الأثر المنسوب لسيدنا عثمان > للعلماء للرد على هذا الأثر مسلكان:

المسلك الأول: رد هذا الأثر من ناحية السند ومن ناحية المتن.

المسلك الثاني: تأويل هذا الأثر على فرض التسليم بصحته وثبوته.

وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: رد هذا الأثر المنسوب لسيدنا عثمان > :

رده من ناحية السند؛ فنقول: هذه الرواية لا تصح عن سيدنا عثمان > لأن إسنادها ضعيف مضطرب منقطع، وأزيد الأمر توضيحًا فأقول: هذا الأثر ورد من طريق عمران عن قتادة عن نصر بن عاصم الليثي عن عبد الله بن فَطيمة -أو فُطيمة- عن يحيى بن يعمر، وقد ضعف العلماء -رحمهم الله- هذا السند وردوا هذه الرواية بسبب شخصين؛ هما: يحيى بن يعمر البصري، وقد ذكر الحافظ في (التهذيب) عن الحاكم أن أكثر روايته عن التابعين، ولم يذكر له الرازي رواية عن عثمان، وقد أنكر الإمام الداني روايته عن عثمان وقال: إنه لم يسمع من عثمان شيئًا ولا رآه.

الشخص الثاني: هو عبد الله بن فطيمة، ذكره الإمام الرازي في (الجرح والتعديل) بابن أبي فطيمة، ولم يذكر فيه شيئًا، وفي ترجمة يحيى بن يعمر في الرواية عنه عبد الله بن قطبة أحد كتاب المصاحف، فلم يذكر أن اسمه ابن أبي

فطيمة وإنما ذكر ابن قطبة، وفي ترجمة نصر بن عاصم في شيوخه عبد الله بن فطيمة أحد كتاب المصاحف، وقال الإمام البخاري -رحمه الله- في (التاريخ الكبير): عبد الله بن فطيمة عن يحيى بن يعمر عن نصر بن عاصم منقطع؛ أي هذا سند منقطع.

وبما سبق يكون هذا الأثر مردودًا من وجهين:

الوجه الأول: الانقطاع يحيى بن يعمر وبين سيدنا عثمان.

الوجه الثاني: جهالة عبد الله بن فطيمة.

وبناء عليه يكون هذا الأثر ضعيفًا لا تقوم به حجة.

أما ما يتعلق برد هذا الأثر من ناحية المتن فنقول: إن وقوع اللحن في القرآن وسكوت الصحابة عنه مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادة لعدة وجوه:

الوجه الأول: أنه لا يظن بالصحابة أنهم يلحنون في الكلام فضلًا عن اللحن في القرآن؛ فقد كانوا أهل الفصاحة والبيان.

الوجه الثاني: أنه لا يظن بالصحابة { اللحن في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه.

الوجه الثالث: أن افتراض صحة هذا النقل يعني أن الصحابة قد اجتمعوا على الخطأ، واجتمعوا على كتابة الخطأ، وهذا مما لا يظن بهم { .

الوجه الرابع: أنه لا يظن بهم عدم تنبههم للخطأ وذلك بالرغم من كثرتهم وحرصهم وتوافر الدواعي إلى حفظ كتاب الله تعالى.

الوجه الخامس: أنه لا يظن بعثمان > أنه ينهى عن تغيير الخطأ؛ فإن الأثر المنسوب إلى عثمان قد نص فيه على أن سيدنا عثمان > قال: لا تغيروها فإن

العرب ستغيرها بألسنتها. وهذا لا يتصور في حق سيدنا عثمان ؛ إذ كيف ينهى < عن تغيير الخطأ في القرآن.

الوجه السادس: أنه لا يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ مع أنها مروية بالتواتر خلفًا عن سلف ؛ فقد جعل عثمان < للناس إمامًا يقتضون به فكيف يرى فيه لحنًا ويتركه تقيمه العرب بألسنتها ، فإذا كان الذين تولوا جمعه لم يقيموا ذلك وهم العدول الأخيار فكيف يقيمه غيرهم؟.

قال ابن الأنباري -رحمه الله- في الأحاديث المروية في ذلك عن سيدنا عثمان < قال: لا تقوم بها حجة ؛ لأنها منقطعة غير متصلة ، ولا يشهد عقل بأن عثمان < يجمعهم على المصحف الذي هو الإمام فيتبين فيه خللًا ويشاهد في خطه زللًا فلا يصلحه ، كلا والله ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز ، ولا يعتقد أنه < قد أدخل الخطأ في الكتاب ليصلحه من يأتي بعده ، وسبيل الآتين بعد ذلك من بعده البناء على رسمه والوقوف عند حكمه.

ومن زعم أن سيدنا عثمان < أراد بقوله: أرى فيه لحنًا. أراد بذلك أي أرى في خطه لحنًا ، فكأنه نسب اللحن إلى الخط فقط ، نقول: من رأى ذلك فقط أخطأ ولم يصب ؛ لأن الخط منبأ عن النطق فمن لحن في كتابته فلا بد أن سيلحن في نطقه ، ولم يكن عثمان < ليؤخر فسادًا في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتابة ولا من جهة نطق ، ومعلوم أنه < كان مواصلًا لدراسة القرآن متقنًا لألفاظه موافقًا على ما رسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي.

أخرج أبو عبيد عن هانئ مولى سيدنا عثمان < قال: "كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها: لم يتسن ، وفيها: لا تبديل للخلق ، وفيها: فأمهل الكافرين ، قال: فدعا بالدواة -أي

سيدنا عثمان > دعا بالدواة؛ أي أمر أن يأتيه هذا الخادم بالدواة- فمحا أحد اللامين في قوله تعالى في سورة "الروم": ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] لأنها كانت قد عرضت عليه بلامين "لا تبديل للخلق" فمحا إحدى اللامين وأثبتها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ كما هو الحال في المصاحف.

كذلك محا سيدنا عثمان > كلمة فأمهل الكافرين وكتب مكانها، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الطارق: ١٧] كما هو ثابت في سورة "الطارق"، كذلك في قوله ﷻ: "لم يتسن"، كانت موجودة بين يدي سيدنا عثمان بدون هاء فأضاف لها الهاء، وأثبتها ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وألحق فيها الهاء التي كانت ناقصة منها.

قال أبو بكر الأنباري: فكيف يُدعا عليه أنه رأي فسادًا فأمضاه وهو يوقف على كل ما كتب؛ أي يراجع، ويعرض عليه كل ما كتب ويرفع إليه الخلاف الواقع من الناسخين ليحكم بالحق ويلزمهم بإثبات الصواب.

قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: ويؤيد ذلك أيضًا ما رواه ابن أشتة في كتاب (المصاحف) عن عبد الله بن الزبير أنه قال: فجمع عثمان المصاحف ثم بعثني إلى عائشة فجئت بالصحف فعرضناها عليها حتى قومناها، ثم أمر بسائرها فشققت، ومعنى شققت: أي أزيلت أو محيت بأي وسيلة من وسائل الإزالة أو المحو، فهذا يدل على أنهم ضبطوها وأتقنوها، ولم يتركوا فيها ما يحتاج إلى إصلاح ولا تقويم.

الوجه السابع: أن سيدنا عثمان > لم يكتب مصحفًا واحدًا، بل كتب عدة مصاحف؛ فإن قيل: إن اللحن قد وقع فيها جميعًا فهذا بعيد؛ لأنه يبعد اتفاق الجميع في اللحن، وإن قيل: وقع اللحن في بعضها فهذا اعتراف بصحة البعض الآخر، ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم

تأتِ المصاحف قط مختلفة إلا من وجوه القراءة، ووجوه القراءة ليست بلحن، قال الدكتور أبو شهبة -رحمه الله- : إن هذا المروي يخالف ما كان عليه عثمان من حفظه للقرآن وملازمة قراءته ومدارسته حتى صار في ذلك ممن يؤخذ عنهم القرآن، وقد حرص غاية الحرص على إحاطة كتابة المصحف بسياج قوي من المحافظة على القرآن أن يتطرق إليه لحن أو تحريف أو تبديل، وقد جعل > من نفسه حارسًا أمينًا على كتابة المصاحف في عهده، وجعل من نفسه المرجع عند أي اختلاف في كيفية الرسم.

ويضيف الدكتور أبو شهبة -رحمه الله- فيقول: وهناك مثال على ذلك حيث إنه > ، أي: سيدنا عثمان- قد قال: للرهط القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلسان قريش، وقد اختلفوا في "التابوت" أيكتبونه بالتاء أم بالهاء، ورفعوا الأمر إليه فأمرهم أن يكتبوه بالتاء، فإذا كان هذا شأنه وشأنهم في حرف لا يتغير به المعنى، ولا يعتبر تحريفًا ولا تبديلًا، فكيف يعقل منه أن يرى في المصاحف لحنًا ثم يقرهم عليه؟ فهل يصح في العقول ممن هذا شأنه أن يرى لحنًا في المصاحف ثم يقرهم عليه ويدعه للعرب تصلحه؟ من أحق بإصلاح اللحن والخطأ منه > وهو من هو في حفظ القرآن وفي الحفاظ عليه، ومن المشاهد أنه لو أمر أحد الملوك أو الأمراء بنسخ مصحف أو كتاب فإن الكاتب لا يقدمه إلى الأمير أو الملك إلا بعد العناية بتصحيحه والتثبت من عدم وجود أي غلط فيه؛ فكيف بهؤلاء الصحابة الذين بذلوا أنفسهم لله تعالى؟! كيف بهم نظن فيهم أنهم لا يتحرون في كتابة القرآن ولا في ضبط المصحف الذي هو أساس الدين الإسلامي الحنيف؟! كيف نظن بهم ذلك؟! ولن تجد للمسلمين عناية بشيء كعنايتهم بكتاب الله تعالى، وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل.

وهنا انتهى كلام الدكتور أبو شهبة -رحمه الله- وهو كلام في غاية المعقولية والمنطقية يرد به على كل ما أثير في هذه القضية وفي هذه الدعوى.

مما سبق يتبين أن هذه الأوجه تدل على أن الآثار التي تحمل هذا المعنى منكرة وغير صحيحة؛ كان ما سبق جوابًا يتعلق برد الأثر المنسوب إلى سيدنا عثمان من ناحية السند ومن ناحية المتن.

يبقى أن نرد على هذا الأثر أيضًا من مسلك آخر وهو تأويل هذا الأثر على فرض التسليم بثبوته، نقول: لو فرضنا أن هذا الأثر سليم وصحيح وثابت نقول: المراد به أن فيه لحنًا عند من توهم ذلك وخفي عليه وجه الإعراب، وأن سيدنا عثمان إن كان قد قال ذلك فإنه أراد بقوله: ستقيمه العرب بألسنتها؛ أي ستقيمه العرب محتجين عليه مظهرين لوجه صوابه عند من توهم اللحن، أو عند من خفي عليه وجه الإعراب.

كذلك يمكن أن يقال: إن المراد باللحن ليس الخطأ، بل هو مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها كما كتبوا ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٢١] بألف بعد حرف لا، وكما كتبوا: ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] كتبوا كلمة "جزاء" بواو وألف، وكما في قوله تعالى في سورة "الذاريات": ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٧] كتبوا كلمة "بأيد" بياءين، فلو قرئ بظاهر الخط كان لحنًا.

وبهذا الجواب جزم ابن أشتة في كتاب (المصاحف) فيكون المراد أن في رسم المصحف العثماني أن فيه شيئًا من الرسم الذي يفهمه العرب ويخفى على غيرهم؛ وذلك لأن بعض كلماته يزيد فيها حرف أو أكثر، وبعضها ينقص منه حرف أو أكثر، وبعضها يكتب فيه حرف بدل حرف وليس هذا بخطأ، وإنما هو رسم كان معروفًا لدى العرب، وعليه سار الكتاب في زمن النبي ﷺ وأقرهم

عليه فلم يأمرهم بإثبات الأحرف التي اعتادوا حذفها، ولم يأمرهم بحذف الأحرف التي اعتادوا زيادتها، ولا شك أن هذا الرسم يفهمه العرب الذين تعودوا على هذه الطريقة، أما غيرهم من العجم الذين دخلوا في الإسلام فإنهم لا يستطيعون النطق الصحيح بمجرد النظر إلى هذا الرسم، ومن أراد أن يتصور هذا فليمسك بالمصحف المطبوع على الرسم العثماني وينقل جزءًا منه مجردًا عن النقط والشكل والهمز والعلامات المشيرة إلى ما حذف أو بدل أو زيد من الأحرف؛ فإنه عندئذ يعلم علم اليقين أنه لن يستطيع أن يقرأ قراءة صحيحة إلا من كان حافظًا لهذا الجزء من قبل، أو عالمًا بطريقة رسم المصحف.

فالعرب الكتاب في زمن عثمان > كانوا كالقراء المتقنين لفن رسم المصحف في أزمنتنا، ومن هنا يتبين أن قول سيدنا عثمان > : لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف. يتبين أن هذا القول معناه أن ثقيفًا وهذيلًا لم تكونا سائرتين على هذا المنهاج الذي سارت عليه قريش من الرسم الذي فيه حذف وزيادة وإبدال، فلو وليتا أمر المصاحف -أي: لو وليت ثقيف وهذيل أمر كتابة المصاحف- لرسمتها على كيفية النطق التي ينطقون بها، وهي كيفية مخالفة لرسم قريش.

ونقول كذلك: ليس هذا الكلام -إن ثبتت صحة نقله- تندمًا من سيدنا عثمان > ولا إخبارًا بأنه كان هو الأولى أن يوليهما أمر كتابة المصاحف؛ إذ لو كان كلام سيدنا عثمان: "لو الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف". لو كان هذا الكلام تندمًا لما قال لهم في هذا الأثر: لا تغيروها. مع أن تغييرها في الإمكان، وقد كان قرشيًّا كاتبًا وأمر باتباع قريش عند الاختلاف؛ فكيف يندم على شيء هو الآمر به؟ ولو كان تندمًا لما قال لهم في الأثر الآخر: أحسنتم وأجملتم.

كذلك يرد بأن المراد باللحن: القراءة واللغة، وليس المراد به الخطأ، فيكون المراد بكلمة "لحن" في الروايات المذكورة القراءة واللغة كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [محمد: ٣٠]، والمعنى أن في القرآن ورسم مصحفه وجهًا في القراءة لا تلين به ألسنة جميع العرب، ولكنها لا تلبس أن تلين بالمران والممارسة وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه.

وهنا ملاحظة مهمة تتعلق بأثر مروي عن سيدنا عثمان > يحل هذا الإشكال الوارد في الأثر السابق؛ فقد روى ابن أشتت أثر سيدنا عثمان السابق في كتابه (المصاحف) بلفظ خالٍ من هذا الإشكال؛ فعن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر قال: "لما فرغ من المصحف أتي به عثمان فنظر فيه فقال: أحسنتم وأجملتم، أرى شيئًا سنقيمه بألسنتنا". وهذه الجملة هي التي تفرق بين هذا الأثر وبين الأثر السابق الذي رأينا فيه الإشكال؛ ففي الأثر السابق ورد أن سيدنا عثمان قال: "أرى فيه لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها"، أما في هذا الأثر المروي عند ابن أشتت في كتاب (المصاحف) أثبت فيه أن سيدنا عثمان قال: "أحسنتم وأجملتم، أرى شيئًا سنقيمه بألسنتنا". قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: فهذا الأثر لا إشكال فيه وبه يتضح معنى ما تقدم؛ فكأنه عرض عليه عقب الفراغ من كتابته فرأى فيه شيئًا كتب على غير لسان قريش كما وقع له في "التابوه" و"التابوت" فوعد على أنه سيقيمه على لسان قريش، ثم وصى بذلك عند العرض والتقويم، ولم يترك فيه شيئًا فيه مخالفة أو فيه لحن أو فيه خطأ، ولعل من روى تلك الآثار السابقة عن سيدنا عثمان حرَّفها ولم يتقن اللفظ الذي صدر عن سيدنا عثمان، فلزم منه ما لزم من الإشكال، فهذا أقوى ما يجاب به عن ذلك، ولله الحمد.

تابع دعوى وقوع اللحن في الجمع العثماني

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أثر سعيد بن جبير "في القرآن أربعة أحرف لحن..." والرد عليه	٢٤٩
العنصر الثاني :	الآثار الواردة عن ابن عباس فيما يتعلق بوقوع الخطأ في كتابة المصاحف العثمانية، والرد عليها	٢٥١
العنصر الثالث :	ادعاء وجود الاختلاف بين مصاحف الصحابة والتابعين وبين المصحف العثماني	٢٦٢

أثر سعيد بن جبير: "في القرآن أربعة أحرف لحن..." والرد عليه

أثر سعيد بن جبير الذي قال فيه: "في القرآن أربعة أحرف لحن: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾، ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾، ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾":

بعد أن عرضت الأثر لا بد وأن أبين تلك المواضع التي ذكرها سعيد بن جبير في قوله: "في القرآن أربعة أحرف لحن: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾"؛ يريد بذلك قول الله تعالى في سورة "المائدة": ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

وفي قول سعيد في الأثر: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾؛ يريد بذلك قول الله تعالى في سورة "النساء": ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

وفي قول سعيد في الأثر: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ يريد بذلك قول الله تعالى في سورة "المنافقون": ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقول سعيد في الأثر: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾؛ يريد قوله ﷻ في سورة "طه": ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

هذه هي المواضع التي يقصدها سعيد بن جبير في أثره، وبعد بيان هذه المواضع نشرع في الإجابة على هذا الأثر بما يلي:

الجواب الأول: قول سعيد بن جبير في القرآن: أربعة أحرف لحن؛ المراد باللحن في هذا الأثر اللغة التي كتبها أو القراءة؛ وأن فيها قراءة أخرى، وليس المراد باللحن الخطأ، ويدل على ذلك الوجه قول عمر في الحديث عن قراءة أبي عن ابن عباس قال: قال عمر: "عليٌّ أقضانا، وأبي أقرؤنا، وإنا لندع كثيرًا من لحن أبي".

الجواب الثاني: عن أثر سعيد بن جبير نقول فيه: كل الآيات التي جاءت في هذا الأثر لها توجيه لغوي سائغ، وليس فيها؛ أي خطأ من ناحية اللغة، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أ. قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ رفع علي الابتداء وخبره محذوف، والنية فيه هي التأخير عما في حيز "إن" من اسمها وخبرها كأنه قيل: إن اللذين آمنوا واللذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك، ومن قرأ "والصابئين" بالنصب لا إشكال فيها.

ب. قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ نصب على المدح وتقديره: وأمدح المقيمين، وهو قول سيبويه والمحققين، وإنما قطعت هذه الصفة عن بقية الصفات لبيان فضل الصلاة على غيرها من الأعمال، ومن قرأ "والمقيمون" بالرفع فلا إشكال فيها، وهي قراءة مالك بن دينار والجحدري وعيسى الثقفي وهي قراءة غير متواترة.

ج. قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقرأ بجزم "أكن" حملًا على المعنى، والمعنى: إن أخرتني أكن، ومن قرأ: "وأكون" بالنصب فتكون معطوفة على ما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾.

د. أما قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ فقد رسمت هذه الآية في المصحف العثماني من غير نقط ولا تشكيل ولا تشديد ولا تخفيف في نون "إن" ورسمت "هذان" هكذا هاء ثم ذال ثم نون من غير ألف ولا ياء بعد الذال، وذلك لكي تحتمل وجوه القراءات الأربع الواردة فيها وهي:

أولًا: قراءة نافع إذ يشددون نون "إنَّ" ويخففون نون "هذان" بالألف.

ثانيًا: قراءة ابن كثير؛ إذ يخفف النون في "إن" ويشدد النون في "هذان".

ثالثًا: قراءة حفص؛ إذ يخفف النون في "إن" و"هذان".

رابعًا: قراءة أبي عمر بتشديد "إن" وبالياء في "هذان" فيقرؤها "هذين".

وهذه القراءات وردت كلها بأسانيد صحيحة، ولها توجيهات لغوية سائغة ومقبولة قد ذكرها أهل اللغة في كتبهم وارجع على سبيل المثال إلى كتاب (التبيان في إعراب القرآن) لأبي البقاء العكبرى -رحمه الله- وكذلك كتاب (شرح شذور الذهب) للشيخ زكريا الأنصاري -رحمه الله- وبذلك أكون قد أنهيت الكلام والجواب على أثر سعيد بن جبير.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن دعوى وقوع اللحن في المصاحف العثمانية هي من أوهى الدعاوى وأضعفها وأسخفها، وقد نسف علماء المسلمين هذه الدعوى من قواعدها، وبينوا ما تنجلي به هذه الدعوى أتم بيان؛ فسقطت الدعوى وزالت الشبهة، ولله الحمد والمنة.

الآثار الواردة عن ابن عباس فيما يتعلق بوقوع الخطأ في كتابة المصاحف العثمانية، والرد عليها

ومما هو وثيق الصلة بالدعوى السابقة؛ لا بد أن نقف مع بعض الآثار التي نسبت إلى سيدنا عبد الله بن عباس } هذه الآثار تشتمل على ما يظنه الطاعنون أنه تحريفًا أو خطأ وقع أثناء نسخ المصاحف العثمانية؛ لذلك نقول: ادعى بعض الطاعنين على جمع ونقل القرآن الكريم أن هذا النقل قد حصل فيه خطأ من الكتاب والقراء عند كتابة المصاحف العثمانية ويتعلق في ذلك بآثار رويت عن بعض الصحابة في ذلك من ذلك.

من هذه الآثار: ما روي عن سيدنا عبد الله بن عباس } في بعض الآيات القرآنية التي يذكر أن فيها خطأ، وفيما يلي سوف نقف وقفة مع عرض هذه الآثار أولًا، ثم الجواب على هذه الآثار ثانيًا، فالله ﷻ هو المستعان وعليه التكلان ومنه الهداية والتوفيق.

أولًا: عرض الآثار الواردة عن سيدنا عبد الله بن عباس } فيما يتعلق بوقوع الخطأ في كتابة المصاحف العثمانية:

ورد عن ابن عباس } أنه كان يقرأ: "لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها"، قال: وإنما "تستأنسوا" وهم من الكتاب؛ أي أنه كان يقرأ بدلًا من ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ كما هي في المصاحف العثمانية كان يقرؤها: "حتى تستأذنوا".

هذا الأثر رواه الإمام الطبري في (تفسيره) وكذلك رواه أبي داود في كتابه (المصاحف).

كذلك ورد عن سيدنا بن عباس } أنه قرأ قوله تعالى في سورة "الرعد": ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [الرعد: ٣١] قرأها بن عباس: "أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا" فقيل له: إنها في المصحف ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ فقال -أي: ابن عباس-: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس. وهذا الأثر رواه الإمام الطبري في (تفسيره).

كذلك ورد عن ابن عباس } أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أنه كان يقول فيها: إنما هي "ووصى ربك" والتزقت الواو بالصاد؛ أي التصقت الواو بالصاد، فكان يقرأ ﴿وَقَضَىٰ﴾ كان يقرؤها "ووصى".

كذلك ورد عن ابن عباس } أنه كان يقرأ قوله تعالى في سورة "الأنبياء": ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] كان يقرؤها: "ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين" بحذف الواو بين الفرقان وضياء، ويقول: خذوا هذه الواو واجعلوها في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

كذلك ورد عن ابن عباس } في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ [النور: ٣٥] قال: هي خطأ من الكاتب وهو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة، إنما هي "مثل نور المؤمن كمشكاة"، وقد ورد هذا الأثر في كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للإمام السيوطي -رحمه الله.

فزعم الطاعنون أن هذه الآثار السابقة دلت على أن كتَّاب المصاحف قد أخطئوا وجه الصواب في كتابة المصاحف، وانبنى على تلك الأخطاء قراءة القراء بعد ذلك.

كان هذا عرضًا للآثار التي قامت عليها هذه الدعوى؛ دعوى وقوع الخطأ في كتابة المصاحف العثمانية، أو الآثار التي أرادها الطاعنون عن ابن عباس فيما يتعلق بهذا الموضوع، وفيما يلي أبين الجواب الكافي والرد الوافي على هذه الآثار، والله المستعان.

الجواب على هذه الآثار:

يجاب عن هذه الآثار بطريقين:

الطريق الأول: هو طريق الأجوبة العامة؛ فقد أجاب العلماء -رحمهم الله- عن هذه الآثار في الجملة بوجوه عامة؛ منها:

أولًا: جنح ابن الأنباري -رحمه الله- وغيره إلى تضعيف هذه الروايات ومعارضتها بروايات أخرى عن ابن عباس وغيره بثبوت هذه الأحرف في

القراءة، ويدل على ضعف هذه الروايات إحالة العادة خفاء الخطأ في مثل القرآن التي تواترت الهمم على نقله وحفظه، وكذلك تحيل العادة عدم انتباه الصحابة إلى ذلك، قال الزمخشري: هذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتًا بين دفتي المصحف الإمام، وكان متقلبًا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهتمين به لا يغفلون عن جلائله ودقائقه خصوصًا وهو القانون الذي إليه المرجع، وكذلك هو القاعدة التي عليها البناء، هذه والله فرية ما فيها مرية.

ثانيًا: ما سبق من بيان الصحابة } لم يكتبوا مصحفًا واحدًا، بل كتبوا عدة مصاحف، وأن أحدًا لم يذكر أي المصاحف التي وقع فيه الخطأ، ويبعد اتفاق جميع المصاحف على ذلك الخطأ المزعوم، قال الإمام الطبري -رحمه الله- تعليقًا على أثر من الآثار السابقة المنسوبة لابن عباس } : فلو كان ذلك خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف بخلاف ما هو في مصحفنا، ثم يقول الطبري بعدها: وفي نقل المسلمين جميعًا لذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسومًا أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع في ذلك للكاتب.

ثالثًا: إذا سلمنا بصحة تلك الروايات فإننا نردها؛ لأنها معارضة للقاطع المتواتر من القرآن الكريم، وكما قلنا قبل ذلك: فإن معارض القاطع ساقط لا يلتفت إليه، والقراءة التي تخالف رسم المصحف هي قراءة شاذة لا يلتفت إليها ولا يعول عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ومن زعم أن الكاتب قد غلط فهو الغالط غلطًا منكرًا؛ فإن المصحف منقول بالتواتر، وقد كتبت عدة مصاحف، فكيف يتصور في هذا غلط؟.

رابعًا: تدفع هذه الروايات الواردة عن ابن عباس } بوجه عام بأن نقول: إن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وعن أبي بن كعب، وقد كانا في جمع المصاحف في زمن عثمان > وكان زيد هو الذي جمع القرآن بأمر أبي بكر الصديق > أيضًا، وكان زيد هو كاتب الوحي، وكان يكتب بأمر النبي ﷺ وإقراره، وابن عباس كان يعرف له ذلك، فمن غير المعقول أن يأخذ عنهما القرآن، ثم يطعن فيما كتباه في المصاحف؛ أي من غير المعقول أن يأخذ ابن عباس عن زيد بن ثابت وعن أبي بن كعب ثم يطعن عليهما بعد ذلك فيما أثبتاه في المصاحف العثمانية، ويدل على ذلك أن عبد الله بن عباس } كان من صغار الصحابة، وقد قرأ القرآن على أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وقد روى القراءة عن عبد الله بن عباس أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمر وغيرهم من القراء، وليس في قراءتهم شيء مما تعلق به الطاعنون، بل قراءة بن عباس موافقة لقراءة الجماعة.

كان هذا هو ما يتعلق بالطريق الأول الذي نجيب به عن تلك الآثار؛ ألا وهو طريق الأجوبة العامة التي رد بها العلماء -رحمهم الله- على هذه الدعوة.

أما الطريق الثاني فهو طريق الأجوبة الخاصة؛ تلك الأجوبة التي ترد على كل أثر على حدة، وهذا هو ما سوف يأتي معنا فيما يلي بمشيئة الله تعالى.

الجواب عن الآثار المروية عن سيدنا عبد الله بن عباس فيما يتعلق بوقوع الخطأ في المصاحف العثمانية:

الأثر الأول: في قوله ﷻ في سورة "النور": ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧] هذه الآية تلاوتها هي كما سبق في المصحف العثماني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ

﴿أَهْلِهَا﴾ إلا أن ابن عباس } قد ورد عنه أنه كان يقرأ بدلًا من ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ كان يقرأ: "تستأذنوا" وكان يعلق على القراءة الثابتة في المصاحف العثمانية بأنها قراءة خاطئة.

الجواب على ذلك الأثر نقول: هذه الرواية غير ثابتة عن ابن عباس } .

قال الإمام أبو حيان -رحمه الله-: ومن روى عن ابن عباس } أن قوله: ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ خطأ أو وهم من الكاتب وانه قرأ: "حتى تستأذنوا" فهو طاعن في الإسلام فهو ملحد في الدين وابن عباس بريئ من هذا القول.

ثم يضيف الإمام أبو حيان -رحمه الله- قائلًا: و﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ متمكنة في المعني بينة الوجه في كلام العرب.

ويقطع الدكتور أبو شهبة -رحمه الله- دابر كل شك بواضح اليقين عندما يقول: وهذه الرواية على فرض صحتها هي رواية آحادية، والآحادي لا يعارض القطعي الثابت بالتواتر، ولا يثبت بالرواية الآحادية قرآن لا سيما وقد خالفت رسم المصحف، فما بالك وهي رواية ضعيفة معارضة بروايات أخرى عن ابن عباس } .

كذلك يقال في الجواب والرد عن هذا الأثر: يحتمل أن ابن عباس } قرأها ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ وفسرها بعد ذلك بالاستئذان فيكون كلامه تفسيرًا وليس قراءة؛ فعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ قال: الاستئناس هو الاستئذان، وقد روى ذلك الأثر الإمام الطبري في تفسيره، فيحمل الكلام على أنه كان تفسيرًا وليس تصويبًا أو تصحيحًا أو تخطئة للقراءة أو للرسم الثابت في المصاحف العثمانية. كان هذا هو الجواب على الأثر الأول في آية سورة "النور".

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الأثر الثاني: الوارد عن ابن عباس { في آية "الرعد" تلك الآية التي يقول فيها الحق ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

في هذه الآية التي وردت في سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ورد أثر عن ابن عباس أنه كان يقرأ بدلًا من ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ كان يقول: "أفلم يتبين".

والجواب عن هذا الأثر كما يلي:

أولًا: الرواية بذلك عن ابن عباس مطعون في ثبوتها، قال الإمام أبو حيان -رحمه الله-: وأما قول من قال: إنما كتبها الكاتب وهو ناعس فسوى أسنان السين فقول زنديق ملحد، وهنا نرى أن الإمام أبا حيان -رحمه الله- يصف من قال هذا القول بالزندقة والإلحاد.

ثانيًا: على فرض ثبوت هذه الرواية فيحتمل أن قول ابن عباس { كتبها وهو ناعس يكون المعنى أنه لم يتدبر الوجه الذي هو الأولى، وهذا الرد محتمل في كل هذه الروايات.

الأثر الثالث الوارد عن ابن عباس في هذه الدعوى: ألا وهو الأثر المتعلق بآية سورة "الإسراء" التي يقول فيها الحق ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إذ قد ورد عن ابن عباس { أنه كان يقرأ بدلًا من ﴿وَقَضَىٰ﴾ كان يقرؤها "ووصى" والجواب على ذلك الأثر كما يلي:

أولًا: استفاض عن ابن عباس { أنه قرأ ﴿وَقَضَىٰ﴾ وذلك دليل على أن ما نسب إليه في كل الروايات من الدسائس التي لفقها أعداء الإسلام، قال الإمام

أبو حيان -رحمه الله-: والمتواتر هو ﴿وَقَضَىٰ﴾ وهو المستفيض عن ابن مسعود وعن ابن عباس وغيرهم في أسانيد القراء السبعة.

الأثر الرابع هو الأثر المتعلق بآية سورة "الأنبياء"، والتي يقول فيها الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] فقد جاء عن ابن عباس أنه كان يحذف الواو بين كلمتي ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾.

والجواب: الرواية الواردة عن ابن عباس في حذف الواو الواردة قبل كلمة "ضياء" في هذه الآية هي رواية ضعيفة ولا تصح، كذلك ذكر الواو في هذه الآية هو الذي تقضي به البلاغة وليس حذفها؛ سواء فسر الفرقان بالتوراة أم بالنصر، وقد روي تفسير الفرقان بالنصر عن ابن عباس وغيره ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] فالمراد بالفرقان في هذه الآية هو يوم بدر، وبيان ذلك كما يلي:

على التفسير الأول؛ فيكون المراد بالفرقان والضياء والذكر التوراة، فهي فرقان؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، وهي ضياء؛ لأنها تنير الطريق للسالكين، وهي ذكر لما فيها من التذكير والمواعظ، ومثل هذا الأسلوب يجوز أن يأتي بدون الواو على أنه حال، ويجوز أن يأتي بالواو، وكل بليغ، ولكن الإتيان بالواو أبلغ تنزيلًا لتغاير الصفة منزلة تغاير الذوات، ولذلك سر بلاغي في التنزيل وهو الإشارة إلى بلوغ التوراة درجة عالية في كونها ضياء حتى أضحت كأنها جنس مستقل برأسه عن سابقه، ومثل هذا السر لا يتم على حذف الواو.

أما على التفسير الثاني؛ بأن المراد بالفرقان هو النصر فتكون الواو لازمة لتغاير المعطوف والمعطوف عليه، ويكون المراد بالضياء التوراة أو الشريعة. وبذلك نكون قد أنهينا الجواب على الأثر المتعلق بسورة "الأنبياء".

أما الأثر الخامس: المتعلق بسورة "النور"، والذي يبين أن ابن عباس كان يقرأ قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ كان يقول: "مثل نور المؤمن كمشكاة فيها مصباح"؛ فالجواب على ذلك ما يلي:

أولًا: لم ينقل أحد من رواة القراءة أن ابن عباس } كان يقرأ: "مثل نور المؤمن"، وهذا يدل على عدم صحة هذا النقل عن ابن عباس } إذ كيف يقرأ ما يعتقد أنه خطأ، ويترك ما يعتقد أنه صواب، وعليه فإن هذه الرواية غير صحيحة أصلًا.

ثانيًا: لو نسبت هذه القراءة لأبي بن كعب لكان الأمر أهون، فقد ورد أن أبيًّا > كان يقرأ: "مثل نور المؤمن"، وهذه قراءة شاذة مخالفة لرسم المصاحف، وينبغي أن تحمل على أنه أراد تفسير الضمير في القراءة المتواترة، أو على أنها قراءة منسوخة.

وبذلك نكون قد أجبنا على الآثار التي رويت عن ابن عباس } فيما يتعلق بدعوى وقوع الخطأ أثناء نسخ المصاحف العثمانية.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن دعوى وقوع اللحن أو الخطأ في المصاحف العثمانية هي من أوهى الدعاوى وأضعفها وأسخفها، وقد رد علماء المسلمين على هذه الدعوى وكشفوا تهافتها وضعفها فلله الحمد والمنة.

ويبقى من تتمة الكلام على هذا الموضع أن أبين ملاحظة قد لوحظت على ما يعرضه الطاعنون فيما يتعلق بهذه الدعوى؛ فأقول في هذه الملاحظة: إذا كان الطاعنون يعتمدون بشكل أساسي ورئيس على النقل من كتاب (المصاحف) لابن أبي داود فإنهم ينقلون بدون دقة وبدون أمانة وبدون نزاهة، والدليل على انتفاء الدقة والأمانة والنزاهة عند هؤلاء الطاعنين أن ابن أبي داود عندما بدأ في

الكلام على قضية اللحن تحت عنوان "ألحان العرب في المصاحف" ذكر شيئًا في غاية الأهمية حيث قال: والألحان اللغات، هكذا ذكر ابن أبي داود في كتاب (المصاحف) الذي ينقل عنه الطاعنون، قال ابن أبي داود: الألحان اللغات، وهنا لا بد وأن نحلل الكلام، ولا بد وأن نستنبط منه ما يرد على هؤلاء الطاعنين، وما يكشف عدم أمانتهم العلمية، وعدم نزاهتهم فنقول: ذكر ابن أبي داود هذا المعنى أولًا -أي: معنى أن الألحان هي اللغات- ثم شرع في سرد الآثار الواردة في اللحن بعد توجيهه لمعنى اللحن، وأنه يريد باللحن اللغة.

ومما هو معلوم أن اللحن يأتي في اللسان العربي على عدة معانٍ، ومن أبرز هذه المعاني أنه يأتي بمعنى اللغة كما ذكرنا قبل ذلك، فقصر الطاعنين معنى اللحن على أنه هو الخطأ إنما يدل دلالة أكيدة على سوء نيتهم وعلى فساد طويتهم.

وبعد أن أورد ابن أبي داود أثر عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال -أي ابن أبي داود-: هذا عندي يعني بلغتها؛ أي أنه يفسر اللحن باللغة، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو لماذا لم ينقل الطاعنون كلام ابن أبي داود كاملًا في تعليقه على هذه الآثار؟ لماذا لم يثبت الطاعنون التوجيه الذي ذكره ابن أبي داود لمعنى اللحن؟ أتراهم قد أبصروا الآثار فقط ثم عميت عيونهم وأبصارهم عن التوجيه والتعليق الذي ذكره ابن أبي داود.

كل ما سبق يدل دلالة يقينية على خبث النية وسوء الطوية عند الطاعنين حيث إنهم لا ينقلون إلا ما يحلو لهم، وإلا ما يوافق أمزجتهم ويخدم أغراضهم، أما البحث العلمي النزيه فهو بعيد تمام البعد عما يفعله الطاعنون.

وفي نهاية الكلام على دعوى وقوع اللحن أو الخطأ أثناء كتابة المصاحف العثمانية أرد برد عام على هذه الدعوى وعلى القائلين بها فأقول: لقد نزل القرآن في

عصر أرباب الفصاحة وأهل البلاغة أولئك اللذين كانوا يرتجلون القصائد الطويلة من الشعر، وينتقدون الشاعر بمجرد إلقائه لقصيدته، ولم نسمع أحدًا منهم انتقد القرآن في أي وجه من الوجوه، ولم يسجل لنا التاريخ حادثة انبرى فيها أحد فطاحل اللغة لينتقص لفظة وحرفًا أو تشبيهًا جاء في القرآن فهل يظن المبشرون أنهم قد فاقوا العرب الخلص في البلاغة والفصاحة حتى يستدركوا عليهم ما فاتهم من لحن أو خطأ في القرآن؟ لقد فات هؤلاء الجاهلون بالعربية البعيدون عن لغتها وقوميتها وأصولها وأسسها أن قواعد النحو والبيان إنما هي موضوعة على أساس القرآن الكريم؛ لأنه هو الأصل العربي الذي تواتر عن النبي ﷺ وتحدى به أفصح العرب منطقًا وأبلغهم قولًا؛ فعجزوا عن الإتيان بمثله، فكل ما يخالفه من العبارات يكون غير عربي بدون نزاع، فهل يظن هؤلاء الغارقون في الجهالة أن قواعد سيبويه والخليل أصل يطبق على القرآن فيقال لما خالف هذه القواعد: إنه لحن، إن كانوا يقولون ذلك فقد بلغ بهم الجهل غايته؛ لأن الواقع أن قواعد الخليل وسيبويه وغيرهما إنما تكون صحيحة إذا وافقت القرآن الكريم، أما إذا خالفته في شيء فإنها تكون غلطًا بدون نزاع.

مما سبق يتبن أن هذه الدعوى من أسخف الدعاوى الموجهة إلى القرآن؛ فهؤلاء المبشرون الذين ظهروا بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنًا يريدون أن يخبرونا أن القرآن فيه أخطاء لغوية أو نحوية مع أنه عرض على فصحاء العرب وعلماء اللغة، ولم ينقم عليه أحد منهم شيئًا في لغة القرآن؛ فإذا بهؤلاء بعد هذه الأزمنة المتطاولة والإجماع القطعي يخرجون لنا بهذه البائقة التي أضحكت عليهم المجانين فتراهم يريدون أن يعلمونا لغتنا، وهم لا يفقهون منها شيئًا، ولا يستحسنون صياغة مقال واحد، وإنه ليصح لنا في هذا المقام أن نتمثل قول الشاعر:

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ ❖ وعير قسًا بالفهاهة باقلُ
وقال السُّهى للشمس أنت خفيةٌ ❖ وقال الدجى للصبح لونك حائل
فيا موت زر إن الحياة ذميمةٌ ❖ ويا نفس جدّي إن دهرك هازل

ادعاء وجود الاختلاف بين مصاحف الصحابة والتابعين وبين المصحف العثماني

وبعد الانتهاء من الكلام على دعوى وجود اللحن أو الخطأ في المصاحف العثمانية أختم الكلام ببيان دعوى من دعاوى الطاعنين تتعلق أيضًا بالمصحف العثماني ؛ فقد أورد الطاعنون قائمة تحتوى على أسماء اثنين وعشرين مصحفًا للصحابة والتابعين، هذه المصاحف يوجد بها اختلاف عما هو موجود في المصحف العثماني، وقد نقلوا هذه القائمة من كتاب (المصاحف) لابن أبي داود، وهذه الدعوى يمكن أن يعنون لها بعنوان: ادعاء وجود الاختلاف بين مصاحف الصحابة والتابعين وبين المصحف العثماني، وان كان طرف من هذه الدعوى قد رددنا عنه هذا الدرس فالله المستعان.

في البداية نلفت النظر إلى أن الطاعنين في هذه الدعوى قد رددوا كل ما ردده من قبل المستشرق "آرثر جفري"، ويتضح ذلك واضحًا جليًّا عندما نطالع تلك المقدمة التي كتبها "آرثر جفري" عند إخراجه ونشره لكتاب (المصاحف) لابن أبي داود حيث قال: "وكانت هذه المصاحف يختلف بعضها عن بعض ؛ لأن كل نسخة منها اشتملت على ما جمعه صاحبها وما جمعه واحد لم يتفق حرفيًّا مع ما جمعه الآخرون"، كان هذا هو كلام الطاعنين في هذه الدعوى، وفيما يلي أبين الجواب والرد على هذه الدعوى، فالله المستعان.

فنقول أولًا: ما نسب لبعض الصحابة من أنه كانت لهم مصاحف خاصة بهم ليست مصاحف بالمعنى المعروف، وإنما كانت عبارة عن أوراق أو أجزاء فيها

بعض سور من القرآن، قال الإمام ابن عبد البر -رحمه الله- : وأجمع العلماء أننا في مصحف عثمان بن عفان > هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحل الصلاة إلا بما فيه، وأن كل ما روي من القراءات في الآثار عن النبي ﷺ أو عن أُبي أو عن عمر بن الخطاب أو عائشة أو ابن مسعود أو ابن عباس أو غيره من الصحابة { مما يخالف مصحف عثمان المذكور لم يقطع بشيء من ذلك على الله ﷻ ولكن ذلك في الأحكام يجري في العمل مجرى خبر الواحد، وإنما حل مصحف عثمان هذا المحل لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، ولم يجمعوا على ما سواه، وبالله التوفيق.

ويبين هذا أن من دفع شيئًا من مصحف عثمان كفر، ومن دفع ما جاء في هذه الآثار وشبهها من القراءات لم يكفر، ومثل ذلك من أنكر صلاة من الصلوات الخمس، واعتقد أنها ليست واجبة عليه كفر، ومن أنكر أن يكون التسليم من الصلاة لم يكفر ونوظر، فإن بان له فيه الحجة وإلا عذر إذا قام له دليله، وإن لم يقم له على ما ادعاه دليل محتمل هجر وبدع، فكذلك ما جاء من الآيات المضافات إلى القرآن في الآثار فقس على هذا الأصل.

ثانيًا: دون كل صحابي ما تيسر له من القرآن دون التزام بتدوين كامل للقرآن، ومن ثم فإنه من البدهي أن يكون عند أحدهم ما ليس لدى الآخر من السور والآيات، وهذا ليس من الاختلاف في شيء.

ثالثًا: ما حصل من اختلاف في بعض الكلمات أو الآيات فذلك ناشئ لنزول القرآن على سبعة أحرف، وليس هذا اختلاف تضاد ولا تباين، وإنما هو اختلاف في أوجه القراءة التي تؤدى بها كلمات القرآن، وإذا وضح هذا فقد تجلى لنا

جميعًا أن ما قصده الطاعنون هو الطعن في نص القرآن واثبات الاختلاف المنزه عنه القرآن ؛ إلا أن الردود السابقة تجيب على هذه الدعوى والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

واختم الكلام ببيان بعض الملاحظات على ابن أبي داود، وعلى كتابه (المصاحف) فأذكر كلام الإمام الدارقطني -رحمه الله- في ابن أبي داود قال فيه : هو ثقة كثير الخطأ في الكلام عن الحديث، كذلك مما أريد بيانه فيما يتعلق بكتاب المصاحف أقول: لقد كتب ابن أبي داود كتابه (المصاحف) على طريقة المحدثين فروى بأسانيده أحاديث كثيرة وآثارًا كثيرة، وقد تناولت هذه الآثار كثيرًا من القضايا المتعلقة بالقرآن إلا أنه قد وقع في هذا الكتاب بعض الآثار الضعيفة التي استغلها الطاعنون ليخلصوا من ورائها إلى زعزعة الثقة بثبوت القرآن في نفوس ضعاف الإيمان.

ثانيًا: يلاحظ أن ابن أبي داود لم يوفِ في بعض أبواب كتابه (المصاحف) والذي يظهر أن ابن أبي داود كان بضع عناوين الأبواب في مقدمة أمره وبداية تأليفه لكتاب (المصاحف) ثم بعد ذلك يذكر الأحاديث أو الآثار المتعلقة بالباب، ومما هو جدير بالذكر أن هناك بعض الأبواب لم يذكر فيها المؤلف إلا أثرًا واحدًا، بل العجيب أنه عقد في باب مصاحف التابعين عنوانًا باسم "مصحف طلحة بن مصرف" ولم يورد تحته أي أثر إلا أنه يعتذر عن ابن أبي داود في ذلك بأنه من أوائل المؤلفين في علوم القرآن فحاله كما قال ابن الأثير -رحمه الله- : "إن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه ومبتدع أمرًا لم يتقدم فيه عليه فإنه يكون قليلًا ثم يكثر ويكون صغيرًا ثم يكبر".

ثالثًا: هذا الكتاب -ألا وهو كتاب (المصاحف) لابن أبي داود- هو أحد المصنفات التي ألفت عن المصاحف التي وجدت قبل المصحف الإمام الذي جمع سيدنا عثمان الناس عليه، وشاء الله تعالى أن لا يبقى من هذه المؤلفات والمصنفات إلا كتاب (المصاحف) لابن أبي داود، وقد أحيا مؤلفو هذه المصنفات -غفر الله لهم- خلافًا عمل أمير المؤمنين عثمان بن عفان على وأده وقطعه حين جمع الناس على مصحف واحد هو المصحف الإمام، نعم لقد كان لبعض الصحابة ملازم وأجزاء خاصة بهم، ووجد في هذه المدونات بعض الاختلاف عن المصحف الإمام، ولكن هذا الاختلاف لا يعدو أن يكون زيادة ألفاظ مدرجة في المصحف كنوع من التفسير والبيان كما ذكر الإمام السيوطي -رحمه الله.

تابع الملاحظات على كتاب المصاحف لابن أبي داود، والشبهات المتعلقة بالأحرف السبعة (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تابع الملاحظات على كتاب (المصاحف) لابن أبي داود	٢٦٩
العنصر الثاني :	عرض موجز لأبرز الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف، وما يستفاد من هذه الأحاديث	٢٧٥

تابع الملاحظات على كتاب (المصاحف) لابن أبي داود

لقد كان لبعض الصحابة ملازم، وأجزاء خاصة به، ووجد في هذه المدونات بعض الاختلاف عن المصحف الإمام، ولكن هذا الاختلاف لا يعدو أن يكون زيادة ألفاظ مدرجة في المصحف كنوع من التفسير، والبيان، فهذه الزيادات ليست قرآنًا، وإنما هي بدايات لعلم التفسير، أما ما روي من وجوه القراءات الشاذة، فإن المسلمين يقطعون بأنه ليس قرآنًا.

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (تاريخ القرآن): نقرر أن ما تحصل لدينا من الروايات، التي أعثرنا عليها البحث في مصادر القراءات الشاذة، التي اعتمدنا عليها، وكذلك ما رتبه المستشرق "آرثر جفري" من مادة كتاب المصاحف، كل ذلك ليس بقرآن، وإنما هو من الباب، الذي ذكرنا أي: من باب القراءات الشاذة أو التفسيرية، ونحن نرى أن تلك الزيادات البيانية كانت ضرورية، وأن وجودها كان طبيعيًّا في تلك الظروف التاريخية، وهي في نظرنا تعد الملامح الأولى لما عرف بعد ذلك بعلم تفسير القرآن.

وفيما يلي أبين بعض النصوص من كتاب (المصاحف) نفسه الذي اعتمد عليه الطاعنون التي تبين إجماع الصحابة على عمل سيدنا عثمان < وتبين استحسان الصحابة في هذا العمل، فهذا الإمام علي بن أبي طالب < وهو أحد اللذين، ورد أن لهم تدوينًا خاصًّا بهم يقول < حين حرق عثمان المصاحف: "لو لم يصنعه لصنعته"، وهذا الأثر وارد في كتاب (المصاحف) لابن أبي داود، وهو إن دل فإنما يدل على إقرار علي بن أبي طالب لفعل سيدنا عثمان، بل واستحسان الإمام علي لفعل سيدنا عثمان } .

ثم يذكر ابن أبي داود عن مصعب بن سعد قوله: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك". وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد، ويعلق ابن أبي داود نفسه على قراءة أبي بن كعب > تلك القراءة التي قرأ فيها "فصيام ثلاثة أيام متتابعات" في كفارة اليمين، يعلق ابن أبي داود على هذه القراءة بقوله: "لا نرى أن نقرأ القرآن إلا لمصحف عثمان الذي اجتمع عليه أصحاب النبي ﷺ فإن قرأ إنسان بخلافه في الصلاة أمرته بالإعادة".

هذا هو كلام ابن أبي داود بنفسه في كتاب (المصاحف)، فإذا كان هذا هو رأي ابن أبي داود نفسه، فإننا نسأل: لماذا إذًا أجهد ابن أبي داود نفسه بجمع هذه الروايات العجيبة؟ ولماذا أحيا خلافًا أراد أمير المؤمنين وأده؟ لماذا جمع ابن أبي داود هذه الروايات، التي اختلط فيها الحق بالباطل؟ والتي لم تنشر إلا بعد اتساع الفتن، ورجوع بعض الناس إلى النفاق؟

وإذا كان العلامة الشيخ محمد أبو زهرة -رحمه الله- قد انتقد كلًّا من الإمام الزركشي في (البرهان)، والإمام السيوطي في كتابه (الإتقان) انتقدهما لذكرهما روايات غير صحيحة، وبعيدة عن معنى تواتر القرآن الكريم؛ حيث قال: إن مصحف عثمان يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه، وأن الشك فيه كفر، وأن الزيادة عليه لا تجوز، وأنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة، ثم قال: لماذا كانت الروايات الغريبة والبعيدة عن معنى تواتر القرآن، تلك الروايات التي احتوتها بطون الكتب (كالبرهان) للزركشي، و(الإتقان) للسيوطي، التي تجمع كما يجمع حاطب ليل مع أن القرآن كالبناء الشامخ الأملس، الذي لا يعلق به غبار؟

أقول: إذا كان هذا هو تعليق العلامة أبي زهرة -رحمه الله- على ما ورد في (البرهان) للإمام الزركشي، أو ما ورد في (الإتقان) للإمام السيوطي، فكيف لو

رأى هذا الكم الهائل من تلك الروايات الموجودة في كتاب (المصاحف) تلك الروايات التي اعتمد عليها الطاعنون في شبهاتهم تجاه القرآن؟

أغلب الظن أنه سيقول ما قاله الأستاذ إبراهيم الإبياري عن تلك المصنفات عن المصاحف واختلافها، وتلك الدراسات التي لا تملك الأدلة الصحيحة، والمنهج العلمي السليم يقول: تلك دراسة بتراء لا تملك أسلوبها العلمي الصحيح، ولو كنت أملك لعفيت آثاره كما عفا عثمان آثارًا مثله، ولن أكون معهما متجنيًا أو متعسفًا وخائفًا، بل أكن مع الحزم الذي اتصف به عثمان، وناصره عليه علي، واجتمع معه في الرأي اثنا عشر صحابيًّا } جمعهم عثمان لهذا العمل الجليل.

إن الإمام ابن أبي داود بتصنيفه لكتاب (المصاحف)، وبتجميعه لتلك الروايات الشاذة والغريبة قد أقدم على صنيع صار طعمًا لأعداء الإسلام والطاعنين، بحيث لا يرون إلا هذه الروايات الشاذة وأمثالها يبنون عليها حقائقهم، أو بعبارة أدق يبنون عليها افتراءاتهم وظنونهم.

لقد كان الإمام ابن أبي داود مولعًا بإيراد الروايات المتضاربة والمختلفة في الموضوع الواحد، وقد تكون إحداها صحيحة وقاطعة في القضية المطروحة، لكن المؤلف يأبى إلا أن يكون حاطب ليل.

وفيما يلي بعض الأمثلة التي تناسب المقام وتوضح ما نقوله عن كتاب المصاحف، فعلى سبيل المثال نرى أن ابن أبي داود لا يكفيه حديث أنس بن مالك > الذي رواه الإمام البخاري في كتاب "فضائل القرآن"، والذي ينص فيه على أمر عثمان > في إحراق ما عدا المصحف الإمام، حتى يذكر روايات عن إغراق المصاحف، ويذكر كذلك روايات عن تمزيق المصاحف، وابن أبي داود يطلق أحيانًا أحكامًا خطيرة متعلقة باختلاف المصاحف، ولا يستدل لها

بدليل سوى بعض الروايات الموضوعة والملفقة، فيذكر عن أحد أحفاد عبد الله بن عمر أنه أخرج مصحف جده، وأراه لأبي بكر بن عياش، فقال له أبو بكر بن عياش: فأخرج حروفًا تخالف حروفنا، والعجيب أنه لم يسجل في كتاب (المصاحف) عقب هذا الأثر رواية واحدة تدل على هذه المخالفة.

مما سبق يتبن أن مجمل الأسس التي يقوم عليها منهج الطاعنين هي:

أولًا: بناء جميع تصوراتهم على الآراء، والظنون، والأوهام.

ثانيًا: بناء جميع تصوراتهم على اعتبار المتن دون اعتبار الإسناد، حتى لو أدى الأمر إلى أن يختاروا من آراء القدماء ما كان سنده ضعيفًا، لكنه يطابق الواقع في رأيهم، وإن كان يناقض المتواتر الثابت القطعي.

هذه الأسس تتناقض تمامًا مع المنهج النقدي الأصيل لدى المسلمين، في بحث المرويات المتعلقة بالكتاب والسنة، وهنا يحق لنا أن نتساءل: كيف يمكن لباحث بهذا المنهج السقيم -الذي يرفض النص المتواتر حفظًا وكتابة ويقبل الآثار الضعيفة عندما توافق هواه- أن يصل إلى الحق في تاريخ القرآن، وفي تدوين القرآن، وفي جمع القرآن، وفي كتابة القرآن؟ كيف يصل عن طريق جمع الآراء والظنون والأوهام والتصورات إلى الحق؟

هؤلاء وأمثالهم يصدق فيهم قول الحق ﷻ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، وإذا كانوا يزعمون أن غايتهم الأساسية من البحث هي الكشف عن الحقيقة، فهذا زعم كذبته جل بحوثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم.

مما سبق يتبين أن بعض المؤلفين قد يطلق لفظ مصحف فلان على بعض القراءات التي تنسب إلى أحد الصحابة، وهذا نوع من الاصطلاح، لكنه اصطلاح غير

دقيق، وخطره عظيم؛ إذ يوهم الاختلاف بين مصاحف الصحابة والمصحف الإمام، بل يعمقه ويشعر باستقلالية كل مصحف حتى إنه ليوضع لمصحف أبي موسى الأشعري < اسم خاص، فيسمى بـ"لباب القلوب"، ولم يذكر له سوى أربع سور من الاختلاف مع المصحف الإمام؛ ثنتان منها تخرجان على أنهما قراءتان، والباقيتان تخرجان على أنهما روايتان تفسيريتان، فهل من أجل أربع روايات نجعل مصحفًا خاصًّا لأبي موسى الأشعري < ونسميه بـ"لباب القلوب".

أختم الكلام ببيان إحصائية في غاية الأهمية ذكرها أحد العلماء المعاصرين، وهو الدكتور إسماعيل سالم عبد العال؛ إذ قام بإحصاء القراءات التي تصل إلى الصحابة من كتاب (الإقناع في القراءات السبع) لأبي جعفر الأنصاري، فوجدها كما يلي: علي بن أبي طالب < ينتهي إليه خمس قراءات من قراءات الأئمة السبعة، ابن عباس } ينتهي إليه خمس قراءات من قراءات الأئمة السبعة، ابن مسعود < ينتهي إليه ثلاث قراءات من قراءات الأئمة السبعة، أبي بن كعب < ينتهي إليه ثلاث قراءات من قراءات الأئمة السبعة، زيد بن ثابت < ينتهي إليه قراءتان من قراءات الأئمة السبعة، عثمان بن عفان < ينتهي إليه قراءتان من قراءات الأئمة السبعة. هذه الإحصائية ذكرها الدكتور إسماعيل سالم عبد العال في كتابه (المستشرقون والقرآن)، وهذا الكتاب هو إصدار من سلسلة دعوة الحق، التي تصدرها رابطة العالم الإسلامي العدد رقم مائة وأربعة.

فتلك الإحصائية من كتاب (الإقناع) تنقض وترد تلك الدعوى التي ادعاها الطاعنون فيما يتعلق باختلاف مصاحف الصحابة الخاصة عن المصحف الإمام الذي جمع سيدنا عثمان الناس عليه.

تلك هي حقيقة ما يسمى بمصاحف الصحابة واختلافها، تلك المصاحف التي حاول الطاعنون أن يهولوا من أمرها باستغلال مرويات أبي بكر بن أبي داود في كتاب (المصاحف)، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي النهاية أنصح أن من أراد أن يطالع كتاب (المصاحف) لابن أبي داود، فليطالعه بتحقيق الدكتور محب الدين واعظ، الذي فند أسانيد روايات هذا الكتاب، والذي رد على كل الروايات الضعيفة التي تمثل مطعنًا أو شبهة لأعداء الإسلام، فهذا هو الدواء لمن أراد أن يقرأ هذا الكتاب، وهذا هو الحل لمن أراد أن يراجع هذا الكتاب أن يراجعه بتحقيق الدكتور محب الدين واعظ -حفظه الله.

وأختم الجواب على كل الدعاوى المتعلقة بالجمع العثماني باستدلال عقلي في غاية الإبداع والقوة يدل على استحالة وقوع التحريف، أو الخطأ، أو اللحن من قبل سيدنا عثمان > هذا الجواب بيانه كما يلي:

لو فرضنا أن عثمان -وهو من السابقين الأولين- على ما به من الدين والتقوى وما له من الآيات البيضاء كتجهيزه جيش العسرة، وحفره بئر معونة، لو افترضنا أنه أراد أن يحرف شيئًا من كتاب الله تعالى، وهو بين أظهر الصحابة، وفيهم علي، وغيره، ممن قال لعمر بن الخطاب -وهو أشد بأسًا من عثمان-: "لو رأينا فيك عوجًا لقومناك بسيوفنا"، وقد قاموا } في وجهه > من أجل أمور إدارية، ومسائل دنيوي، أي: قاموا في وجه سيدنا عثمان، واعترضوا عليه > في أمور إدارية، ومسائل دنيوية، أفما كانوا يقومون في وجهه قومة الأسود في وجه من يريد أشبالها، يرمونه بالمروق من الدين، ويعزلونه من منصبه الرفيع بتلك الحجة القائمة، والبرهان الواضح، إذا هو أراد أن يحرف القرآن على غير ما أنزل الله؟

لعَمْر الحق لو أراد ذلك لما استطاع له سبيلًا، ولأصبح بين المسلمين ذليلًا إن لم يكن قتيلًا، وبذلك الجواب العقلي، والاستلال المنطقي، الذي اقتبسته من كلام الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوي أورده في كتابه (الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف).

بهذا الكلام، وبهذا الاستدلال أختم الكلام على ما يتعلق بالملاحظات على كتاب (المصاحف)، وعلى كاتبه ابن أبي داود، وبذلك أكون قد أنهيت الكلام على سلسلة من الدعاوى، والطعون متعلقة بالجمع العثماني.

عرض موجز لأبرز الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف، وما يستفاد من هذه الأحاديث

باب الأحرف السبعة:

ما برح أعداء القرآن يكيدون له يحاولون إطفاء نوره، وتشويه صورته، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون خاضوا فيه، واتبعوا ما تشابه منه ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧]، اتبعوا ذلك بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعزلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة والاختلاف، ولو كانوا ذهبوا إليه على حقيقته، لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتج عليه بالقرآن، وهم: الفصحاء، والبلغاء، والخطباء، والشعراء، والمخصصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللدد في الخصام مع اللب والنهى، وأصالة الرأي، ولم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم انتقدوه من الجهة التي انتقده منها أولئك الطاعنون.

ولا جرم أن تعاد هذه الدعاوى، وتطور بصيغ أخرى متنوعة في كتابات المبشرين؛ حيث يدسونها في دراساتهم التي يسمونها زورًا بالبحث العلمي الموضوعي.

ومسألة الأحرف السبعة تعد من أكثر المجالات، التي لجوا فيها بزيفهم، وضلالهم، ولقد تعلق النصارى منذ القديم بهذه المسألة، وجعلوا التنوع الحاصل في الأحرف السبعة مساويًا ومماثلًا ومعادلًا لاختلاف الأناجيل عندهم، وقد رد الإمام ابن حزم -رحمه الله- على النصارى؛ حيث قال: أما قولهم: إننا مختلفون في قراءة كتابنا؛ فبعضنا يزيد حروفًا، وبعضنا يسقطها يقول ابن حزم: فليس هذا اختلافًا بل هو اتفاق منا صحيح؛ لأن تلك الحروف كلها مبلغ بنقل الكوافي إلى رسول الله ﷺ، فأي تلك الوجوه قرأنا فهي صحيحة، وهي محصورة كلها مضبوطة معلومة لا زيادة فيها ولا نقص، فبطل التعلق بهذا القصد، ولله الحمد.

وقد زاد الإمام القرافي هذا الرد المفحم تأكيدًا وتقريرًا؛ حيث قال: هيهات ما كل سوداء تمرة، ولا كل بيضاء شحمة، أنزل الله ﷻ كتابه العزيز على خير رسله بلغة قريش، وقبائل العرب مختلفة اللغات في الإمالة، والتفخيم، والمد، والقصر، والجهر، والإخفاء، وإعمال العوامل الناصبة، والرافعة، والجارة، فلو كلفوا كلهم النطق على لغة واحدة لشق عليهم ذلك، فسأل ﷺ ربه أن يذهب الحرج، وكان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، فأنزلت القراءات لذلك، وكلها مروية عنه ﷺ متواترة، ونحن على ثقة في جميعها، وأنها عن الله تعالى وبإذنه متلقاة عن خير رسله فذهب اللبس، وحصل اليقين.

فالحاصل: أن اختلاف الأحرف السبعة ليس من قبيل الاضطراب، وعدم الثبات بل جميع ذلك حق ويقين، أعلمنا به الرسول الأمين ﷺ كما أن هذا الاختلاف

هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، وسيأتي تفصيل لذلك في هذا الباب بمشيئة الله وحوله وقوته.

بعد هذا التمهيد أتناول الحديث عن نقطتين رئيستين تتعلقان بقضية الأحرف السبعة:

النقطة الأولى: أتحدث فيها عن عرض موجز لأبرز الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف، وبيان ما يستفاد من هذه الأحاديث.

النقطة الثانية: عرض لكلام العلماء في بيان المراد بالأحرف السبعة.

أولًا: نزول القرآن على سبعة أحرف:

أنزل الله تعالى القرآن على نبيه ﷺ بلسان عربي مبين قال ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وكان ابتداء نزول القرآن على لسان قريش؛ إذ كانوا قوم النبي ﷺ وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وكانوا كذلك أوسط العرب دارًا ولسانًا، فقد كانت تأتيهم وفود العرب في مواسم الحج، وكانت تقام الأسواق للفصاحة والبيان حول الحرم، وكانت العرب تتحاكم إلى قريش لفصاحتها، وحسن لغتها، ورقة ألسنتها، وكانوا إذا أتتهم الوفود تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم؛ فصاروا بذلك أفصح العرب، عن أنس أن عثمان > قال للرهط القرشين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم"، ففعلوا ذلك.

قال القاضي الباقلاني -رحمه الله- : ومعنى قول عثمان : "إنه أنزل بلسان هذا الحي من قريش" أي : معظمه وأكثره نزل بلغتها، ولما كانت الأمة التي أرسل إليه النبي ﷺ أمية، وفيهم من لا يقدر على غير لسان قومه، سأل النبي ﷺ جبريل، فأخبره أن القرآن نزل على سبعة أحرف، فكان ذلك تيسيرًا على المكلفين ليسهل عليهم تلاوة القرآن، وحفظه، والعمل به.

فعن أبي بن كعب > قال : ((لقي رسول الله ﷺ جبريل، فقال : يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط، قال : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف)).

وقد ثبت : ((أن النبي ﷺ سأل الله التخفيف عن أمته في أوجه قراءة القرآن، فخفف الله عنهم بأمره للنبي ﷺ أن يقرئ أمته على سبعة أحرف)).

فعن أبي بن كعب > : ((أن رسول الله ﷺ، كان عند أضاة بني غفار، فأتاه جبريل # فقال : إن الله ﷻ يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف قال -أي : النبي ﷺ : أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله ﷻ يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، قال : أسأل الله معافاته ومغفرته، إن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله ﷻ يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله ﷻ يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرءوا عليه، فقد أصابوا)).

وقد أقرأ النبي ﷺ أصحابه بتلك الأحرف المنزلة عليه ﷺ، فكانوا يقرءون بها حتى أنكر بعضهم على بعض وجوهًا من القراءة، فأخبرهم ﷺ بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

فعن عمر بن الخطاب > قال: "سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة "الفرقان" في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة، التي سمعتك تقرأ بها؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة "الفرقان" على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله ﷺ: ((أرسله، اقرأ يا هشام))، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: ((كذلك أنزلت، ثم قال -أي: النبي-: اقرأ يا عمر)) فقرأت القراءة التي أقرأني، أي أن سيدنا عمر > قد قرأ بالقراءة، التي تعلمها من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه))".

وقد ثبت عن أبي بن كعب > أنه قال: ((كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ، فقرآ، فحسن النبي ﷺ شأنهما. فسقط في نفسي من التكذيب -أي: يخبر سيدنا أبي بن كعب يقول: وقع في نفسي شيء من التكذيب- فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله ﷻ فرقًا. فقال لي -أي: قال له النبي ﷺ: يا أبي أُرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي. فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة

ردتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم #)).

وثبت عن ابن مسعود > قال: ((سمعت رجلًا قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به إلى النبي ﷺ فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية، وقال -أي: قال ﷺ: كلاكما محسن، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)).

وثبت عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((نزل القرآن على سبعة أحرف: المراء في القرآن كفر، المراء في القرآن كفر، المراء في القرآن كفر -ثلاث مرات- فما عرفتم منه فاعملوا، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه)).

وثبت عن عمر بن العاص > أن رسول الله ﷺ قال: ((نزل القرآن على سبعة أحرف على أي حرف قرأتم فقد أصبتم فلا تتماروا فيه، فإن المراء فيه كفر)).

وقد روي نزول القرآن على سبعة أحرف عن نحو ثلاثين صحابيًّا، حتى ذهب أبو عبيد والحاكم والسيوطي إلى أن ذلك من المتواتر، فالحديث الوارد في نزول القرآن على سبعة أحرف ثابت ثبوتًا لا شك فيه، وهو دال على رحمة الله بهذه الأمة، ودال كذلك على تيسير الله سبحانه وتعالى لتلاوة هذا القرآن، كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

بعد هذا العرض لا بد وأن نقف مع خلاصة مهمة نستخلصها ونستفيدها من الأحاديث السابقة، نستخلص من الروايات السابقة الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف الأصول التالية:

أولًا: لو نزل القرآن على حرف واحد لشق ذلك على الأمة، فقد كانت الأمة متعددة اللغات واللهجات، وما يسهل النطق به على البعض لا يسهل على

البعض الآخر، وكانت تغلب على الأمة الأمية، فلا عجب أن حرص النبي ﷺ على الاستزادة من الحروف، حتى بلغت سبعة أحرف يدل على هذا قوله ﷺ في حديث أبيٍّ السابق الوارد في (صحيح الإمام مسلم) ثلاث مرات: ((أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك)).

ويدل على ذلك أيضًا قوله ﷺ في حديث أبي الوارد في (سنن الإمام الترمذي): ((إني بعثت في أمة أمية)).

فكان من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن أنزل القرآن على سبعة أحرف رفعًا للحرج، وتيسيرًا لقراءة القرآن، وحفظه، وفهمه، وتدبره.

ثانيًا: إن هذه التوسعة إنما كانت في الألفاظ ولم تكن في المعاني والأحكام، بدليل أنه ﷺ قد أقر كلًّا المختلفين على قراءته، وغير معقول أن يكون اختلافهم في المعاني والأحكام ثم يقرهم النبي ﷺ على ذلك.

ثالثًا: إن هذه التوسعة، والإباحة في القراءة بأي حرف من الحروف السبعة، إنما كانت في حدود ما نزل به الوحي، إنما كانت في حدود ما نزل به جبريل # ، من عند الله سبحانه وتعالى، وكانت في حدود ما سمعوه من النبي ﷺ.

وذلك بدليل أن كلًّا من المختلفين في القراءة كان يقول: أقرأنيها رسول الله، وبدليل أن النبي ﷺ كان يعقب على قراءة كل من المختلفين بقوله: ((هكذا أنزلت)).

وكذلك هذا هو الذي يفيده لفظ الإنزال الذي جاءت به جميع روايات الحديث، ولا يعني ذلك إلا التوقيف بالسماع من الرسول ﷺ، وسماع الرسول من جبريل # ، ولا يتوهمن متوهم أن التوسعة إنما كانت باتباع الهوى والتشهي، فذلك ما لا

يليق بفهم العقلاء ؛ إذ الروايات الواردة ترد ذلك وتبطله ، ولو كان لكل أحد أن يقرأ بما تيسر له من غير تلقٍ أو سماع من النبي ﷺ للزم أن يحدث ما يلي :

أولًا : أن يذهب إعجاز القرآن.

ثانيًا : أن يكون القرآن عرضة أن يبدله كل من أراد ، حتى يصير غير القرآن الذي نزل من عند الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا : ألا يتحقق وعد الله سبحانه بحفظ كتابه ، ولكن الله تعالى قد وعد بحفظ كتابه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]، واللوازم كلها باطلة ، أي : ما سبق ذكره من لوازم كلها لوازم باطله ، فبطل ما أدى إليها ، وثبت نقيضه ، وهو أن التوسعة والإباحة إنما كان في حدود ما أنزل الله.

وكيف يتفق هذا الوهم الباطل مع قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٥ : ١٦].

رابعًا : إن الأمة كانت مخيرة في القراءة بأي حرف من هذه الأحرف السبعة بغير إلزام بواحد منها ، وأن من قرأ بأي حرف منها فقد أصاب ، بدليل قوله ﷺ : ((فاقرءوا ما تيسر منه)).

وبدليل قول جبريل # في حديث المراجعة : ((فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا)).

وأيضًا قد سبق معنا أن النبي ﷺ قد أقر كلًّا من المختلفين على قراءته ، ولم يرجح النبي ﷺ قراءة واحد على الآخر.

خامسًا: إن التوسعة على الأمة لم تكن في بداية الدعوة، بل كانت بعد الهجرة، وبعد أن دخل في الإسلام كثير من القبائل من غير قريش، فكانت الحاجة ماسة إلى هذه التسهيل وإلى تلك التوسعة.

يشهد بهذا ما ورد في الحديث: ((أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار))، وهذه المنطقة -أي: منطقة أضاة بني غفار- توجد بالمدينة المنورة.

سادسًا: إن هذه التوسعة مظهر من مظاهر الرحمة والنعمة، فلا ينبغي أبدًا أن تكون مصدر اختلاف ونقمة، أو أن تكون مثيرة للشك، أو مضعفة لليقين، فقد حذرهم النبي ﷺ من الاختلاف، كما في حديث ابن مسعود < .

وحذرهم النبي ﷺ كذلك من الشك في القرآن، كما في حديث عمرو بن العاص < عندما قال: ((فلا تتماروا فيه)).

سابعًا: الحرص البالغ من الصحابة على القرآن الكريم، والتحقق البالغ في المحافظة عليه، ونفي الغيب، والتغيير، والتبديل عن القرآن، وبحسبك شاهدًا على هذا ما كان من الفاروق عمر < مع هشام بن حكيم بن حزام < .

حتى هم سيدنا عمر أن يأخذ بتلابيب هشام وهو في الصلاة، وبحسبك أيضًا شاهدًا على مدى حرص الصحابة على القرآن بحسبك أن تقف مع ما كان من أبي بن كعب < وابن مسعود، وعمرو بن العاص مع غيرهم ممن قد استمعوا منهم قراءة غير القراءة التي سمعوها من النبي ﷺ.

ثامنًا: الروايات السابقة تدل أيضًا على أن الصحابة إنما اختلفوا وتنازعوا في قراءة بعض الألفاظ، وعندما اختلفوا رفعوا الأمر إلى النبي ﷺ قبل أن يعلموا أن القرآن قد أنزل على سبعة أحرف، فلما علموا بهذا الحقيقة اطمأنوا وقطع بينهم دابر الشقاق والمراء، فتنازعهم ورجوعهم إلى النبي ﷺ هو أوضح دليل على أن

ذلك ليس موكولًا إلى اختيارهم، وكذلك فإن أحاديث الباب إنما كانت بلفظ الإقراء وليس القراءة، فهو من أدلتنا على أنها منقولة عن النبي ﷺ ولم يكن للصحابة فيها أدنى اختيار.

ومما هو معلوم أن عمر كان شديدًا في دين الله، فلما سمع هشامًا يقرأ بغير الرواية التي تلقاها عن رسول الله ﷺ كاد عمر أن يؤذيه؛ لأنه إذ ذاك كان لا يعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف، فاعتقد عمر أن هشامًا قد غيّر وبدّل من عند نفسه، فلما عرف عمر > أن ذلك مأخوذ عن النبي ﷺ ولما علم أن القرآن قد نزل على عدة وجوه اطمأنت نفسه، ولو لم يعرف عمر > أن هذا منزل من عند الله ما سكت على ذلك، ولا بقي على ذلك الدين طرفة عين.

فالحاصل أن العقل لا يمنع من نزول القرآن على سبعة أحرف، والحاصل كذلك أن الحكمة تقتضي ذلك، وأن الرحمة توجبه، وأن القرآن تنزيل من حكيم قدير.

الشبهات المتعلقة بالأحرف السبعة (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول : عرض كلام العلماء في بيان المراد بالأحرف السبعة ٢٨٧
العنصر الثاني : الادعاء بأن سيدنا عثمان قد حذف ستة أحرف من الأحرف السبعة ٢٩٥

عرض كلام العلماء في بيان المراد بالأحرف السبعة

اختلف العلماء -رحمهم الله- في المراد من الأحرف السبعة في الأحاديث السابقة، اختلفوا في ذلك اختلافًا كبيرًا، حتى قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولًا.

والناظر في تلك الأقوال يقطع بأن أكثرها متداخل، وكثير منها لا يعلم قائله، والذي يستحق المناقشة من هذه الأقوال ما يلي:

القول الأول: أن الحديث الوارد في نزول القرآن على سبعة أحرف، إنما هو من المشكل المتشابه الذي لا يعلم معناه؛ لأن الحرف مشترك لفظي يصدق على معانٍ كثيرة؛ منها مثلًا: الكلمة، والمعنى، وحرف الهجاء، والجهة، كل هذه معانٍ تطلق على الحرف، أو إذا أطلقت كلمة حرف قد يراد بها معنى من تلك المعاني، ولم يعين المراد من الحرف في الحديث الشريف، كان هذا هو القول الأول، وهو يدور على أن الحديث من المشكل المتشابه.

ولا بد لنا من تعليق على ذلك القول؛ فنقول: الرد على القول الأول من عدة وجوه: يرد هذا القول بأنه لا يلزم من مجرد الاشتراك اللفظي وجود إشكال يصرف عن إدراك المعنى المقصود؛ لأن المشترك اللفظي يترجح أحد معانيه بقرينة لفظية أو حالية، وقد قامت القرائن على تعين أحد المعاني ومنع ما عداه.

فلا يصح مثلًا أن يراد بالحرف الكلمة؛ لأن القرآن مؤلف من كلمات كثيرة وليس من سبع كلمات فقط، ولا يصح أن يراد بالحرف في الحديث المعنى؛ لأن معاني القرآن كثيرة جدًّا تفوق الحصر، ولا يصح أن يراد بالحرف حرف الهجاء؛ لأن القرآن مشتمل على جميع حروف الهجاء لا على سبعة منها فقط، فتعين أن

المراد بالحرف في حديث النبي ﷺ: ((أُنزل القرآن على سبعة أحرف)) أن يكون المراد بالحرف هنا هو الجهة، وبذلك يبطل القول بإشكال معنى الحديث، أو بكونه من المتشابه الذي لا يعلم معناه.

ثانيًا: يرد أيضًا هذا القول بما ثبت في نص الحديث من أن النبي ﷺ أمر أن يقرئ أمته بهذه الأحرف، وقد فعل ذلك النبي ﷺ وأمر أمته أن تقرأ القرآن بها، وقد فعلت الأمة، فقرأ الصحابة { على هذه الأحرف، فهي أحرف معلومة لدى الكثير من الصحابة، فلا يعقل أن يكون الحديث مع كل ذلك من المتشابه الذي لا يدرى معناه.

ثالثًا: يرد على هذا القول أيضًا بأن الحديث قد نص على أن الحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف هي التيسير على الأمة، فكيف إذًا يتحقق التيسير بشيء مجهول لا يعلم معناه؟.

كان هذا هو القول الأول في تعيين المراد من الأحرف السبعة، وكان هذا هو الرد على ذلك القول.

القول الثاني: أن حقيقة العدد غير مرادة، وذلك لأن لفظ السبعة يطلق في لسان العرب ويراد به الكثرة في الآحاد، كما يطلق لفظ السبعين ويراد به الكثرة في العشرات، ويطلق لفظ السبعمائة ويراد به الكثرة في المئات، وهذا القول هو مذهب القاضي عياض، كما مال إليه أيضًا الإمام القاسمي.

الرد على هذا القول:

يرد على هذا القول بأن الأحاديث الواردة في هذا الأمر صريحة في إرادة حصر العدد في سبعة، ففيها استزادة الرسول ﷺ من جبريل الأحرف حرفًا حرفًا، وهذا قرينة على أن المراد العدد الآحاد الواقع بين الستة، والثمانية.

القول الثالث: هو أن المقصود سبعة أصناف من المعاني والأحكام، وهي: الحلال، والحرام، والأمر والزجر، والمحكم، والمتشابه، والأمثال.

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بما روي عن ابن مسعود < ، عن النبي ﷺ قال: ((كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد، وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب، وعلى سبعة أحرف؛ زاجر وآمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا)).

كان هذا هو القول الثالث، وكان هذا هو دليله، ولكن يبقى أن نرد على هذا القول، فنقول: الحديث الذي استدل به أصحاب هذا القول قد انتقده العلماء ولم يسلموا بصحته.

يقول ابن عبد البر: وهو حديث عند أهل العلم لا يثبت، وهو مجمع على ضعفه، وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: وقد صحح الحديث المذكور ابن حبان، والحاكم يقول ابن حجر: وفي تصحيحه نظر؛ لانقطاعه بين أبي سلمة < وابن مسعود < ، وقد أخرجه الإمام البيهقي من وجه آخر عن الزهري، عن أبي سلمه < مرسلًا، وقال: هذا مرسل جيد.

ثانيًا: سياق الأحاديث المذكورة سابقًا في الأحرف السبعة يأبى حمل المراد بالأحرف السبعة على هذه الوجوه، بل هي ظاهرة في أن المراد أن الكلمة الواحدة تقرأ على وجهين، وثلاثة، وأربعة إلى سبعة أوجه، وذلك من باب التيسير والتخفيف.

ثالثًا: من المعلوم بل من المعقول أن الشيء الواحد لا يكون حلالًا، وحرامًا في آن واحد، قال الإمام الطبري -رحمه الله-: ومعلوم أن تماريهم لو كان تماريًا

واختلافًا فيما دلت عليه تلاوتهم من التحليل، والتحريم والوعد، والوعيد، وما أشبه ذلك لكان مستحيلًا أن يصوب النبي ﷺ جميعهم.

قال الإمام ابن عطية -رحمه الله-: هذا القول ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى أحرف، وأيضًا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة. كان هذا هو القول الثالث، وكان هذا هو دليله، وكان هذا هو الرد عليه.

القول الرابع في بيان المراد من الأحرف السبعة: قال العلماء: أن المراد سبع لغات من لغات العرب الفصحى أنزل بها القرآن، فهي متفرقة فيه لا على أن هذه اللغات تجتمع في الكلمة الواحدة، وهذا القول هو قول أبي عبيد القاسم بن سلام، وصححه الإمام البيهقي.

الرد على هذا القول:

نرد على القول الرابع بما يلي:

أولًا: يكفي في رد هذا القول ما سبق من اختلاف عمر بن الخطاب > وهشام بن حكيم > في القراءة، وهما قرشيان، أي: هما من قريش، ولغتهما واحدة، فدل ذلك على أن اختلافهما لم يكن في اللغات.

ثانيًا: يرد هذا القول أيضًا أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كان تيسيرًا على المكلفين بنص الحديث، فلو فرض أن القرآن مؤلف من عدة لغات كل جزء في لغة واحدة، لما أمكن أهل كل لغة أن يقرءوا من القرآن إلا جزءًا واحدًا، وهذا لم يقع، ولم يحدث.

القول الخامس: الذي يقول: إن المراد سبع لغات، ولكن على أن تكون في الكلمة الواحدة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني، كقول القائل: هلم، وتعال،

وأقبل، وإليَّ، ونحوي، وقصدي، وقربي. وهذا هو قول سفيان بن عيينة، وابن جرير الطبري، والطحاوي، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء.

ودليل هذا القول حديث أبي بكرة أن جبريل # قال: ((يا محمد اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل # : استزده فاستزاده. قال: اقرأه على حرفين، قال ميكائيل: استزده فاستزاده حتى بلغ سبعة أحرف، قال: كلٌّ شافٍ كافٍ ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب)) نحو قولك: تعال، وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وأعجل. قال الإمام السيوطي في هذا الأثر: إسناده جيد.

الرد على هذا القول:

يرد على القول الخامس بما يلي:

أولًا: يجاب عن هذا القول بأن الأحاديث، التي احتجوا بها لا تدل على حصر الأحرف في نحو ما ذهبوا إليه، وإنما بين النبي ﷺ فيها الأحرف السبعة بمثال يوضح نوعية هذه الأحرف، وأنها لا تؤدي إلى تناقض ولا تضاد.

قال الإمام ابن عبد البر -رحمه الله-: إنما أراد النبي ﷺ بهذا ضرب المثل للحروف، التي نزل القرآن عليها أنها معانٍ متفق مفهومها مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافًا ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده.

ثانيًا: يرد هذا القول أيضًا بأن الحكمة من تنزيل القرآن على سبعة أحرف هي التيسير على المكلفين لاختلاف ألسنتهم، ولم يكن أكثر اختلاف العرب في استعمال الألفاظ المترادفة.

بل أكثر اختلافهم إنما كان حاصلًا في اللهجات من فك وإدغام، وفتح وإمالة، وهمز وتخفيف، ونحو ذلك، ولا شك أن المشقة عليهم في هذه الأبواب أعظم من استعمال هلم مكان تعال، أو أقبل.

كان ما سبق عرضًا لكلام العلماء في المراد من الأحرف السبعة، وبعد أن بينا هذه الأقوال، وبينا أدلتها نقف مع القول الراجح من هذه الأقوال، فنقول: إذا نظرنا في الأخبار الواردة في الأحرف السبعة وتفحصنا ألفاظها لم نجد فيها عبارة صحيحة تبين المراد بالأحرف السبعة، والذي يظهر -والله أعلم- أن ذلك كان لوضوح المراد منها عند السلف بشكل لا يحتاج معه إلى تفسير، وذلك حتى تتحقق الحكمة من الرخصة، فليس من المعقول أن يرخص لهم في شيء مجهول غير معلوم.

ولما كانت الحاجة في بداية الأمر إلى إزالة ما وقع في نفوس الصحابة { من شبهة وقوع التناقض والاضطراب، أو التصرف في كتاب الله تعالى؛ لأنهم ألفوا أول الأمر قراءة القرآن على وجه واحد، ثم سمع بعضهم بعضًا يقرأ على أوجه متغايرة، لما كانت الحاجة إلى ذلك أزال النبي ﷺ هذه الخواطر بأن أخبرهم بالرخصة، وضرب لهم مثالًا على أنواع الاختلاف بين هذه الأوجه، وأنه ليس من باب التناقض أو التضاد، بل من باب التنوع، وزيادة المعاني.

وعند تدبر أوجه القراءات المتواترة التي نقلت إلينا نجد أن اللفظ الواحد قد يقرأ بأوجه متعددة، والناس إلى يومنا هذا يتناكرون عند سماع هذه الوجوه إذا لم يكن لهم سابق علم بها.

فالذي يظهر -والله أعلم- أن المراد من الأحرف السبعة في الحديث الشريف أوجه متعددة متغايرة من وجوه القراءة، تكون في الكلمة القرآنية الواحدة، بحيث تقرأ

على وجه واحد أو أكثر من وجه إلى سبعة أوجه، وهذا هو ما أشار إليه الإمام السيوطي في (الإتقان)، وكذلك هذا القول هو ما صدر الحافظ ابن حجر الكلام به عند شرحه لحديث الأحرف السبعة.

ولا يلزم على هذا القول أن يكون في كل كلمة قرآنية أكثر من وجه، بل توجد هذه الوجوه في بعض الكلمات دون بعض، وقد ورد مثل ذلك في سورة "الفرقان"، وقد جمع الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في شرحه على (صحيح الإمام البخاري) كل ما ورد من الخلاف في هذه السورة من القراءات المتواترة والشاذة فبلغت مواضع الخلاف فيها مائة وثلاثين موضعًا.

ولا يشكل على ذلك أيضًا ورود أكثر من سبع قراءات في بعض الكلمات، مثل قوله تعالى في سورة "المائدة": ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾، هي القراءة المتواترة المثبتة في المصحف العثماني، لقد ذكر الإمام أبو حيان -رحمه الله- اثنتين وعشرين قراءة في هذه الجملة.

ولكن نقول: إن علماء المسلمين أجمعوا على اشتراط التواتر؛ لثبوت قرآنية أي نص، وبدون التواتر لا تثبت القرآنية، وهذا الموضع وغيره إذا عرض على هذا الشرط لم يبق فيه من القراءات المتواترة ما يزيد على السبعة، ففي الموضع المذكور في آية المائدة قراءتان متواترتان، فقد قرأ حمزة "وعَبُدَ الطاغوتِ" بضم الباء في "عبد"، وخفض الطاغوت فقال: "وعَبُدَ الطاغوت"، وقرأ الباقون: ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ بفتح الباء من "عبد"، ونصب "الطاغوت".

ومع اعتبار أن كثيرًا من أفراد الأحرف التي نزل بها القرآن قد نسخ في العرضة الأخيرة للقرآن الكريم، فلا إشكال في عدم وجود كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه، فإن أقصى ما ورد من الأوجه المتواترة في موضع من القرآن هو ستة أوجه، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، هذه الآية وردت في سورة "الأعراف"، ومحل الشاهد هو كلمة "أرجه"؛ حيث إنه قد وردت فيها ست قراءات متواترة، وهي:

أولًا: "ارجه" بدون همز، وبكسر الهاء من غير إشباع، وقد قرأ بذلك قالون.

ثانيًا: "ارجهِ" كالوجه السابق لكن مع إشباع كسرة الهاء بوصلها بياء، وقد قرأ بذلك ورش، والكسائي قال: "ارجه".

ثالثًا: "أرجئهُ" بالهمز مع ضم الهاء، وإشباع ضمها بوصلها بواو، وبذلك قرأ ابن كثير، وهشام.

رابعًا: "أرجئهُ" بالهمز مع ضم الهاء من غير إشباع، وقد قرأ بذلك أبو عمرو، ويعقوب.

خامسًا: "أرجئهِ" بالهمز مع كسر الهاء من غير إشباع قرأ بذلك ابن ذكوان.

سادسًا: "أرجهْ" دون الهمز مع سكون الهاء، وهي قراءة الباقين من القراء العشرة.

وبذلك نكون -بحمد الله وفضله- قد أنهينا الكلام على أقوال العلماء في تعيين المراد من الأحرف السبعة، وبينا بحمد الله القول الراجح، وضربنا أمثلة عليه، وبذلك نكون قد أنهينا هذه الجزئية.

الادعاء بأن سيدنا عثمان قد حذف ستة أحرف من الأحرف السبعة

الدعاوى التي أوردها الطاعنون فيما يتعلق بالأحرف السبعة، والرد عليها:

استغل الطاعنون بعض الروايات والآراء والأقوال الواردة في كتب الحديث وعلوم القرآن فيما يتعلق بقضية الأحرف السبعة، وأرادوا أن يدللوا بهذه الروايات وتلك الآراء والأقوال على وقوع الطعن في القرآن، ووقوع التحريف في القرآن على حسب زعمهم، وسوف أعرض هذه الدعاوى، ثم أبين الرد والجواب على كل دعوى من هذه الدعاوى فيما يلي بمشيئة الله تعالى:

الدعوى الأولى: الادعاء بأن سيدنا عثمان > قد حذف ستة أحرف من الأحرف السبعة، قال أحد الطاعنين: قرر كثير من علماء المسلمين أن المصحف الذي جمع في زمن أبي بكر كان أكبر حجمًا من حجم مصحفنا بستة أضعاف، وذلك لاشتماله على الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، ويستكمل كلامه قائلًا: وقد ذهب الطبري والطحاوي وابن عبد البر إلى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان لما استنسخ الصحف من عند حفصة أمر أن يكون ذلك على حرف، وبذلك تم جمع الأمة على حرف واحد، فتتابع المسلمون على تلاوة هذا الحرف، وبذلك اندثرت بقية الأحرف وعفت آثارها، فلا سبيل اليوم إلى القراءة بها.

كان هذا عرضًا لكلام الطاعنين في هذه الدعوى، وفيما يلي أبين الجواب الكافي، والرد الوافي على هذه الدعوى فالله المستعان.

الجواب على هذه الدعوى:

للجواب على هذه الدعوى الساقطة فسوف نركز الحديث على بيان ما يلي:

أولًا: الأحرف السبعة في الجمع في عهد النبي ﷺ، وفي جمع القرآن في عهد الصديق > .

ثانيًا: الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية.

نقف أولًا مع الأحرف السبعة في الجمع، الذي كان في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصديق > :

ورد في الأحاديث السابقة أن النبي ﷺ أمر أن يقرئ أمته القرآن على سبعة أحرف، فلا شك أنه ﷺ قد قرأ بهذه الأحرف السبعة؛ ليتعلمها منه أصحابه، وينقلوها إلى الأمة من بعده، وكان النبي ﷺ يعرض القرآن على جبريل # في رمضان من كل سنة، فيثبت الله ما يشاء، وينسخ الله ما يشاء، أو يأمر بالقراءة على حرف، أو أكثر من الأحرف السبعة.

وقد عرض النبي ﷺ القرآن على جبريل # في العام، الذي توفي فيه مرتين، ولا شك أنه قد نسخ بعض القرآن في تلك العرضة، كما نسخت بعض الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن في تلك العرضة.

ومن أمثلة ذلك حديث السيدة عائشة في عدد الرضعات المحرمات، فعن عائشة > أنها قالت: "كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن"، ففي ذلك الحديث أن النبي ﷺ قد توفي، وكانت هذه الآيات المنسوخات مما يتلى من القرآن، مما يدل على أنها نسخت في آخر حياة النبي ﷺ.

وقد كانت العرضة الأخيرة مراجعة أخيرة للكتاب الحكيم عرض فيها القرآن مرتين، فنسخ الله منه ما شاء، وأثبت فيه ما كتب له البقاء.

قال الإمام ابن الجزري -رحمه الله- : ولا شك أن القرآن نسخ منه في العرضة الأخيرة، فقد صح بذلك النص عن غير واحد من الصحابة، وكل ما نسخ في العرضة الأخيرة من القرآن، أو من أوجه القراءة لم يثبت في الجمع في عهد النبي، ولا في الجمع في عهد الصديق < .

مما سبق يمكننا أن نقرر ما يلي:

أولًا: أن النسخ قد شمل بعض الأحرف السبعة في العرضة الأخيرة، ويدل على ذلك عدم ورود كلمة من الكلمات القرآنية تقرأ على أكثر من ستة أوجه من طريق متواتر.

ثانيًا: أن الأحرف السبعة لم تنسخ كلها؛ لأن الأصل إباحة القراءة بها، ولم يدل دليل على نسخ تلك الإباحة في زمن النبي ﷺ.

ثالثًا: اتفق العلماء على أن جمع القرآن في زمن الصديق < بقي على نفس السورة، التي تركها عليه النبي ﷺ ولم يتغير منه شيء، سواء في ذلك من رأى أن الأحرف السبعة باقية كلها، ومن قال: إن الأحرف نسخت، ولم يبق منها إلا حرف واحد، ومن قال: إن الباقي هو بعض الأحرف السبعة.

بعد أن تكلمنا عن الأحرف السبعة في جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وفي عهد الصديق < ، لا بد أن نتعرض إلى حال الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية أثناء جمع سيدنا عثمان للقرآن في المصاحف.

فنقول: اختلف العلماء في بقاء الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية على ثلاثة أقوال:

القـول الأول: أن المصاحف العثمانية اشتملت على حرف واحد فقط من الأحرف السبعة، وهو حرف قريش، وأن الأحرف الباقية إما أنها نسخت في زمن النبي ﷺ أو اتفق الصحابة } على تركها درءًا للفتنة التي كادت تفتك بالأمة عندما اختلف الناس في قراءة القرآن، وقد ذهب إلى ذلك القول الإمام ابن جرير الطبري، والإمام الطحاوي، والإمام ابن حبان، والإمام ابن عبد البر - رحمهم الله جميعًا.

وهذا القول له أساس، وأساسه أنه مبني على القول بأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات في الكلمة الواحدة باختلاف الألفاظ، واتفاق المعاني، وهو قول ابن جرير ومن وافقه.

فقد رأى القائلون بهذا القول ندرة الكلمات القرآنية التي يصدق عليها ما رأوه في المراد بالأحرف السبعة، فقالوا: إنها نسخت، أو اتفق الصحابة على منع القراءة بها، وكتبوا المصاحف على حرف واحد هو لسان قريش.

أدلة هذا القول: احتج القائلون بهذا القول بأدلة أذكر منها ما يلي:

أولًا: قول سيدنا عثمان > للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا ذلك، فهذا يدل على أنهم جمعوا القرآن على حرف واحد وهو لسان قريش، وتركوا ما سوى ذلك.

الدليل الثاني: أن الأحرف السبعة كانت ضرورة في أول الأمر، وذلك لاختلاف لغة العرب، ومشقة أخذ جميع الطوائف بلغة واحدة، فلما كثر الناس وارتفعت الضرورة ارتفع حكم هذه الأحرف السبعة.

ورجح ذلك قيام الخلاف بين القراء بما كاد يؤدي إلى فتنة عظيمة، فأجمعت الأمة بقيادة إمامها الناصح الشفيق عثمان بن عفان > أجمعت الأمة على أن تقتصر على حرف واحد من الأحرف السبعة جمعًا لكلمة المسلمين، فأخذت بذلك الحرف، وأهملت كل ما عداه.

الدليل الثالث للقائلين بهذا القول: أن القراءة بالأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كانت جائزة مرخصًا فيها، وقد جعل إليهم الاختيار في أي حرف اختاروه، فلما رأى الصحابة { أن الأمة تفترق، وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعًا شائعًا، وهم معصومون من الضلالة، ولم يكن في ذلك ترك واجب، ولا فعل حرام، كان هذا هو القول الأول، وأساسه هو الأدلة التي استدل بها القائلون بها.

القول الثاني: إن المصاحف العثمانية اشتملت على جميع الأحرف السبعة ولم تهمل منها حرفًا واحدًا، وهذا هو ما ذهب إليه الكثير من القراءة، والفقهاء، والمتكلمين، وهو الذي اختاره القاضي الباقلاني، وغيره، قال القاضي الباقلاني: الصحيح أن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ، وضبطها عنه الأئمة، وأثبتها عثمان والجماعة في المصحف، وأخبروا بصحتها، وإنما حذفوا منها ما لم يثبت متواترًا، وأن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة، وألفاظها تارة أخرى، وليست متضاربة ولا متنافية.

أدلة هذا القول:

استدل القائلون بهذا القول على قولهم بعدة أدلة أذكر منها ما يلي:

أولًا: أنه لا يجوز على الأمة على أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة؛ لأنها قرآن منزل.

الدليل الثاني: أن الصحابة } أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر، وقد كانت تلك الصحف مشتملة على الأحرف السبعة، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك.

الدليل الثالث: أن الأحرف السبعة كان مرخصًا فيها، ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض المرخص فيه؛ إذ ليس بعضه بأولى من بعض.

رابعًا: أن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف كانت التيسير على الأمة في تلاوة القرآن، والتيسير ما زال محتاجًا إليه؛ إذ لم تكن قراءة القرآن على حرف واحد من العصر الأول بين العرب الخلص أصعب منها على من أتى بعدهم من المسلمين في العصور المتأخرة، خاصة بعدما فشا في المسلمين اللحن والعجمة، فهم أحوج إلى التيسير من العرب الأول.

القول الثالث: إن المصاحف العثمانية اشتملت على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة، متضمنة لما ثبت في العرضة الأخيرة.

قال الإمام ابن الجزري -رحمه الله-: وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل # متضمنة لها لم تترك حرفًا واحدًا، قال -أي: قال الإمام ابن الجزري رحمه الله-: وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث صحيحة والآثار المستفيضة تدل عليه وتشهد له.

أدلة هذا القول:

احتج أصحاب هذا القول بما احتج به أصحاب المذهب الثاني على بقاء بعض الأحرف السبعة والحاجة إليها، واحتجوا على أن الأحرف السبعة لم تبق كلها بما

ورد من الآثار التي تدل على حدوث النسخ في العرضة الأخيرة لبعض أوجه القراءة، فكتب الصحابة في المصاحف عند الجمع ما تيقنوا أنه قرآن ثابت في العرضة الأخيرة، وتركوا ما سوى ذلك.

قال الإمام السيوطي -رحمه الله- : ولا شك أن القرآن نسخ منه في العرضة الأخيرة، فاتفق الصحابة على أن كتبوا ما تحققوا أنه قرآن مستقر في العرضة الأخيرة، وتركوا ما سوى ذلك.

بعد بيان الأقوال الثلاثة في وجود الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية، وبيان القائلين بها، وبيان أدلة كل قول، لا بد وأن نقف وقفة مع القول الراجح من هذه الأقوال؛ فنقول:

القول الراجح: القول الذي يظهر صوابه -والله أعلم- هو ما ذهب إليه جماهير العلماء من السلف والخلف من أن الباقي من الأحرف السبعة هو ما ثبت في العرضة الأخيرة، وأن الصحابة } لم يختاروا بعض الأحرف الثابتة دون بعض، بل دونوا ونقلوا كل ما ثبتت قرآنيته وتركوا ما سوى ذلك، والله أعلم.

ولكن ينبغي التنبه إلى أن قولهم: إن المصاحف غير مشتملة إلا على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة جامعة للعرضة الأخيرة، التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها لم تترك حرفًا واحدًا.

أقول: هذا الكلام فيه شيء من التناقض؛ إذ قد يفهم منه أن هناك شيء من الأحرف السبعة عرضه النبي ﷺ على جبريل في العرضة الأخيرة، ولم يكتبه الصحابة في المصاحف العثمانية، فالأولى أن يقال: جامعة للعرضة الأخيرة، ويلغى التقييد بجملة ما يحتمله رسمها، يلغى هذا التقييد؛ إذ قد علمنا أن الصحابة } قد كتبوا مصاحف متعددة، وفاوتوا بينها ليحتمل البعض منها من أوجه القراءة ما لا يحتمله البعض الآخر.

وطالما أننا قد بينا القول الراجح فلا بد أن نرد على القائلين باشتمال المصاحف العثمانية على حرف واحد فقط من الأحرف السبعة، ولا بد كذلك أن نرد على القائلين باشتمال المصاحف العثمانية على جميع الأحرف السبعة، وذلك فيما يلي:

أولًا: الرد على القائلين باشتمال المصاحف العثمانية على حرف واحد فقط من الأحرف السبعة، يجاب على أدلة القائلين بذلك بما يلي:

أولًا: استدلالهم بقول عثمان > : "فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم". نقول: قد سبق بيان أن ما نقل إلينا متواترًا من القرآن فيه الكثير من غير لغة قريش، وسبق أيضًا بيان أن مراد عثمان > من ذلك أن أكثر القرآن ومعظمه نزل بلسانهم، أو أن ابتداء نزوله كان كذلك، وعليه فلا إشكال في هذا الأثر على القول بأن بعض الأحرف باقٍ؛ إذ ليس فيه أن عثمان > أمر بإلغاء تلك الأحرف، قال الإمام الباقلاني -رحمه الله-: ومعنى قول عثمان > : إنه أنزل بلسان هذا الحي من قريش أي: معظمه، وأكثره نزل بلغتها، ولم تقم حجة قاطعة على أن القرآن بأسره نزل بلغة قريش بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشيًّا.

ثانيًا: قول عثمان > : "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت..." الأثر، هذا القول يدل على أنه لم يأمر بإلغاء الأحرف السبعة، فاللفظ صريح في أنه أمر بإثبات لغة قريش عند الاختلاف فقط، أما عند الاتفاق فليكتبوا بأي لغة صح أن النبي ﷺ قرأ بها في العرضة الأخيرة، ولم ينقل إلينا أنهم اختلفوا في شيء إلا في لفظ "التابوت" كما سبق.

ثالثًا: الاستدلال بأن الأحرف السبعة كانت في أول الأمر ضرورة لاختلاف لغات العرب، ومشقة أخذ جميعهم بلغة واحدة، فقد سبق الكلام على أن المشقة ما زالت باقية، فما زال في الأمة العجوز، والشيخ الكبير، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط، بل لعل المشقة الآن أشد مما كانت عليه فيما مضى.

رابعًا: أما قولهم: إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، فنحن نوافق على ذلك، ولكن نخالف في أن القراءة غير الحفظ، فإنه وإن لم يكن واجبًا على الأمة أن تقرأ بالأحرف السبعة جميعها، فإنه لا شك أن حفظ هذه الأحرف من الضياع واجب على الأمة.

خامسًا: يدل على بقاء الأحرف، التي ثبتت في العرضة الأخيرة أيضًا أنه قد ثبت أن كتاب المصاحف في زمن عثمان إنما نسخوا ما كتبه الصديق في الصحف في مصاحف وأرسلوها إلى الأمصار، وقد علمنا أن جمع الصديق للقرآن لم يلغ شيئًا في العرضة الأخيرة باتفاق، فثبت بذلك أن جمع عثمان لم ينقص شيئًا مما جمع في زمن الصديق < .

عن أنس بن مالك قال: "فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف".

سادسًا: يرد هذه الدعوى -أي: دعوى أن عثمان عندما نسخ المصاحف ألغى الأحرف الستة، واختصر على حرف واحد- أنه لم يرد في خبر صحيح ولا ضعيف أن سيدنا عثمان < أمر كتاب المصاحف أن يقتصروا في كتابتها على حرف واحد ويلغوا الستة الباقية.

سابعًا: يرد هذه الدعوى أيضًا أنه لو صح أن سيدنا عثمان > قد جمع الناس على حرف واحد، وألغى الستة الباقية، وأجمع معه على ذلك الصحابة لكان ذلك كافيًا في القطع بالمراد بالأحرف السبعة، ولم نجد ذلك الاختلاف المنقول عن العلماء في المراد من الأحرف السبعة، ولما اختلفوا العلماء بعد ذلك في المراد منها كل هذا الاختلاف، ولما حصل خلاف بعد الإجماع الأول في بقاء الأحرف السبعة من عدمه؛ إذ الإجماع حجة عند المسلمين، ولا يسوغ بعده خلاف.

ثامنًا: مما يرد به هذا القول أنه يحمل طعنًا في الصحابة } ويحمل اتهامًا لهم بالتصرف برأيهم في كتاب الله تعالى، ولا يكاد يصدق مؤمن يعلم قدر الخليفة الراشد عثمان بن عفان أنه قد قرر برأيه إلغاء الأحرف الستة والإبقاء على حرف واحد، ولا يكاد يتصور أيضًا أن الصحابة } وهم كثرة كاثرة في ذلك الوقت لا يتصور أن يقروه على ذلك الفعل.

والخلاف الذي زعموا أنه استدعى إلغاء تلك الأحرف كان قد حصل مثله في زمن النبي ﷺ كما جاء في الروايات التي نقلناها في بداية الكلام، فلم يؤد ذلك إلى إلغاء الأحرف المنزلة، بل أرشدهم النبي ﷺ إلى أن القرآن أنزل على جميع تلك الأوجه، وأقر النبي ﷺ كل واحد من المختلفين على قراءته.

كانت هذه بعض الأوجه التي نرد بها على القائلين بأن سيدنا عثمان قد أبقى حرفًا واحدًا وألغى بقية الأحرف.

الشبهات المتعلقة بالأحرف السبعة (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	تابع الادعاء بأن سيدنا عثمان قد حذف ستة أحرف من الأحرف السبعة	٣٠٧
العنصر الثاني	:	دعوى وقوع الشك في صدور الصحابة بسبب الأحرف السبعة	٣١١
العنصر الثالث	:	دعوى أن التوسعة في الأحرف السبعة كانت من عند النبي ﷺ	٣١٥
العنصر الرابع	:	دعوى أن الصحابة كانوا يجوِّزون قراءة القرآن بالمعنى	٣١٧

تابع الادعاء بأن سيدنا عثمان قد حذف ستة أحرف من الأحرف السبعة

الرد على القائلين باشتمال المصاحف العثمانية على حرف واحد فقط وإلغاء سيدنا عثمان لبقية الأحرف السبعة:

كنا قد بينا أن هذا القول قول مرجوح وها نحن نشرع في تتمة الرد على القائلين بهذا القول فنقول:

يدل أيضًا على عدم صحة هذه الدعوى، أن سيدنا عثمان > لو أراد أن يجمع مصاحف الناس جميعًا لما استطاع؛ ولو استطاع لما قدر على أن يسلبهم ما يحفظون من الكتاب؛ إذ قد كانت دولة الإسلام في ذلك الوقت متسعة إلى حدٍّ يستحيل معه مثل هذا؛ فجمعه > كان عبارة عن أنه قد كتب للناس مصاحف أئمة يُرجع إليها عند الاختلاف.

قال الإمام ابن حزم -رحمه الله- مشيرًا إلى الدعوى القائلة: بأن سيدنا عثمان قد جمع الناس على حرف واحد وترك بقية الأحرف، قال -رحمه الله-: كل هذا باطل ببرهان كالشمس: وهو أن عثمان > لم يلِ -أي لم يتولَّ إمارة المؤمنين- إلا وجزيرة العرب كلها مملوءة بالمسلمين والمصاحف والمساجد، والقرّاء يعلمون الصبيان والنساء وكل من هب ودب، واليمن كلها في أيامه مدنٌ وقرى، والبحرين كذلك، وعمان كذلك، وهي بلاد واسعة: مدن وقرى، وملكها ملك عظيم، ومكة، والطائف، والمدينة، والشام كلها كذلك، في كل هذه البلاد من المصاحف والقراء ما لا يحصي عددهم إلا الله تعالى وحده؛ فلو رامَ عثمان ما ذكروا ما قدر على ذلك أصلًا.

وأما قولهم: إنه جمع الناس على مصحف؛ فباطل؛ ما كان يقدر على ذلك لما ذكرنا، ولا ذهب عثمان قط إلى جمع الناس على مصحف كتبه؛ إنما خشي عثمان > أن يأتي فاسقٌ يسعى في كيد الدين أو أن يهِمَ واهم من أهل الخير فيبدل شيئًا من المصحف؛ فيكون اختلاف يؤدي إلى الضلال؛ فكتب مصاحف مجمعًا عليها، وبعث إلى كل أفقٍ مصحفًا؛ لكي يرجع إلى المصحف المجمع عليه، فانكشف الحق وبطل الكيد والوهم.

وأما قول من قال: أبطل الأحرف الستة؛ فقد كذبَ من قال ذلك؛ ولو فعل عثمان ذلك وأراده لخرج عن الإسلام ولما مطل ساعة؛ بل الأحرف السبعة عندنا موجودة كلها، قائمة كما كانت، مبثوثة في القراءات المشهورة المأثورة، والحمد لله رب العالمين.

وعلى كل حال؛ فلقد تنازع الصحابة على عهد الرسول ﷺ في قراءات القرآن على حروفٍ مختلفة؛ كما رأينا في مقدمة هذا الباب، ومع ذلك أقرهم النبي ﷺ على هذه الحروف المختلفة، وحملهم على التسليم بها، وأخبرهم بأن تعددَ وجوه القراءة إنما هو رحمة من الله بهم؛ بل بالأمة كلها، وقرر النبي ﷺ في صراحة حينما كان يَسأل مولاه المزيد من عدد الحروف أن الأمة لا تطيق حصرها في حرف واحد، وقال: ((إن أمتي لا تطيق ذلك)) وأمة محمد باقية إلى يوم القيامة، وهي لا تطيق ذلك كما قرر رسولها ﷺ، فكيف يسوغ للصحابة } ، وهم خير القرون- أن يغلقوا باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام، مخالفين في ذلك هدي النبي ﷺ في إرادته للتخفيف بطلب تعدد الأحرف، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدد للأحرف؟!

وكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة أحرف نزل عليها القرآن دون أن يبقوا عليها، مع أنها لم تُنسخ ولم ترفع، وبالرغم من أن الرسول ﷺ

قرر بقوله وبفعله أنه لا يجوز لأحدٍ أيًّا كان أن يمنع أحدًا أيًّا كان من القراءة بحرف من السبعة أيًّا كان ؛ فقد صوّب النبي ﷺ قراءة كل من المختلفين وقال لكلٍّ : ((هكذا أنزلت)) وضرب في صدر أبي بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة.

إننا نربأُ بأصحاب رسول الله ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكّروا فضلًا عن أن يتآمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخٍ لها ؛ وكيف يُنسب هذا لسيدنا عثمان والمعروف أنه نسخ المصاحف من الصحف التي جُمعت على عهد الصديق > قبل أن يدب النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في القرآن ؛ فكانت تلك الصحف محتملةً للأحرف السبعة جميعًا وموافقةً لها جميعًا، ولم يحدث وقتئذٍ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد، ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبي بكر حرفًا واحدًا فضلًا عن ستة أحرف ؛ ولو حدث ذلك لنُقل إلينا متواترًا ؛ لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك وتوافقه الأمة ويتم الإجماع، ثم يكون خلافٌ في معنى الأحرف السبعة بالرغم من قيام هذا الإجماع؟! أي : كيف تجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد، ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولًا كما ذكرنا قبل ذلك؟!

ولنفرض جدلًا أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان > فرض عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد في القراءة ؛ فلماذا لم تسمح نفسُه الكريمة بإبقاء الأحرف الستة الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تقدّر بقدرها، وهذه الأحرف الستة لم تنسخ لا تلاوة ولا حكمًا حتى تذهب بجرة

قلم؟! ثم يبخل عليها بالبقاء ولو للتاريخ في أعظم مرجع وأقدس كتاب - ألا وهو القرآن الكريم؟! هل يعقل هذا؟! وهل يصدَّق هذا؟! على حين أن الصحابة } حفظوا للتاريخ آياتٍ نُسخت تلاوتها ونسخت أحكامها جميعًا، وعلى حين أنهم حفظوا قراءات شاذّة في القرآن ثم نقلت إلينا وكتب لها الخلود إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم؛ بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة وتناقل العلماء أحاديث موضوعة ونصوا على حكم كلٍّ منها وعلى إهمال العمل بها.

ثم إن من عرف تحمس الصحابة لدينهم واستبسالهم في الدفاع عن القرآن؛ يستبعد كل البعد بل يحيل كل الإحالة أن يكونوا قد فعلوا ذلك أو أقل من ذلك، وانظر إلى موقف عمر من هشام وموقف أبي بن كعب وابن مسعود مع صاحبيْهما، وتأمل كيف أن كلًّا من هؤلاء الصحابة } أَبَى أن يتنازل عن قراءة سمعها عن رسول الله ﷺ، وعلمها إياه رسول الله ﷺ ثم أقرهم عليها رسول الله، وحل مشكلتهم بأن أعلمهم وأخبرهم: أن كل منهم مصيب ومحسن، وأن قراءة كلٍّ منهم هكذا أنزلت، وأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وأن من كفر بحرف منها فقد كفر بها كلها، ونصحهم ألا يختلفوا في ذلك؛ فقد أهلك الاختلاف من كان قبلهم.

وبذلك نكون قد وفّينا الكلام والرد على القائلين باقتصار المصاحف العثمانية على حرف واحد فقط، ويتبع ذلك أن نرد على القائلين ببقاء الأحرف السبعة كلها في المصاحف العثمانية:

فنقول: أما القول بأن جميع الأحرف السبعة باقية، فيرد عليه بما مر من ثبوت وقوع النسخ لبعض وجوه القراءة في العرضة الأخيرة، وكذلك يرد عليهم بأنه لا يوجد في القرآن ما يُقرأ على سبعة أوجه إلا باعتبار وجوه القراءة الشاذة، ولا يخفى أن الشاذ لا يثبت له الحكم بالقرآنية أصلًا.

الخلاصة:

إننا إذا نظرنا إلى حقيقة الخلاف بين الفريقين -الثاني والثالث- وجدناه خلافًا شكليًّا؛ إذ كلاهما على أن الصحابة لم يزيدوا ولم ينقصوا مما عرض في العرضة الأخيرة شيئًا، وإنما اختلفوا: هل الأحرف كلها بقيت في العرضة الأخيرة أم لا؟ ولا يخفى أن النسخ قد ورد على كثيرٍ من تلك الأحرف، وأما الذين يرون أن الصحابة } قد اتفقوا على ترك ستة أحرف وجمعوا الناس على حرف واحد بتصرف واتفاقٍ منهم بعد أن ترك النبي ﷺ الأحرف السبعة وقرأ الناس بها زمن أبي بكر وعمر وصدرًا من خلافة عثمان؛ فهؤلاء -أي القائلون بهذا القول- هم الذين اختلفنا معهم وناقشنا أدلتهم ورددنا عليها، وهؤلاء هم الذين أُخِذ عنهم الرأي الذي بنى عليه الطاعنون كلامهم المتعلق بالأحرف السبعة، وبالرد على هؤلاء نكون قد رددنا على من طعن وقال بأن سيدنا عثمان قد ألغى ستة أحرف وأبقى حرفًا واحدًا فقط؛ فهل يبقى بعد هذا البيان أي شبهة أو اعتراض للطاعنين الذين بنوا كلامهم على قول مرجوح وتركوا القول الراجح من كلام العلماء؟!

دعوى وقوع الشك في صدور الصحابة بسبب الأحرف السبعة

وفيما يلي عرض لهذه الدعوى، ثم اتبعه بإذن الله بالرد والجواب على تلك الدعوى.

قال أحد الطاعنين: "تكاثرت الأخبار الصحيحة على اختلاف الصحابة في زمن النبي وبحضرته على قراءة القرآن بنصوص مختلفة؛ بدليل الحديث الوارد في اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم في قراءة سورة الفرقان، وهذا

الحديث يبين أن الاختلاف في النص القرآني قد بلغ مبلغًا كبيرًا كاد عمر بسببه أن يقتل صاحبه".

الجواب على هذه الدعوى:

لقد استغل الطاعنون حديثي عمر بن الخطاب وأبي بن كعب السابقين في تمهيد هذا الباب؛ ليدللوا بهما على وقوع الشك والارتياب في صدور الصحابة { بسبب الأحرف السبعة، وهوّل الطاعنون في هذا الأمر تهويلًا كثيرًا، وأعطوا الأمر صورةً أكبر من حجمها الطبيعي وصوّروا هذا الشك على أنه أمرٌ عام عند عموم الصحابة، وجعلوه حالة مستقرة ونتيجة طبيعية عند الصحابة لم يأتِ ما يزيلها أو يمحوها... وفيما يلي نبين الفهم الصحيح لهذين الحديثين، والرد الكافي على هذه الشبهة -إن شاء الله-:

وأبدأ بعرض نص الحديثين ثم أبين نقطتين مهمتين في فهم هذين الحديثين:

عن عمر بن الخطاب قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته؛ فإذا هو يقرأ على حروفٍ كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة؛ فتصبرت حتى سلّم -أي انتظرت حتى انتهى من صلاته- فلببته بردائه -أي أخذته من ثيابه وملابسه- فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت؛ فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت... فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروفٍ لم تقرئنيها؛ فقال رسول الله ﷺ: ((أرسله)) أي: اتركه يا عمر... ((اقرأ يا هشام)) فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ؛ فقال رسول الله ﷺ: ((كذلك أنزلت)) ثم

قال: ((اقرأ يا عمر)) فقرأت القراءة التي أقرأني؛ فقال رسول الله ﷺ: ((كذلك أنزلت... إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف؛ فاقرءوا ما تيسر منه))".

وعن أبي بن كعب أنه قال: "كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوى قراءة صاحبه؛ فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه؛ فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ فحسن النبي ﷺ شأنهما؛ فسقط في نفسي من التكذيب؛ ولا إذ كنت في الجاهلية -أي كأني في الجاهلية- فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففِضتُ عرقًا؛ وكأنما أنظر إلى الله ﷻ فرقًا؛ فقال لي: ((يا أبي، أُرسل إلي: أن اقرأ القرآن على حرف؛ فرددت إليه أن هوّن على أمتي؛ فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين؛ فرددت إليه: أن هوّن على أمتي فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف؛ فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها؛ فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليومٍ يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم - #))".

وبعد عرض هذين الحديثين ينبغي أن نقرر ما يلي:

أولًا: لا بد أن نقرر أن معنى الشك الوارد في حديث سيدنا أبي بن كعب > على سبيل المثال: أن الشيطان ألقى إليه من وَساوس التكذيب ما شوّش عليه حاله، وذلك حين رأى النبي قد حسّن القراءتين وصوّبهما برغم ما بينهما من اختلاف، وكأن الذي مرّ بخاطره وقتئذٍ أن هذا الاختلاف في القراءة يُنافي أنه من عند الله؛ لكنه كان خاطرًا من الخواطر الرديئة، التي لا تنال من نفس صاحبها منالًا ولا تفتنها عن عقيدة، ولا يكون لها أثرٌ باقٍ ولا عمل دائم، ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤاخذهم بهواجس النفوس وخلجات الضمائر؛ ولكن يؤاخذهم

بما كسبت قلوبهم؛ وذلك حين يفتح الإنسان للشبهة صدره ويوجه إليها اختياره وكسبه ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه؛ فكان هذا الخاطر الذي وقع في نفس سيدنا أبي بن كعب > من قبيل ما قال فيه النبي ﷺ حين سألوه: "إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به": قال: ((أوقد وجدتموه؟! قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان))".

ومن هذا نعلم أن ما خطر لسيدنا أبي بن كعب > لا يمس مقامه ولا يصادم إيمانه؛ لأنه قد دفعه سريعًا ودفعه في بداية الأمر بإرشادٍ من رسول الله ﷺ، كما ثبت في نص الحديث.

وإننا نتساءل: من الذي يستطيع أن يحمي نفسه من خواطر السوء الهوجاء ورياح الهواجس الشنعاء؟!

فالمكلف به المؤمن هو أن يحارب ويدفع تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة، ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها؛ كما فعل الرسول ﷺ مع سيدنا أبي بن كعب >؛ إذ ضرب النبي في صدره ليصرفه بشدة عن الاشتغال بهذا الخاطر، وليلفته بقوة إلى ما أخبره به من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف تهوينًا على الأمة وتيسيرًا لها.

ولقد نجح الرسول ﷺ في هذا العلاج أيّما نجاح، ولقد صوّر ذلك سيدنا أبي حين قال: "ففضت عرقًا وكأني أنظر إلى الله ﷻ فَرقًا". وإنما فاض العرق من سيدنا أبي > استحياءً من ربه لمّا تمثل له هذا الخاطر الذي لا يليق بمثله، ومثل هذه الخواطر والنزغات غير المستقرة لا تخلُّ بإيمان ولا عقيدة؛ بل هي دليل من أدلة قوة الإيمان -كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ.

ثانيًا: ينبغي أن نعلم أن خصومة عمر بن الخطاب > في الحديث الأول، وأن خصومة أبي بن كعب > في الحديث الثاني فيما يتعلق باختلاف القراءة؛ إنما كانت قبل أن يعلم كلٌّ من عمر وأبي { أن القرآن أنزل على سبعة أحرف؛ فكل واحد منهما وقتئذٍ كان معذورًا، بدليل أن كلًّا منهما لما علِم بذلك اطمأنت إليه نفسه وعمل بما علم؛ بل إن سيدنا أبي > أصبح بعد ذلك -كما هو معلوم- مرجعًا مهمًّا من مراجع القرآن، وكان من رواة هذا العلم للناس؛ كما نلاحظه في الأحاديث السابقة في تمهيد الكلام على الأحرف السبعة.

وبذلك تكون هذه الدعوة قد أحاط بها من الضياء ما تزول به ظلمة الجهل والتدليس والخفاء، وتبين لنا أن دعاوى الطاعنين ضعيفة أمام الحقائق العلمية -ولله الحمد والمنة.

دعوى أن التوسعة في الأحرف السبعة كانت من عند النبي ﷺ

قال أحد الطاعنين: لقد أدخلت هذه التوسعة النبوية في القراءات والأحرف المتعددة والمختلفة الشكّ إلى نفس عمر بن الخطاب.

كان هذا عرضًا موجزًا لكلام الطاعنين في هذه الدعوى، وفيما يلي أبين الجواب الكافي والرد الشافي الوافي على هذه الدعوى -فالله المستعان-:

للجواب على هذه الدعوى نقرر ما يلي:

الأحرف السبعة كلها على اختلافها هي كلام الله لا دخلَ لبشرٍ فيها، بل كلها نازلة من عنده تعالى مأخوذة بالتلقي عن رسول الله، ويدل على ذلك أن الأحاديث السابقة تفيدُ أن الصحابة { كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى رسول

الله، يأخذون عنه ويتلقون منه كل حرف ويقرءون عليه... انظر إلى قوله ﷺ في قراءة كلٍّ من المختلفين: ((هكذا أنزلت))، وتأمل قول المخالف لصاحبه: "أقرأنيها رسول الله".

أضف إلى ذلك أنه لو صح لأحد أن يغير ما شاء من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه- لبطلت قرآنية القرآن، وبطل كونه كلام الله، وذهب الإعجاز، ولم يتحقق قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ثم إن ادعاء حدوث التوسعة أو التبديل والتغيير من قِبل النبي ﷺ مردودٌ من أساسه بقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

فإذا كان أفضل الخلق ﷺ قد تحرّج من تبديل القرآن بهذا الأسلوب؛ فكيف يسوغُ لأحد -مهما كان أمره- أن يبدل فيه وأن يغير بمرادف أو بغير مرادف؟!.

كذلك مما يرد به على هذه الدعوى: ما ورد أن النبي ﷺ قد علّم سيدنا البراء بن عازب دعاءً، وكان من جملة هذا الدعاء قوله: ((آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت)) فلما أراد البراء رضي الله عنه أن يعرض ما حفظه على رسول الله ﷺ فقال -في جملة هذا الدعاء-: "آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت"، فلم يقره النبي ﷺ على ذلك؛ بل قال له: ((لا؛ بل قل: ونبيك الذي أرسلت)) لأن سيدنا البراء أبدل كلمة: ((ونبيك الذي أرسلت)) بكلمة: "ورسولك الذي أرسلت".

وهنا تعليق مهمٌّ: لقد نهاه النبي ﷺ أن يضع لفظة "رسول" موضع لفظة: "نبي"، مع أن كليهما حقّ؛ إذ هو ﷺ رسول ونبي معًا، ولا يوجد أي وجهٍ من وجوه

التعارض أو التناقض أو التضاد بين هاتين الكلمتين، ومع ذلك نهاه النبي ﷺ من إبدال لفظة مكان أخرى في دعاءٍ ليس بقرآن؛ فكيف يسوغ للجهّال المغفلين أن يقولوا: إنه ﷺ كان يجيز أن يضع في القرآن الكريم مكان "عزيز حكيم": "غفور رحيم" أو "سميع عليم"، وهو ﷺ يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنًا! أيمنعه في الدعاء ويجيزه في القرآن؟! هل يقول بذلك عاقلٌ صادقٌ مع نفسه؟! أجيبوا يا أصحاب العقول!.

دعوى أن الصحابة كانوا يجوِّزون قراءة القرآن بالمعنى

من دعاوى الطاعنين فيما يتعلق بباب الأحرف السبعة قولهم: بأن الصحابة كانوا يجوِّزون قراءة القرآن بالمعنى:

فقد ذكر أحد الطاعنين أثرًا: "عن ابن مسعود > أنه أقرأ رجلًا: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾، فقال الرجل: طعام اليتيم، فردها عليه؛ فلم يستقم بها لسانه؛ فقال ابن مسعود: أتستطيع أن تقول طعام الفاجر؟ قال: نعم: قال: فافعل". وقد عقّب أحد الطاعنين على هذه الرواية أو على هذا الأثر بقوله: وبذلك نعلم أن الصحابة كانوا يجوّزون قراءة القرآن بالمعنى.

كان هذا عرضًا موجزًا لكلام الطاعنين في هذه الدعوى، وفيما يلي أبين الجواب الكافي والرد الوافي على هذه الدعوى -فالله المستعان-:

لو كان الصحابة } يجيزون القراءة بالمعنى لما حصل بينهم شكّ أو تنازع عند سماعهم لقراءة بعضهم بعضًا؛ وكيف نظن بهم ذلك وهم { الذين ضربوا المثل الأعلى في الدفاع عن القرآن، وكانوا مستبسلين في المحافظة على التنزيل، متيقظين لكل من يحدِث فيه حدثًا، ولو كان عن طريق الأداء واختلاف

اللهجات، وكانوا مبالغين في هذه اليقظة حتى إنهم ليَتَّهم بعضهم بعضًا في هذا الباب، وينافحون عن القرآن بكل عناية وهمة، ويكفينا دليلًا على ذلك ما فعله سيدنا عمر > بصاحبه هشام بن حكيم، على حين أن هشامًا كان في واقع الأمر على صواب فيما يقرأ، وقد قال لعمر -تسويغًا لقراءته-: "أقرأنيها رسول الله"؛ لكن عمر لم يقتنع بذلك؛ بل أخذه ولم يتركه حتى قضى رسول الله ﷺ لهشام بأنه مصيبٌ في تلاوته، وقل مثل ذلك فيما فعله أبي > بصاحبه، وما كان من ابن مسعود وعمرو بن العاص مع صاحبيهما.

إن الروايات التي يُفهم منها تخيير الشخص بأن يأتي من عند نفسه باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى؛ كحديث أبي بن كعب >: "كلها شافٍ كافٍ ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب"، وما جاء: عن ابن مسعود > أنه أقرأ رجلًا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ فقال الرجل: طعام اليتيم، فردها عليه فلم يستقم بها لسانه؛ فقال ابن مسعود: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم، قال: فافعل.

نقول: هذه الروايات التي اعتمدت عليها هذه الدعوى يرد عليها بما يلي:

أولًا: هذه الروايات وأمثالها مهما بلغت من جودة الإسناد -كما قال الإمام السيوطي رحمه الله- فهي مردودة لمخالفتها لما جاء به القرآن، ومردودة لمخالفتها لما أجمع عليه العلماء؛ لأنه يؤدي إلى ذهاب بعض الإعجاز، فإن من إعجاز القرآن هذا التناسب والترابط بين الآية وخاتمتها، فلو جاز إبدال خاتمة بأخرى لعادَ بالخلل على الإعجاز القرآني.

قال القاضي عياض -رحمه الله- نقلًا عن الإمام المازني: وقول من قال: يجعل مكان "غفور رحيم": "سميع بصير"؛ فاسد أيضًا؛ للإجماع على منع تغيير القرآن للناس؛

فهذا النظم الكريم الذي جاء في المصاحف قد أجمع عليه العلماء وثبت بالتواتر المفيد للقطع واليقين؛ فلا تعارضه روايات أحادية مهما بلغت أسانيدها من الصحة أو من الحسن والجودة؛ لأن الأحادي لا يعارض المتواتر ولا يقوى على مناهضته.

ثانيًا: على فرض التسليم بثبوت هذه الروايات وما يماثلها؛ فقد تأول العلماء هذه الأحاديث على غير ظاهرها؛ وذلك لوجود الصارف لها، وهو ما تقدم من حصول الإجماع على عدم جواز ذلك؛ فلا نسلّم أنه يُفهم من هذه الروايات تخيير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى؛ بل قصارى ما تدل عليه هذه الروايات: أن الله تعالى وسّع على عباده -خصوصًا في مبدأ عهدهم بالوحي- أن يقرءوا القرآن بما تلين به ألسنتهم، وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بمترادفات من اللفظ الواحد للمعنى الواحد، بشرط أن يكون الجميع مما سمعوه من رسول الله ومما نزل به الوحي، ومما نزل به الروح الأمين على قلب سيدنا محمد ﷺ وقرأه الرسول على الناس وسمعوه منه، ثم نسخ الله ما شاء أن ينسخ بعد ذلك، وأبقى ما أبقى.

ومما يدل على أن الجميع نازل من عند الله تعالى: قول النبي ﷺ لكلٍّ من المتنازعين المختلفين في القراءة من أصحابه: ((هكذا أنزلت))، وقول كلٍّ من المختلفيْن لصاحبه: "أقرأنيها رسول الله"، وقول الله تعالى لرسوله جوابًا لمن سأله تبديل القرآن: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥، ١٦]، وليس بعد كلام الله ورسوله كلام.

نضيف إلى ذلك: أن الأمة قد أجمعت على: أنه لا مدخل لبشر في نظم القرآن لا من ناحية أسلوبه، ولا من ناحية ألفاظه، ولا من ناحية أدائه؛ فها نحن قد

رأينا القرآن في الآية السابقة يمنع الرسول من محاولة التبديل أو التغيير منعًا باتًّا مشفوعًا بالوعيد مصحوبًا بالعقاب الأليم ؛ فهل يُعقل أن يصدر من ابن مسعود أو غيره بعد كل هذا تبديلٌ أو تغيير لفظ من ألفاظ القرآن بلفظ من تلقاء نفسه؟!

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود > من أنه أقرأ الرجل بكلمة : "الفاجر" بدلًا من كلمة : ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ في قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ فغاية ما تدل عليه : هو أن ابن مسعود > سمع روايتين من رسول الله ﷺ ولما رأى الرجل قد تعسّر وتعذر عليه النطق بالأولى أشار عليه أن يقرأ بالثانية ، وكلاهما منزّل من عند الله.

وكذلك حديث أبي بن كعب السابق ، لا يدل على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضاده -كما زعم الطاعنون! إنما ذلك الحديث وأشباهه من باب الأمثال التي يضربها الرسول ﷺ للأحرف التي نزل عليها القرآن ؛ ليفيد أن تلك الأحرف -على اختلافها- ما هي إلا ألفاظٌ متوافقة مفاهيمها ومعانيها ، لا تخاذل بينها ولا تضاد ولا تناقض ، وليس فيها معنًى يخالف معنى آخر ويناقضه ؛ كالرحمة التي هي ضد العذاب ، وفهم هذه الروايات بهذه الصورة تقريرٌ لكون جميع الحروف نازلة من عند الله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢].

ومما ينبغي أن يُعلم أن مخالفة المروي للقرآن ، أو لما اشتهر من السنة ، أو لإجماع العلماء هو مما يقلل الثقة بتلك الروايات ، ويجعلها في عداد الروايات الواهية التي لا يُحتج بها ، والقاعدة العامة في هذا الأمر : أن للعلماء في توجيه هذه الروايات على فرض التسليم بثبوتها وصحتها مسلكين :

المسلك الأول : إن هذه الروايات أو مفهوم هذه الروايات : كانت أحرفًا يقرأ بها وكانت منزلة من عند الله تعالى للتوسعة على العرب في أول الأمر ، ثم نُسخت فيما

نسخ في العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل # على النبي ﷺ، ولم يعلم القارئ بها أنها نسخت، وعلى هذا يكون ابن مسعود على سبيل المثال قد سمع القراءتين عن النبي ﷺ، فلما تعذر على الرجل القراءة بإحداهما أقرأه بالقراءة الأخرى.

المسلك الثاني: أن نقول إن ما جاء في هذه الروايات ما هو إلا تفسيرٌ وتوضيح للفظ القرآن؛ فابن مسعود مثلًا لم يرد إقراء الرجل لفظ القرآن؛ وإنما أراد توضيح المعنى له؛ كي يكون ذلك وسيلة إلى النطق بالصواب فيما بعد، وقد ذكر الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره مقوله للإمام أبي بكر الأنباري -رحمه الله- في هذا الصدد حيث قال: ولا حجة في هذا للجُهال -يشير بذلك إلى هذه الروايات وأمثالها- من أهل الزيغ؛ أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله بن مسعود > تقريبًا للمتعلم، وتوطئة له؛ للرجوع إلى الصواب واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ.

وفي النهاية نقول: إذا كان الطاعنون يريدون أن يلمزوا الصحابة } ويريدون أن يلمزوا القرآن بالتحريف والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل؛ فالأولى لهم أن يلمزوا أنفسهم، والأولى لهم أن يواروا سوأتهم؛ لأن المسلمين كانوا -ولا يزالون- أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بغير علم، والمسلمون كانوا -ولا يزالون- أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بالهوى والتشهي، أو أن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجةٌ قاطعة، أو أن يسلكوا بالقرآن مسلكَ الكتب المحرفة والأناجيل المبدّلة، وإننا نذكّر هؤلاء الطاعنين بتلك الحكمة التي تقول: "من كان بيته من زجاج فلا يقذفن الناس بالحجارة".

هذا البيان يزيد كل عاقل ومنصف اطمئنانًا ويقينًا بأن الإجازة في أحرف القرآن وقراءاته إنما كانت في حدود المسموع المتلقى عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن رب العزة ﷻ هذا هو إجماع العلماء المحققين، والحمد لله رب العالمين.

الشبهات المتعلقة بالقراءات القرآنية، واتهام القرآن بالتناقض

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	الشبهات التي يفتريها الطاعنون فيما يتعلق بباب القراءات القرآنية	٣٢٥
العنصر الثاني	:	دعوى تناقض وتعارض بعض الآيات مع بعض	٣٣٤

الشبهات التي يفتريها الطاعنون فيما يتعلق بباب القراءات القرآنية

نبدأ أولًا بمقدمة مهمة تتعلق بعلم القراءات، ثم نذكر بعض الردود على الشبهات التي يفتريها الطاعنون فيما يتعلق بباب القراءات القرآنية:

أولًا: تعريف القراءات لغةً واصطلاحًا:

القراءات في اللغة جمع، والمفرد قراءه ومادة قرأ تدور في (لسان العرب) حول معنى الجمع والاجتماع، أما القراءة في الاصطلاح، فقد عرفها الإمام ابن الجزري -رحمه الله- فقال: القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن، واختلافها بعزو الناقلة.

بعد أن تكلمنا عن تعريف القراءة في اللغة والاصطلاح، ينبغي أن نبين أمرًا في غاية الأهمية، ألا وهو ما يتعلق بالإجابة على ذلك السؤال، والسؤال هو: هل القراءات منقولة بالسماع والرواية، أم بالرأي والدراية؟

ينبغي أن نعلم أن القراءات منقولة عن طريق التلقي والرواية، وليست منقولة عن طريق الرأي أو الدراية؛ لذلك نجد أن أصحاب القراءات يرجعون قراءتهم إلى صحابة رسول الله ﷺ وكلهم يروي عن رسول الله ﷺ.

قال الإمام الخطابي: إن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق، كل منهم عزى قراءته التي اختارها إلى رجل من صحابة رسول الله ﷺ وذلك الصحابي قرأ تلك القراءة على النبي ﷺ لم يستثن من جملة القرآن شيئًا، فأسند عاصم قراءته إلى علي > وابن مسعود > .

وأسند ابن كثير قراءته إلى أبي، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان > ، وهؤلاء كلهم يقولون: قرأنا على رسول الله ﷺ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات، فالقراءات سنة متبعة، يأخذها الآخر عن الأول عن رسول الله ﷺ.

ومن ثم حذر العلماء من أخذ القرآن عن المصحفيين، والمصحفيون هم الذين أخذوا القرآن من المصحف والصحف، ولم يتقلوه بالسماع والمشافهة، فعن سليمان بن موسى، قال: كان يقال: لا تأخذوا القرآن من المصحفيين، ولا العلم من الصحفيين.

وعن سعيد بن عبد العزيز التنوخي قال: كان يقال: لا تحملوا العلم عن صحفي، ولا تأخذوا القرآن عن مصحفي، ومنعوا القراءة بالقياس المطلق، وهو الذي ليس له أصل في القراءة يُرجع إليه، ولا ركن في الأداء يعتمد عليه.

قال الإمام مكي بن أبي طالب: القراءة الثابتة كلها عندنا من السنة التي لا مدفع فيها لأحد، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: سبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع، وتسويغه ذلك لهم، إذ مرجع ذلك إلى السنة والاتباع لا إلى الرأي والابتداع.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى بيان عدد القراءات، فإننا نقول:

إن القراءات المشهورة سبع قراءات، وهي كالتالي: قراءة عبد الله بن عامر، قراءة عبد الله بن كثير، قراءة عاصم بن بهدلة، قراءة أبي عمرو بن العلاء، قراءة حمزة بن حبيب الزيات، قراءة أبي عبد الرحمن نافع، قراءة علي بن حمزة الكسائي.

ويتلوها في الشهرة القراءات الثلاث المتممة للعشر، وهي: قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني، قراءة أبي محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قراءة أُبَيّ محمد بن خلف بن هشام البزار، ثم تأتي القراءات الأربع المتممة للأربع عشرة قراءة، وهي: قراءة الحسن البصري، قراءة الأعمش سليمان بن مهران، قراءة اليزيدي يحيى بن المبارك، وقراءة ابن محيصن.

والأئمة -رحمهم الله- قطعوا بتواتر القراءات السبع في جملتها وجمهور أفرادها، واختلفوا في القراءات الثلاث المتممة للعشر، والراجح القطع بتواترها وبقبولها، كما اتفقوا على أن القراءات الأربع الزائدة على العشرة شاذة، وإن كان فيها ما صح وثبت.

العلاقة بين القراءات وبين الأحرف السبعة:

فإذا كان الأمر كذلك فما هي علاقة القراءات بالأحرف السبعة؟ وهذا ما سوف نتحدث عنه فيما يلي بمشيئة الله ﷻ.

فنقول: القراءات السبعة ليست هي الأحرف السبعة، وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كلامًا نفيسًا في هذا الصدد، حيث قال: لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة، التي ذكر النبي ﷺ أن القرآن أنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة.

إذا تبين ذلك، فننتقل إلى بيان أمر آخر ألا وهو ما يتعلق بنوع الاختلاف الواقع بين القراءات:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، والمعنى: أفلا يتأملون ما نُزِّل عليك من القرآن،

فإن تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عن القرآن ولم يتأمله، ثم نبه ﷻ إلى وجه الاحتجاج وهو سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض، فإن قيل: كيف يتفق هذا مع الاختلاف الواقع مع القرآن العظيم من جهة قراءاته، وتفسيره ومحكمه، ومتشابهه؟

فالجواب أن نقول: إن الاختلاف قسمان: اختلاف تنوع، واختلاف تضاد، والاختلاف المنفي في الآية هو اختلاف التضاد والمناقضة، فلا يوجد -ولله الحمد والمنة- في القرآن العظيم قولان متنافيان، بل يشبه أوله آخره في الفصاحة، ويصدق بعضه بعضًا في الأخبار والأحكام.

قال ﷻ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، أما اختلاف التنوع فهو الواقع في القرآن العظيم من جهة القراءات والتفسير وغير ذلك، فاختلاف القراءات هو نوع من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

قال الإمام ابن الجزري -رحمه الله-: حقيقة اختلاف هذه السبعة المنصوص عليها من النبي اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى، قال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وبعد أن بينا -بحمد الله وفضله ومنه- الكلام على نوع الاختلاف الحاصل في القراءات، وأنه من اختلاف التنوع، ننتقل إلى مسألة أخرى ألا وهي: ما يتعلق بتلك الفوائد المتحصلة من تعدد القراءات.

وسوف أقسم هذه الفوائد إلى فوائد عامة تحصل لعموم الأمة، وفوائد علمية تظهر للمتخصصين والباحثين في علوم القرآن، وأفصل ذلك فيما يلي، فأقول:

من الفوائد العامة التخفيف على هذه الأمة، وإرادة التيسير بها والتهوين عليها إجابة لدعاء نبيها ﷺ.

كذلك من الفوائد: إظهار نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وغاية الاختصار وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان في ذلك من التطويل، وفي هذا تأكيد لإعجازه في فصاحته وبلاغته.

كذلك من الفوائد العامة: سهولة حفظ القرآن وتيسير نقله على هذه الأمة، إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه، وأدعى لقبوله من حفظه جمل من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات، لا سيما فيما كان خطه واحدًا، فإن ذلك أسهل حفظًا وأيسر لفظًا.

بعد أن بينت بعض الفوائد العامة من اختلاف وتنوع القراءات القرآنية، أذكر طرفًا من الفوائد العلمية المتحصلة من اختلاف القراءات الثابتة عن النبي ﷺ.

فمن هذه الفوائد فوائد عقدية تجلي عقيدة قد يكون بعض الناس قد ضل فيها، كما في قوله ﷻ في وصف الجنة وأهلها ونعيمهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠] جاءت في قراءة بضم الميم وسكون اللام في لفظ: "مُلْك"، وفي قراءه بكسر اللام وفتح الميم أي: "وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا ومَلِكًا كبيرًا"، وهذه القراءة هي من الأعظم الأدلة على رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

من خلال ما تقدم يتبين بشكل جلي أن الاختلاف في القراءات القرآنية هو اختلاف تنوع وتغاير، وليس اختلاف تناقض أو تضاد إذ ليس في شيء من القراءات تناف ولا تضاد، ولا تناقض ولا تباين، ويتبين كذلك أن من مقاصد

هذا الاختلاف التكثير من المعاني في الآية الواحدة، فكانت كل قراءة تلقي الضوء على جانب معين لم تبينه القراءة الأخرى، وكأن الموضوع مجموعة صور لمسجد أو بيت كل صورة تبين أو تزيد شيئًا جديدًا، لم تبينه الصورة الأخرى مع أن جميع الصور هي لمكان واحد.

والخلاصة: أن القراءات القرآنية وحي من عند الله ﷻ القراءات لا تدخل في كل كلمات القرآن، بل لها كلمات محصورة وردت فيها الكلمة، التي تقرأ على وجهين أو أكثر، يكون لكل قراءة معنى مقبول يزيد المعنى ويثريه.

وكذلك القراءات القرآنية لا تؤدي إلى خلل في آيات الكتاب العزيز، فطريق تلقي القرآن كان هو السماع الصوتي، سماع صوتي من جبريل لمحمد # وسماع صوتي من الرسول إلى كتبه الوحي أولًا، ثم إلى المسلمين عامة، وسماع صوتي من كتبة الوحي إلى الذين سمعوه منهم من عامة المسلمين، وسماع صوتي من كتبة الوحي إلى الذين سمعوه منهم من عامة المسلمين، وسماع صوتي حتى الآن من حفظه القرآن المتقنين إلى من يتعلمون منهم من أفراد المسلمين.

هذا هو الأصل منذ بدأ نزول القرآن إلى يوم الدين، وليست كتابة القرآن في مصاحف هي الأصل ولن تكون، فالقرآن يجب أن يسمع بوعي قبل أن يقرأ من المصحف، ولا يزال متعلم القرآن في أشد الحاجة إلى سماع القرآن من شيوخ حافظين متقنين، وفي القرآن عبارات أو كلمات، مستحيل أن يتوصل أحد إلى نطقها الصحيح بمجرد القراءة في المصحف.

وبهذا تتهاوى دعاوى الطاعنين، ولا يكون لها أي وزن في البحث العلمي المقبول؛ لأن المسلمين من جيل الصحابة ومن تبعهم بإحسان لم يتعلموا القرآن عن طريق الخط العربي من القراءة في المصاحف وإنما تعلموه سماعًا واعيًا

ملفوظًا، كما خرج من فم النبي ﷺ ثم قيض الله لكتابه شيوخًا أجلاء، حفظوه وتلوه غضًّا طريًّا، كما كان صاحب الرسالة يحفظه ويتلوه، كما سمعه من جبريل أمين الوحي.

أجل قد يكون لكلام الطاعنين وجه من الاحتمال، لو كان المسلمون يأخذون القراءة من المصاحف، أما وقد علمنا أن طريق تلقي القرآن هو السماع الموثق، فإن دعوى الطاعنين تذهب هباءً في يوم ريح عاصف، لقد سمع المسلمون من الرسول المعصوم ﷺ قوله فتبينوا، وسمعوا منه ﷺ فتثبتوا.

وذلك في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]، وسمعوا منه ﷺ: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا"، سمعوهما من النبي ﷺ وكلا القراءتين قرآنٌ موحًى بها من عند الله ﷻ.

والقراءتان وإن اختلف لفظاهما، فإن بين معنيهما علاقة وثيقة كعلاقة ضوء الشمس بقرصها؛ لأن التبين هو المصدر المتصيد من ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ وهو التفحص والتعقب في الخبر، الذي يذيعه الفاسق بين الناس، وهذا التبين هو الطريق الموصل للتثبت، فالتثبت هو ثمرة التبين، ومن تبين فقد تثبت، ومن تثبت فقد تبين.

فما أبدع هذه القراءات وما أظهر كونها وجهًا شديد الإشراق من وجوه إعجاز القرآن، ولو كره الحاقدون، وأختم بالكلام على ضابط القراءة الصحيحة، فعندما تكلم العلماء -رحمهم الله- على ضابط القراءة الصحيحة، قالوا:

الضابط الأول: هو صحة السند، قال الإمام ابن المبارك -رحمه الله-: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

الضابط الثاني: هو ثقة رسم المصحف.

الضابط الثالث: موافقة اللغة العربية، وقد أشار إلى هذه الضوابط الإمام ابن جرير الطبري، والإمام مكي بن أبي طالب، والإمام أبو عمرو الداني، والإمام أبو شامة وابن الجزري وغيرهم -رحمهم الله.

قال الإمام ابن الجزري بعد ذكره لهذه الضوابط: هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه، وأذكر جوابًا عامًّا في الرد على كل ما يتلعق بالقراءات، فأقول: أجيب على كل من يستدل على التحريف بوجود قراءات صحيحة ثابتة، نجيب عليه بجواب عام، فنقول: لا يضرنا إلا واحد من ثلاثة أشياء:

أولًا: إثبات قراءة لم تنقل عن النبي ﷺ فتكون هذه القراءة من عند أنفسنا.

ثانيًا: إثبات قراءة تخالف اللغة العربية التي نزل القرآن بها.

ثالثًا: إثبات قراءة تناقض قراءة أخرى، وما عدا ذلك فلن تقوم علينا به حجة، وكأن المعترض على وجود أوجه متعددة من القراءات الثابتة، قد فهم أنه يتحتم ألا ينقل عن الرسول ﷺ، إلا قراءة واحدة، والسؤال الذي نوجهه للمعترض في هذه الحال نقول له: من أين فهم ذلك، وما وجه هذا التحتم، وما الدليل عليه؟

إذًا كان يجب في المحاجة أن يقول المعترض: إن ذلك ليس منقولًا عن نبيكم بدليل كذا، أو أن يقول المعترض: إن ذلك ليس موافقًا للغة العرب بدليل كذا، وكل ما لا يوافق لغة العرب، فليس بقرآن باعترافكم أو أن يقول المعترض: إن هذه القراءة تناقض القراءة الأخرى، وكلام الله ليس فيه تناقض، فيلزم أن تكون إحدى التلاوتين تحريفًا.

هذا هو الذي كان ينفع المعترض في المحاجة لا ما يسوقونه من النماذج الكثيرة، والتي يجهدون فيها أنفسهم غاية الإجهاد، على أنه يمكننا بسهولة أن نقول لهم:

إنكم قد صرحتم في كل ما ذكرتموه من النماذج بأنها قراءة، ولم تنقلوا غير ذلك، وإذا كانت تلك قراءة فإنها لا تكون تحريفًا، بل هي قراءة ثابتة سمعناها من النبي ﷺ ونزل بها الوحي للحكم والفوائد التي ذكرناها قبل ذلك.

وبذلك نكون قد أثبتنا أن الطاعنين قد تخبطوا تخبطًا، لو أحسوا به لما تفاخروا بكلامهم، ولا فرحوا ببنات أوهامهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأختم الكلام على الأحرف السبعة والقراءات بتلك الكلمة الجليلة البليغة، التي ذكرها الإمام القرافي -رحمه الله- في رده على النصارى، عندما اعتبروا أن اختلاف أناجيلهم كاختلاف الأحرف السبعة، والقراءات عند المسلمين.

قال الإمام القرافي -رحمه الله- في الرد على ذلك: أنزل الله ﷻ كتابه العزيز على خير رسله بلغة قريش، وقبائل العرب مختلفة اللغات في الإمالة والتفخيم، والمد والقصر، والجهر والإخفاء، وإعمال العوامل الناصبة والرافعة والجارة، فلو كلفوا كلهم الحل على لغة واحدة؛ لشق عليهم ذلك.

فسأل ﷺ ربه أن يذهب الحرج، وكان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، فأنزلت القراءات لذلك، وكلها مروية عنه ﷺ متواترة، فنحن على ثقة في جميعها، وأنها عن الله ﷻ وبإذنه متلقاة عن خير رسله، فذهب اللبس وحصل اليقين، وأما أنتم يريد الرد على النصارى، يقول: وأما أنتم فليس في أناجيلكم رواية العدل عن العدل إلى مؤلف أناجيلكم، ولا صرح مؤلفو أناجيلكم بكلمة واحدة يقول متى فيها: قال لي المسيح: إن الله أنزل عليه كذا، بل إن غاية ما في بعضه قال يسوع المسيح كذا.

وهلموا إلى أناجيلكم تحكم بيننا وبينكم إن كنتم صادقين، فقد وقفنا عليها ولم نجد فيها شيئًا من ذلك، بل تواريخ وحكايات وأخبار، وبينها أقوال يسيره معزوه للمسيح # لم يصرح فيها بأنها من الإنجيل ولا من غيره.

أما الإنجيل فلم يتميز قط، ولم يعرف له صورة ولا سمع منه كلمه غايته أن التلاميذ أملوا هذه الأناجيل بعد رفع المسيح # بمدة طويلة، ولم يصرحوا بأن هذا منزل ولا غير منزل، ولم يصرحوا بأن هذا منزل ولا غير منزل، فسقطت الثقة من الجميع حتى يتعين المنزل.

ولهذه القواعد لم يجز المسلمون أن يجعلوا شيئًا من الأحاديث النبوية مع صحتها، أن تكون من الكتاب المنزل، ولم يجز المسلمون أن يجعلوا ذلك أيضًا لقول أحد من الصحابة، بل متى قال الصحابي قولًا نسب لذلك الصحابي فقط، ولا يجوز أن يقال: هذا من قول النبي # فضلًا عن كونه من القرآن، أما أنتم -يخاطب النصارى- يقول: أما أنتم فقد جعلتم الجميع من الكتاب المنزل، وسميتموه كتاب الله المقدس، فوقعتم في الضلال وقول المحال، فلا تشبهوا أنفسكم بنا فوالله ما اجتمعنا في شيء من هذا، بل أنتم في غاية الإهمال، ونحن في الاحتفال.

وبذلك انتهت كلمة الإمام القرافي -رحمه الله- في الرد على النصارى، الذين يشبهون اختلاف أناجيلهم باختلاف الأحرف السبعة، والقراءات عند المسلمين، قد رد عليهم الإمام القرافي -رحمه الله- ردًّا بليغًا جميلًا، وبهذا الرد البليغ الجميل ننهي الكلام على ما يتعلق بالقراءات، فلله سبحانه وتعالى الحمد والمنة.

دعوى تناقض وتعارض بعض الآيات مع بعض

بعد أن أنهينا بحمد الله وفضله ومنه الكلام على الأحرف السبعة والقراءات، وعلى ما يتعلق بهذا الباب الكبير، ننتقل إلى الكلام عن أمر آخر في غاية الأهمية في رحلتنا هذه، التي ندافع فيها عن القرآن، ونرد فيها على مطاعن الملحدين والمستشرقين.

والذي نريد أن نقف معه هو دعوى التناقض والتعارض، فنقف أولًا: مع اتهام القرآن بالتناقض، فقد زعم البعض تناقض بعض الآيات مع بعض، وهذا

الموضوع قد أكثر الطاعنون منه، وذلك بناءً على القاعدة الجدلية: أن التناقض علامة على بطلان المذهب، ولكن كل ما زعموا فيه التناقض فهو محض افتراء أو جهل.

وقد تكلم العلماء قديمًا على هذا النوع من الطعون، وجمعوا كل ما قيل في ذلك، ورتبوها على حسب ترتيب سور المصحف، وأجابوا على كل ما قيل في ذلك، بل وعلى ما لم يقل، مما يظن أن فيه إشكال أو تناقض.

ومن الكتب المؤلفة في هذا الفن ما يلي: (كتاب تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، (المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير) لابن قتيبة، (أضواء على متشابهات القرآن) لخليل ياسين، (باهر القرآن في معاني مشكل القرآن) لبيان الحق النيسابوري، (دفع إيهام الاضطراب) لمحمد الأمين الشنقيطي، وغير ذلك من الكتب الكثيرة التي لو جمع كل ما فيها لكان مجلدات كثيرة.

وإنما قصدت بذكر هذه الكتب بيان أن هذا الطعن قد قتل بحثًا، وأجيب عن كل ما قد قيل أو يمكن أن يقال فيه، ومع هذا لا زال أعداء الدين ينعقون بهذه الطعون، ويرددونها مما يدلك على عدم حرصهم على اتباع الحق، أو إنما القصد هو إضلال بسطاء المسلمين ممن لم يقرأوا هذه الكتب، والله المستعان.

وسأذكر بعض الطعون التي ذكرها الطاعنون في هذا المجال، وأذكر الجواب عليها بإيجاز -بإذن الله ﷻ، فهناك طائفة ذكرت عدة طعون، وقد رد عليها الدكتور عبد الجليل شلبي في كتابه (رد مفتريات على الإسلام)، وقد رد فيه على رسالتين تطعنان في القرآن الأولى: رسالة في ست ورقات منسوبة إلى المجلس القبطي، وموقعه باسم الأسقف العام، والطعون التي ذكروها أذكر منها ما يلي:

أولًا: في سورة يونس قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥] وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

ففي الآية الأولى طلب منه التبديل فرفض، وفي الآية الثانية تم التبديل، هكذا يقولون وهكذا يدعون، أما الجواب على هذا المثال الذي ذكروه، فنقول: إن التبديل في الآية الأولى كان بطلب من الكفار لرسول الله ﷺ أن يأتي بقرآن جديد أو أن يبدل هذا القرآن، ورسول الله ﷺ يقول: لا أستطيع، فذلك كلام الله ينسخ منه -سبحانه- ما يشاء، ويثبت منه ما يشاء، وأنا أتبع ما يوحى إلي نسخًا وإثباتًا.

أما الآية الثانية وهي آية سورة النحل، فإنها تذكر أن الله سبحانه وتعالى إذا نسخ حكمًا بحكم، فإن الكفار يقولون لسيدنا محمد: أنت مفتر في هذا القرآن؛ لأنك غيرت حكمًا قد قررته من قبل، ثم تقرر الآية التالية أن ذلك من الله سبحانه وتعالى نزل من عند الله سبحانه وتعالى نزله الله بواسطة جبريل على محمد ﷺ، والتغيير والتبديل ليس من شأن محمد، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل، والله هو الذي يغير، والله هو الذي يبدل، والله هو الذي يمحي والله هو الذي يثبت؛ لأن ذلك حق خالص لله سبحانه وتعالى.

وهذا الوحي هو وحيه سبحانه وتعالى يفعل فيه ما يشاء، فأي تناقض بين الآيتين كلتاهما تثبت أن القرآن من عند الله، وأن محمدًا لا يستطيع أن يغير من الوحي شيئًا.

أذكر نموذجًا ثانيًا مما ادعوا أنه من أمثلة التناقض أو التعارض، قالوا: الله ﷻ يقول في سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] ويقول ﷻ في سورة الكهف: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، قالوا: فالآية الثانية تخبر أن كلمات الله لا تبدل، أما الأولى فتخبر أنها تنسخ وتنسى، والنسخ نوع من التبديل.

وهكذا رأوا أن هناك تعارضًا وتناقضًا بين الآيتين، الجواب عليهم نقول: الآية الأولى أي آية سورة البقرة ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، هذه الآية تتحدث عن نسخ الأحكام وتغيير حكم بآخر، وهذا أمر لابد منه في حال أمة جاهلية نقلها الإسلام تدريجيًّا إلى حال جديدة متكاملة.

أما الآية الثانية، وهي آية سورة الكهف: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، هذه الآية تذكر أنه لا أحد غير الله يستطيع أن يبدل كلمات الله، أو أن يرد حكمًا أنزله الله، والطاعنون لم يفهموا النص فظنوه تناقضًا، وكلتا الآيتين توضح أن الله ﷻ وحده يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، تمامًا كما قلنا في الآية السابقة.

والتبديل يطلق على تبديل الأحكام، وهذا سائغ ويطلق على تبديل الأخبار، وهذا لم يقع في القرآن فتبديل الأحكام جائز، أما تبديل الأخبار فلا يجوز ولم يقع منه شيء في القرآن، ولو وقع شيء من تبديل الأخبار لصح أن يسمى ذلك تناقضًا، ولكن هذا لم يقع، ولم يقع النسخ إلا في الأحكام، فكل آية لها مورد فالنسخ والتبديل يكونان في الأحكام لا في الأخبار.

وأذكر مثالًا ثالثًا، وأختم به لبيان تهافت دعاوى الطاعنين الذين يدعون التناقض بين آيات القرآن، هذا المثال الثالث قالوا: قال -تعالى- في سورة

الحجر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ثم قالوا: إن الله قال في سورة الرعد: ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، قالوا: كيف يجتمع الحفظ الذي جاء في سورة الحجر مع المحو، الذي جاء في سورة الرعد؟

وجعلوا ذلك تناقضًا واضطرابًا، وللجواب على ذلك نقول: آية الحجر تصف القرآن أنه تنزيل من الله -تعالى-، وأن الله حافظه من الزوال والتحريف، وصدق الله وصدق قرآنه، فالمسلمون بعد هذه القرون الطويلة يقرؤون القرآن غضًّا طريًّا صريحًا صحيحًا، كما أنزله الله تعالى، وكما قرأه النبي ﷺ على أصحابه.

فأين كتاب موسى وأين وصاياه؟ وأين إنجيل عيسى؟ هذه كتب لم يحفظها الله -تعالى-، فذهبت مع الأيام، أما القرآن لم يضع منه شيء ولن يضيع، أما آية الرعد فإنها تذكر أن الله ﷻ يمحو أحكامًا، ويثبت أخرى ويمحو مقادير ويثبت غيرها، هل في ذلك تضارب؟ هل في ذلك تناقض؟

آية الرعد ليست في القرآن أو ليست في آيات القرآن، أو لا تتكلم عن المحو والإثبات في آيات القرآن، بل تتكلم عن الصحف التي بيد الملائكة، التي فيها مقادير الخلق، فإن الله تعالى يغيرها حسب مشيئته وحكمته، واختلف العلماء في ذلك ولكن كل الخلاف دائر في باب القدر، أو دائر في باب مقادير الخلق.

ولو سلمنا أن آية الرعد تتكلم عن المحو والإثبات في آيات القرآن، لو سلمنا بذلك جدلًا، فإننا نجيب على ذلك فنقول أيضًا: فإن المقصود بالمحو والإثبات في آيات القرآن، إنما هو المحو والإثبات في وقت حياه النبي ﷺ، أما بعد اكتمال الوحي وبعد نزول القرآن، وبعد موت النبي ﷺ، فإن الله سيحفظ القرآن وإن الله سيصون القرآن، فأين التناقض وأين الاضطراب؟

لذلك أكون بحمد الله قد بينت الجواب على نموذج من هذه الدعاوى والافتراءات المتهافتة، فلله سبحانه وتعالى الحمد والمنة.

وبعد أن بينا فيما سبق كلامًا موجزًا مجملًا في استعراض كلام الطاعنين على دعوى التناقض، والتعارض بين بعض الآيات القرآنية، ننتقل أيضًا في إشارة خاطفة مجملة موجزة، ننتقل إلى دعوى أخرى من تلك الدعاوى، والتي تدخل تحت دعاوى التعارض أو اتهام القرآن بمعارضة الحقائق التاريخية.

الكلام على دعوى تعارض القرآن مع الوقائع التاريخية:

وقد أشعل أوار هذه الفتنة وحمل رايتها محمد خلف الله في كتابه (الفن القصصي في القرآن الكريم)، وإن كان هو لم يبتدعها، بل أخذها من المستشرقين، ثم جاء المعاصرون بعد ذلك، وللأسف هم من بني جلدتنا جاءوا؛ ليكلموا المشوار ونفذوا تلك الأباطيل بأقوال تنبئ عن سوء طوية وفساد قصد.

وتلك هي أقوالهم: يقول طه حسين: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة وبالقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، ثم قام محمد خلف الله بجمع كل هذه المغالطات، وما أوردوه من شبه على هذه القضية، وسود فيها كتابًا سماه (الفن القصصي في القرآن الكريم)، ووافقه على هذا أمين الخولي.

وقد قدم خلف الله مقدمة في بيان أن هناك فنًّا من الفنون هو ما يسمى بالفن القصصي، هذا الفن يعتمد فيه على جمال الأسلوب، وترابط الفكرة مع الهدف النبيل من القصة، ولا يضير هذا الفن كون القصة ملفقة أو خيالية، ما دام أن الهدف نبيل والغاية نافعة، ثم بنى على هذه المقدمة أن قصص القرآن هي نوع من

أنواع هذا الفن في جميع صفاته؛ لذلك فلا يلزم أن تكون كل قصة يذكرها القرآن هي قصة واقعية.

ثم بعد ذلك أخذ يقرر هذه الدعوى، بأن الكثير من القصص القرآني ليست صحيحة تاريخيًّا، بل التاريخ يخالفها، وقد طرح خلف الله كلامه هذا بكل جرأة، حتى إنه لن يجد ضيرًا أن يقول ما قال الكفار عندما قالوا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٢٥] حتى إنه لم يجد ضيرًا أن يقول ما قاله الكفار، وحكاه عنهم القرآن في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

قال خلف الله: إنا لا نتحرج من القول: بأن القرآن أساطير. فانظر إلى هذا الهذيان الذي تشمئز منه نفوس المسلمين، وتقشعر منه جلودهم، ولست في مقام الرد على هذا الكتاب، وعلى هذه المغالطات، بل إنما أريد الرد على القضية الكلية التي هي دعوى معارضة القرآن للحقائق التاريخية.

وسوف أبين عددًا من الردود إجمالية على هذه الدعوى، وأبين عددًا من الردود التفصيلية على حسب ما يقتضيه المقام، وما يسمح به المقام، فالله ﷻ المستعان، فابدأ أولًا بالكلام على ردود إجمالية على هذه الدعوى، ألا وهي دعوى: معارضة القرآن للحقائق التاريخية:

أولًا: هذه الدعوى مخالفة لإجماع الأمة، تلك الأمة التي أجمعت على أن كل القصص في القرآن إنما تحكي واقعًا حقيقيًّا.

ثانيًا: هناك نصوص ترد هذه الدعوى من أساسها، بل هي في محل النزاع قف مثلًا مع قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

قف مع قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، قف مع قوله ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فكل ما في القرآن إما أخبار أو أحكام، فكل أخباره صدق وكل أحكامه عدل، ومن الأخبار قصص الأمم السابقة مع أنبيائها.

ثالثًا: لا شك أن القصة من أهدافها العبرة، وأحيانًا قد يختلق القاص القصة وينسخها من وحي خياله، لكن هذا ليس هو الكمال فكون الراوي يأخذ العبرة من قصة واقعية هو الأكمل، والقرآن لا يأتي إلا بالكمال، قال ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وما كان لأحسن القصص أن يكون كذبًا أو اختلاقًا أو تلفيقًا أو خيالًا.

رابعًا: دأب العلماء وحرص العلماء على أخذ الكثير من الأحكام الفقهية من القصص القرآنية، مثل صحة أنكحة الكفار المأخوذ من قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]، ومثل جواز كون المهر عملًا، وذلك مأخوذ من قوله ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

وأكتفي بهذين النموذجين لأقول: إن إبطال القصص القرآني يبطل الكثير من الأحكام؛ لأنه إذا كانت القصة مكذوبة، فلا يجوز أخذ الأحكام منها وهذا ما لم يقل به أحد.

خامسًا: ما قولهم -أي ما قول هؤلاء الذين يدعون تلك الدعوى- ما قولهم في وصف القرآن بما فيه من قصص بأنه الحق، ما قولهم في ذلك الوصف؟ ألم يقل الحق ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]؟ ألم يقل الحق ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]؟.

ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]؟ ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]؟ ألم يقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]؟ ألم يقل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]؟ ألم يقل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]؟ ألم يقل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]؟ ألم يقل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]؟ ألم يقل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]؟.

فقد أثبتت هذه الآيات كلها وأمثالها في القرآن كثير، أثبتت أن القرآن كله حق نزل من عند الله، وآياته كلها حق وقصصه كلها حق؛ لأن الله تعالى لا يقص إلا الحق وهو يقص علينا نبأ أهل الكهف بالحق، ويقص علينا نبأ موسى وفرعون بالحق، وكل ما قص وأوحى به فهو الحق؛ لأن الله -تعالى- لا يقول إلا الحق، وهو يهدي السبيل، ووحيه كله حق وكتابه كله حق، لا يصل إليه الباطل والافتراء والكذب بأي وجه من الوجوه.

فأين في هذا كله ما يتيح لخلف الله وأصحابه الزعم، بأن نفي الافتراء في هذه الآيات لا يلحق المواد الأدبية والقصصية، ولا بما في هذه القصص من صور للأحداث والأشخاص؟ أين ما يتيح لهم ذلك؟ لقد أجابت على هذا الزعم الباطل آخر آية في سورة يوسف، وهي قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فالعبرة المستخلصة من القصص القرآني، إنما تستخلص من قصص حق لا افتراء فيه ولا أسطورة، وبعد الكلام على هذه الردود الإجمالية على هذه الدعوى، أذكر طعنًا من الطعون التي يسمح بها المقام، وأذكر الرد التفصيلي عليه.

قالوا في طعن من طعونهم: إن الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، وقد علم أن بين مريم وهارون أكثر من خمسة عشر قرنًا، وقد علم أن بين مريم وهارون قرونًا كثيرة، هذا هو ملخص ذلك الطعن وللجواب عليهم نقول:

أولًا: أن هارون كان رجلًا صالحًا من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح والإصلاح، والمراد أنك كنت في الزهد والتقوى كهارون، فكيف صرت إلى هذا الفعل؟

ثانيًا: أن مريم من نسل هارون فنسبت إليه، كما يقال: يا أخا همدان أو يا أخا العرب، يعني يا من نسله منهم، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

ومن هذا الباب: حديث عن عبد الله بن عمر أنه قال: ((كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟ فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: من يعوده منكم؟ فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السباخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله، حتى دنا رسول الله ﷺ، وأصحابه الذين معه)) وهذا جواب في غاية القوة على هذا الطعن.

ثالثًا: إن هارون كان رجلًا معلنًا بالفسق فشبهت به:

رابعًا: نقول في الجواب: هارون المقصود به هنا ليس هو هارون أخي موسى، بل هو أخ لمريم حقيقة فنسبت إليه، فقد عرض هذا الإشكال على النبي ﷺ، فأجاب عنه بهذا الجواب.

فقد أخرج الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة، قال: ((لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرءون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم، والصالحين قبلهم)) أي: كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم.

وهذا نص قاطع صحيح صريح في هذه القضية لا محيد عنه، كان هذا نموذج من الطعون، وهذا أيضًا نموذج من الأجوبة والردود على مثل هذه الطعون المتهافتة، التي يرد عليها بكل سهولة، وبذلك نكون بحمد الله وفضله ومنه قد عرضنا لدعوى تعارض القرآن مع الوقائع التاريخية، وذكرنا ردودًا إجمالية على هذه الدعوى، وذكرنا طعنًا من الطعون التفصيلية والرد عليها.

وبذلك نكون بحمد الله ﷻ وفضله ومنه- قد تعرضنا للكلام على اتهام القرآن بالتناقض، وتعرضنا للكلام على اتهام القرآن بمعارضة الحقائق أو الوقائع التاريخية.

وبذلك نكون قد أنهينا الكلام على تلك الدعاوى والافتراءات، وبينا الأجوبة الكافية والردود الوافية الشافية على تلك الطعون والافتراءات.

عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول : الشيعة وموقفهم من القرآن ٣٤٧

العنصر الثاني : ما يتعلق بحجم أخبار هذه الفرية في كتب الشيعة الإمامية ٣٥٨

الشيعة وموقفهم من القرآن

هل يقول الشيعة بتحريف كتاب الله تعالى؟ وما هي الأدلة على ذلك؟ وإذا ثبت ذلك، فما هي الأسباب التي دعتهم إلى هذا الاعتقاد؟ وما هو حجم هذه الفرية في كتبهم إذا ثبتت؟ وهل يقول بذلك المتأخرون أم لا؟ وما هي نتيجة هذا الاعتقاد إذا كان ثابتًا؟ وكيف نرد عليه؟

أبدأ في الكلام على عقيدة الشيعة في القرآن، أبدأ بهذا التمهيد، فأقول: لقد بدأت استفادة المبشرين من شبهات الروافض وأكاذيبهم ومفترياتهم على الإسلام والمسلمين منذ وقت ليس بالقريب، ففي عصر الإمام ابن حزم -رحمه الله- كان النصارى يتخذون من افتراءات الروافض حول كتاب الله -سبحانه- حجة لهم في مجادلة أهل الإسلام، وقد أجاب الإمام ابن حزم -رحمه الله- عن ذلك بكل قوة وحزم، وعلى شاكلة مقولات وكتابات الروافض جاءت كتابات المبشرين المعاصرين والطاعنين المعاصرين، فقد استغلوا هذه المقولات للشيعة الإمامية في إثارة الشبهات حول الإسلام والقرآن؛ حيث سطروا كثيرًا من الشبهات أملاها الحقد، وخطها الحسد، ونفخ فيها الشيطان من روحه تدل على أن الطاعنون قد أكل الغيظ قلوبهم، ونهش الغل من أكبادهم.

وللأسف لم يجد الطاعنون ما ييسر لهم بغيتهم إلا عند الشيعة الإمامية، والمطالع لكلام المبشرين، والمستشرقين يشعر بأن الشيعة الإمامية قد قدموا للطاعنين هدية على طبق من ذهب بلا عناء ولا تعب؛ حيث تراهم ينقلون الصفحات الطوال من كتبهم ومراجعهم المعتمدة ويستدلون بكلام شيوخهم، وأئمتهم على تحريف القرآن.

بعد هذا التمهيد أنتقل إلى بيان نقطة في غاية الأهمية، تلك النقطة تتعلق بالهدف من هذا الدرس، أو الهدف من الكلام على عقيدة الشيعة فيما يتعلق بالقرآن، أقول: ينبغي أن يُعلم في بداية الأمر أن عرض هذا الموضوع ليس من أجل الرد، والدفاع عن القرآن؛ فكتاب الله لا تنال من عظمته دعوى حاقد، ولا تنال من عظمته مزاعم مغرض، فهل يستر الشمس أو يحجب القمر كف إنسان؟! كما أن إهمال القول الكاذب قد يكون أحرى لإماتته، وانصراف الأنظار عنه، ما لم يتفش هذا القول، ويشتهر، وتحمله طائفة، وتسير به كتب، وإلا فإذا تفشى واشتهر، وسارت به الكتب، فحينئذ يجب كشف المبطل وباطله.

فدراسة هذه المسألة ليست من أجل الرد، وإنما هي لبيان هل الشيعة تقول بهذه المقالة أم لا؟ وإذا ثبت ذلك ففي ثبوت ذلك أكبر فضيحة للشيعة تهدم بنيانها من الأساس، وتزلزل كيانها من القواعد.

ومن ثم فإني أعرض في هذا البيان لحقيقة نسبة هذه المسألة للشيعة؛ لأن من حاول المساس بكتاب الله والنيل من قدسيته، فإنه بعيد عن الإسلام وإن تسمى به، ومن الواجب كشف هؤلاء لتعرف الأمة عداوتهم؛ لأنهم يحاربون الإسلام في أصله العظيم، وركنه المتين.

ثم إن حكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه، لما توافر لكتاب الله تعالى من وسائل الحفظ، وأسباب الضبط التي يستحيل معها أن يتطرق إليه نقص أو تغيير، وذلك تحقيقًا لوعد الله سبحانه وتعالى في كتابه عندما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

هذا ومن عجيب أمر هذه الدعوى التي وجدت في محيط الشيعة أنها ولدت وفي أحشائها أسباب فنائها، وبراهين زيفها وكذبها، لم يُحكم واضعها الصنعة في

صياغتها، ولم يجد الحيلة في حبكها، فجاءت على صورة مفضوحة، وبطريقة مكشوفة، ولذلك نقضت نفسها بنفسها، فهي تقوم على دعوى أن القرآن ناقص ومُغير، وأن القرآن الكريم الكامل المحفوظ من أي تغيير هو عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب > ثم ورثه الأئمة من بعده، وهو اليوم عند مهديهم المنتظر، فقد ربطوا هذه الدعوة بأمير المؤمنين علي > ، ولكن عليًّا هو الذي حكم القرآن في خلافته، وقرأ القرآن وتعبد به، ولو كان لديه غيره لأخرجه للناس، ولو كان شيء مما يدعون لأخرج الإمام علي القرآن الكامل الذي جمعه، وعارض به هذا القرآن المحرف كما يدعون، ولتدارك الأمر حين أفضت إليه الخلافة؛ لأن من أقر الخائن على خيانته كان كفاعلها.

وقد حارب الإمام علي سيدنا معاوية { على أقل من هذا الأمر، فكيف لم يفعل ذلك، وهو أمير المؤمنين؟ لم يجد أصحاب هذا الافتراء ما يجيبون به عن هذا السؤال الكبير، الذي ينسف بنيانهم من القواعد سوى قولهم على لسان عالمهم نعمة الله الجزائري، قال: ولما جلس أمير المؤمنين # على سرير الخلافة لم يتمكن من إظهار ذلك القرآن، وإخفاء هذا لما فيه من إظهار الشنعة على ما سبق.

هكذا يجيبون، وبهذا يعتذرون، وأي قدح وسب لأمير المؤمنين أبلغ من هذا وأشد، إنهم يتهمون عليًّا > بأنه راعى المجاملة لمن سبقه على هداية الأمة، ولهذا لم يخرج ما عنده من القرآن، كما أنهم ربطوا وجود المصحف بإمامهم المنتظر الذي لم يولد أصلًا، ولا وجود له، والإمام الغائب، والمصحف الغائب كلاهما وهم وخيال.

والكلمات المفتراة التي قدموها على أنها آيات ساقطة من المصحف انكشف بها كذبهم، وظهر بها بهتانهم، فهي أشبه ما تكون بمفتريات مسيلمة الكذاب

وادعاءاته، لا تربطها بلغة العرب وبلاغة اللسان العربي أدنى رابطة، كما سيأتي تفصيل ذلك بمشيئة الله.

وهنا نقف عند بيان حقيقة قول الشيعة بهذه المقالة، نقول: هل الشيعة تقول بأن في كتاب الله نقصًا أو تحريفًا؟

وإنما تعمدت لبيان هذه الفقرة بهذه الصيغة الاستفهامية لعدة أسباب:

أولًا: لأن هناك طائفة من أعلام الإمامية يتبرءون من هذه المقالة، مثل: الشريف المرتضى، وابن بابويه القمي، وغيرهما.

ثانيًا: لأن إجماع المسلمين قام على أن كتاب الله ﷻ محفوظ بحفظ الله له، قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] فمن قال بأن في القرآن نقصًا أو تحريفًا فليس من أهل القبلة، وليس من الإسلام في شيء، ومن هنا فإن العدل يقتضي بأن نحتاط في دراستنا لهذه المسألة أبلغ الاحتياط، وأن نعدل في القول، فلا نرمي طائفة بهذه المقالة إلا بعد الدراسة والتثبت.

ثالثًا: لأن هناك طائفة من المفكرين يرمون الشيعة بالقول بهذا الكفر، ويعممون في تلك القضية، ولا شك بأن الشيعة فرق وطبقات، فلا يصح مثلًا أن يقال: بأن متقدمي الشيعة قالوا بهذه المقالة، ولا يُقبل مثلًا أن يُقال: بأن الزيدية -وهم طائفة من طوائف الشيعة- تقول بهذه الفرية، فأسلوب التعميم غير مرضي، ولا مقبول.

وفيما يلي أعرض بعض النماذج التي توقفنا على معرفة عقيدة الشيعة في القرآن، فأورد في البداية بعض النماذج التي تدل على اعتقاد الشيعة الإمامية بفرية التحريف.

أولًا: نماذج لتحريف المتقدمين: بدأت الروايات بهذه الفرية عند القمي والكليني تأخذ بهذه الأسطورة إلى مرحلة عملية، فبدءوا بإقحام كلمة في علي بعد أي آية فيها لفظ "أنزل الله إليك"، أو "أنزلنا إليك"، وبدءوا في زيادة جملة (آل محمد حقهم) بعد لفظ "ظلموا" في أي مكان جاءت فيه في القرآن، وبدءوا في زيادة لفظ (في ولاية علي) بعد لفظ "أشركوا" في أي موضع في القرآن.

هذا العرض عرض مجمل أتبعه ببعض النماذج التفصيلية التطبيقية كما وردت في كتب علماء القوم، فهذه فيما يلي أمثلة عملية على تحريفهم.

أقول: على هذا المنوال نسج القوم في القرآن كله، ومن شواهد هذا ما يرويه الكليني عن القمي بسنده إلى جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: نزل جبرائيل بهذه الآية على محمد، يقولون: "بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله في علي بغيًا"، والنص الأصلي لهذه الآية كما هو معلوم، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾ [البقرة: ٩٠]، إلا أنهم زادوا، فقالوا: "بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله في علي بغيًا".

وكذلك يقولون: نزل جبرائيل بهذه الآية على محمد: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا في علي فأتوا بسورة من مثله"، كما تزيد رواية أخرى له على قوله ﷻ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ٥٩]، يقولون: "فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمد".

ويروي الكليني عن الرضا في قول الله -عز وجل-: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الشورى: ١٣] إضافة ولاية علي، فيقولون: "كبر على المشركين بولاية علي ما تدعوهم إليه".

وقد عد الرافضة هذه المفتريات جزءًا مما سقط من كتاب الله، فقد روى الكليني في (الكافي): أن القرآن الذي جاء به جبرائيل إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية.

وهنا تعليق على هذه الرواية، فهذه الرواية تقتضي سقوط ما يقارب ثلثي القرآن، ومعنى هذا أن الأمة ضائعة كل هذه القرون الطويلة، منذ وفاة النبي ﷺ ليس معها سوى ثلث كتابها.

والأئمة تقف موقف المتفرج؛ حيث إن لديهم القرآن الكامل كما يزعمون ولا يبلغونه للأمة، بل يتركونها أسيرة ضلالها، ويعدونها بضمور هذا القرآن الكامل مع المنتظر، وتمر آلاف السنين ولا غائب يعود ولا مصحف يظهر، فإن كانت الأمة تهتدي بدونه فما فائدة ظهوره مع المنتظر؟ وإن كان أساسًا في هدايتها فلماذا يحول الأئمة بينه وبين الأمة؟ وهل أنزل الله ﷻ كتابه ليبقى أسيرًا مع المنتظر؟ لا سبيل للأمة للوصول إليه مع أنه سبحانه لم يترك حفظ كتابه لا لنبي معصوم، ولا لمنتظر موهوم، بل تكفل ﷻ بحفظه بنفسه.

كانت هذه بعض النماذج المجملة من الأمثلة والنصوص والروايات التي ذكرها متقدمو الإمامية تدل على أنهم يعتقدون بتحريف القرآن، وأن بالقرآن سقط ونقص.

وحتى تكون الصورة واضحة وكاملة أعرض فيما يلي بعض النماذج المجملة التي تعرفنا على حقيقة اعتقاد المتأخرين، وحقيقة قولهم بهذه الفرية، ففيما يلي نماذج لتحريف المتأخرين:

أورد كبير علمائهم من المتأخرين الكلام على سورتين مزعومتين يزعم أنهما قد أسقطا من كتاب الله، هاتان السورتان هما اللتان اشتهرتا بسورة الولاية، وسورة النورين، وفيما يلي أتكلم على هاتين السورتين بشيء من التفصيل كنموذج من النماذج، التي تدل على قول المتأخرين بفرية تحريف القرآن، أورد الطاعنون هاتين السورتين، وذكروا أن اسمهما الولاية والنورين، وادعوا أن هاتين

السورتين قد تم حذفهما من القرآن على حسب زعم الطاعنين، وسأبين فيما يلي الجواب على هذه الفرية، فالله ﷻ المستعان.

أولًا: نص السورتين: سورة النورين المزعومة يقولون فيها: إن نصها: "يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي، إن الذين يوفون ورسوله في آيات لهم جنات النعيم، والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم، وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم، ظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول يسقون من حميم، إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء، واصطفى من الملائكة، وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء، إن عليًّا من المتقين، وإنا لنوفيه حقه يوم الدين، فإنه وذريته الصابرون، وإن عدوهم إمام المجرمين، يا أيها الرسول قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهدًا فخذه وكن من الشاكرين، بأن عليًّا قانتًا بالليل يحذر الآخرة، ويرجو ثواب ربه، قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون..." إلى آخر ما ورد في هذه النصوص المزعومة التي يشعر المؤمن بالغثيان وبالأسى، وبالحزن عندما يقرأ كلماتها، لذلك أكتفي بما عرضته من نص هذه السورة لأتكلم كلامًا مجملًا في نقد هذا النص سندًا ومتنًا.

أولًا: نقد ما يُسمى بسورة النورين من ناحية السند:

العجيب في هذا المقام أنه لا يوجد إسناد أصلًا حتى ندرسه وننقده فأين الإسناد؟ إن هذه النصوص هي من النصوص التي لا يملك صاحبها غير مجرد الدعوى، ولا يقدر أن يذكر ذلك بإسناد واحد ولو كان ضعيفًا، وإنما افتراها مفترٍ فنسبها إلى أنها مما أسقطه الصحابة من القرآن، فتبعه أصحاب الضلالة من بعده على كذبه وإفكه؛ لأنهم حسبوا فيه نصر ما ينتمون إليه، وإلا فهل يستطيعون أن يأتوا

بإسناد واحد لهذه النصوص؟ ومعلوم أن السند هو سلسلة رواة الذين نقلوا الحديث واحدًا عن الآخر حتى يبلغوا به إلى قائله.

قال الإمام ابن المبارك -رحمه الله- : الإسناد عندي من الدين، ولولا الإسناد لذهب الدين، ولقال من شاء ما شاء.

بعد الكلام على نقد السند أنتقل إلى للكلام على نقد المتن لهذه السورة المزعومة، فأقول: كلمات هذه الفرية لا تحتاج إلى نقد، فهي من هذر الكلام، وسقط المتاع، تلفيق مهلل مضطرب المعاني والألفاظ، وإن أقل الأدباء ليأبى نسبته إليه فضلًا عن أن تكون من كتاب الله الذي أعجز أرباب البيان، وفرسان الفصاحة، فهي عبارات ركيكة، وألفاظ ساقطة، ومعاني متهافتة، وسياق مفكك، وجمل ينبو بعضها عن بعض، فهي عبارة عن كلمات ملفقة تلفيقًا رديئًا من بعض ألفاظ القرآن، وموضوعها هو الأمر الذي أقلق الشيعة، وهو خلو كتاب الله من شذوذهم، ولذلك فهي تذكر مسألة الوصية لسيدنا علي بالإمامة، وتذكر تكفير الصحابة لعصيانهم للوصية كما يزعمون.

وقد نقد هذه السورة المخترعة والمفتراة الشيخ يوسف الدجوي -رحمه الله- في كتابه (الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف في الكتاب الشريف).

وفيما يلي إشارة موجزة إلى النقد الموجه لهذا الافتراء، قال المفتري: "أنزلناهما"، وقد أراد بذلك أن يحاكي القرآن في أول سورة النور عندما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ [النور: ١]، ولم يدر ذلك الجهول أنه لا معنى لإنزال محمد وعلي الذين هما النوران المرادان.

أنتقل إلى فقرة أخرى قال فيها المفتري: إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات النعيم. وأقول: ليس يمكننا أن نفهم معنى قوله: في آيات، ولا

يسهل علينا أن نفسد خيالنا حتى نفهمها مع اعتقادنا أنها من الهذيان، وأنها أشبه ما يكون بكلام الصبيان.

أنتقل إلى فقرة أخرى قال فيها المفتري في وصف الذين كفروا، يقول: ظلموا أنفسهم، وعصوا الوصي الرسول أولئك يُسقون من حميم، وأقول: لست أدري ماذا كانت وظيفة وصي الرسول مع الرسول، حتى أوقع العصيان عليه لا على الرسول حين خالفوه، ولم يطيعوه؟ ما مناسبة الوصي مع وجود الرسول؟ وكيف تكون للوصي طاعة، أو مخالفة، أو معصية مع وجود الرسول؟.

أنتقل إلى فقرة أخرى قال فيها المفتري: إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء.

أقول: أين المفعول في قوله: واصطفى من الملائكة؟ وأين المفعول في قوله: وجعل من المؤمنين؟ لعله مما استأثر به سخفاء الشيعة، كما استأثروا بفائدة في قوله: أولئك في خلقه، فإنها لا فائدة لها أو فيها، فلا معنى للتنصيص على كون المؤمنين من خلقه، اللهم إن هؤلاء من الجهل بمكان، وقد أقاموا على شرف القرآن أعظم برهان.

أنتقل إلى فقرة أخرى يقول فيها المفتري: قد مكر الذين من قبلهم برسلهم، فأخذتهم بمكرهم إن أخذي شديد أليم، أقول: أذكر هنا الآيات القرآنية التي استمد منها ذلك الكاذب هذا التلفيق.

وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ ﴾ [النحل: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]. وقوله تعالى إخبارًا عن الأمم السالفة: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥]، فانظر كيف لفقوا؟ وانظر كيف افتروا على الله الكذب، وهم يعلمون؟.

أنتقل إلى فقرة أخرى قال فيها المفتري: يا أيها الرسول قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهدًا فخذه، وكن من الشاكرين، إن عليًّا قانتًا بالليل ساجدًا يحذر الآخرة، ويرجو ثواب ربه، قل هل يستوي الذين ظلموا، وهم بعذابي يعلمون.

أقول: مما هو ظاهر أن المفتري قد قصد بكلامه هذا أن يحاكي قول الله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، كما قصد أن يحاكي قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

فوا عجبًا من ذلك المفتري الذي يسوي بين تلك السخافات وبين كلام رب الأرض والسموات، الذي وصل من البلاغة إلى غاية الغايات، ونهاية النهايات.

وأختم الكلام على نقد متن هذه السورة المفتراة ببيان قاعدة محكمة أقول فيها: ما رام أحد محاكاة القرآن إلا ابتلاه الله بالعي، وفضحه على رؤوس الأشهاد.

بعد الكلام على سورة النورين المزعومة أتكلم عن سورة الولاية المزعومة، والتي افتروها أيضًا، وزعموا أنها قد أُسقطت من كتاب الله تعالى.

أقول: أورد هذه السورة المفتراة كبير علماء النجف المُسمى عندهم بميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي، والذي بلغ من إجلالهم له عند وفاته عام ألف وثلاثمائة وعشرين من الهجرة، بلغ من إجلالهم له أنهم دفنوه في بناء المشهد المرتضوي بالنجف، وهو أقدس مقام ومكان عندهم، هذا الرجل المُسمى بالنور الطبرسي ألف في النجف عند القبر المنسوب للإمام علي > كتابه المُسمى (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب)، جمع فيه مئات النصوص من علماء الشيعة، وعن علماء الشيعة قديمًا وحديثًا، التي تدلل على أنهم يعتقدون بوجود النقص والتحريف في القرآن الكريم، وقد طُبع هذا الكتاب في إيران، وعند طبعه قامت ضجة كبيرة حوله.

خصوصًا ما أبداه بعض عقلائهم لا لأجل ما في الكتاب، وإنما كانوا يرغبون أن يبقى التشكيك في القرآن سرًّا مبثوثًا في كتبهم المعتبرة، لا أن يُذاع في كتاب واحد تقوم به الحجة عليهم.

وبدلًا من أن يستكين المؤلف أو يعتذر ألف كتابًا آخر سماه (رد الشبهات عن فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)، دافع فيه المؤلف عما أودعه في كتابه السابق (فصل الخطاب)، وقد كتب هذا الكتاب، أو الرد قبل موته بسنتين، وقد ادعى في كتابه (فصل الخطاب) أن سورة من القرآن تُسمى سورة الولاية قد أُسقطت من المصحف العثماني.

وادعى أن نصها ما يلي: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنبي والولي، الذين بعثناهما يهديانكم الصراط المستقيم، نبي وولي بعضهما من بعض وأنا العليم الخبير، إن الذين يوفون بعهد الله لهم جنات النعيم، والذين إذا تُليت عليهم آياتنا كانوا بآياتنا مكذبين.

أكتفي بهذا المنقول مما سطرته تلك الأيدي الخبيثة، وأقول: انظر إلى هذا الكلام الفارغ، الذي لو قدمه تلميذ في مادة الإنشاء لاستحق عليه الرسوب، كلام مفكك ركيك، ثم يزعمون أنه كلام الله تعالى، وأن هذه سورة من عند الله تعالى أنزلها ضمن كتابه الكريم، وفي كتاب (فصل الخطاب) من الآيات والروايات، التي زعم الإمامية أنها محرفة، وناقصة ما جعلني أحتار في أيها أثبت، وأيها أترك فهي كثيرة جدًّا، وكلها مما يقتل النفس أسًى على ضلال هؤلاء، وعلى تطاولهم على كتاب الله دون خوف من الله، ولا مبالاة بمشاعر المسلمين.

أرى أنه يكفي مرارة أنني نقلت من هذا الكتاب الرديء هاتين السورتين، بل وأرى أن مجرد قراءة هاتين السورتين يكفي لجلب الغثيان، وإثارة الأسى والحزن

على ما وصل إليه هؤلاء، وهم بعد ذلك يتظاهرون بالإسلام، ويدعون بأنهم من المسلمين، على أن هاتين السورتين لا تحتاجان في نقدهما، وتعرية خوائهما، وضحالة فكر من اخترعهما إلى أدنى اهتمام.

وأختم فأقول: إن هاتين السورتين لا يملك من افتراهما غير مجرد الدعوى أنها من القرآن، ولا يقدر أن يذكر ذلك بإسناد واحد، ولو كان ضعيفًا، وإلا فهل يستطيعون أن يأتوا بإسناد واحد لهذه النصوص المفتراة، ومن المعروف أن شروط قبول القراءة ثلاثة:

أولًا: شرط التواتر.

ثانيًا: شرط موافقة الرسم العثماني.

ثالثًا: موافقة وجه من وجوه اللغة.

وبذلك نكون قد أنهينا الكلام على ما زعموه من سقوط ما يُسمى بسورتي الولاية، والنورين من كتاب الله.

ما يتعلق بحجم أخبار هذه الفرية في كتب الشيعة الإمامية

ونتساءل سؤالًا مفاده: هل تلك الروايات السوداء التي وجدت طريقها إلى كتب القوم، وتسللت إلى مراجعهم الحديثة، هل هي مجرد روايات شاذة مندسة في كتب القوم لم تحظ برضا عقلائهم، ولا قبول محققيهم؟ وهل حقًّا أن هذه الروايات قد تسربت إلى كتب هؤلاء؛ لأن الكذابين على الأئمة قد كثروا في صفوف الشيعة، وكان التشيع مطية لكل من أراد الكيد للإسلام وأهله، كما أثبتت ذلك الوقائع والأحداث؟

للإجابة على هذه الأسئلة ينبغي أن نعلم أنه في ظل الدولة الصفوية كثر الوضع لأخبار هذه الأسطورة، فتجاوزت مرحلة ما سجله القني أو الكليني وغيرهم من شيوخهم في القرن الثالث والرابع.

أقول: تجاوزت الحجم الذي سجلته هذه الزمرة إلى درجة أن شهد شيخهم المجلسي صاحب (بحار الأنوار) بأن أخبارهم في هذا أصبحت تضاهي أخبار الإمامة؛ حيث قال: وعندي أن الأخبار في هذا الباب متواترة معنى، وطرح جميعها يوجب رفع الاعتماد على الأخبار رأسًا، بل ظني -هذا كلام المجلسي- أن الأخبار في هذا الباب لا تقصر عن أخبار الإمامة.

أقول معلقًا على هذا الكلام: هذه شهادة من المجلسي، الذي توفي في عام ألف ومائة وأحد عشر من الهجرة، هذه شهادته على تضخم أخبار هذه الأسطورة، وعلى تواتر قولهم بتحريف القرآن.

وشهادات شيوخ الدولة الصفوية بكثرة هذه الأخبار في زمنهم كثيرة ومتعددة، فكما شهد المجلسي يشهد شيخهم الآخر نعمة الله الجزائري، وهو من معاصري المجلسي، ومن تلامذته، وهو موضع ثقة الشيعة، وتقديرهم.

يقول: إن الأخبار الدالة على ذلك -أي: الدالة على اعتقادهم بتحريف القرآن، أو الدالة على اعتقادهم بسقوط كثير من النصوص من القرآن، يقول نعمة الله الجزائري: إن الأخبار الدالة على ذلك- تزيد على ألفي حديث.

والملاحظ أن شيوخ الدولة الصفوية هم الأجرأ على التصريح بهذا الكفر، وذلك بحكم وجود قوة تسندهم، ولذلك خفت عندهم التقية، ولهذا كثرت أقوالهم بتواتر هذا الكفر عندهم، حتى زعم شيخهم أبو الحسن الشريف -وهو من تلامذة المجلسي- بأنه يمكن الحكم بكونه من ضروريات مذهب التشيع.

وبعد هذه الاعترافات من أساطين الشيعة الإمامية وشيوخهم أقول: هل يشك أحد يقرأ هذه الدعاوى العريضة في أن القوم قد وقعوا في درك مظلم وفي مستنقع آسن؟ كم يتألم المسلم، وهو يقرأ مثل هذه الكلمات المظلمة؟ وكم يشفق على قوم اعتمدوا في دينهم على كتب حوت هذا الغثاء، وركنوا في أمرهم إلى شيوخ يجاهرون بهذا الكفر، قد باعوا أنفسهم للشيطان، وجعلوا نواصيهم بيده؟

وهنا سؤال منطقي مفاده: يا ترى ما هي الأسباب التي جعلت الشيعة الإمامية يعتقدون تحريف القرآن؟ هذا ما سأبينه، وأجيب عليه فيما يلي:

أسباب اعتقاد الشيعة الإمامية بتحريف القرآن:

لماذا قال الشيعة الإمامية: إن القرآن محرف؟ أقول في الإجابة على هذه الأسئلة: اعتقد الشيعة الإمامية التحريف في القرآن، وذلك لعجزهم عن إيجاد أدلة من القرآن للاستدلال بها على عقائدهم، وأفكارهم الباطلة، ومن أخطر هذه العقائد: عقيدتهم في الإمامة، وعقيدتهم في الأئمة، وعقيدتهم في الصحابة، وفيما يلي أعرض لطرف من ذلك:

عقيدتهم في الإمامة:

يعتقد الشيعة الإمامية أن مسألة الإمامة داخلة في أساس العقيدة، ويكفر منكرها، وللإمامة عند الشيعة مفهوم خاص ينفردون به عن سائر المسلمين؛ إذ يعتقدون أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار ما يشاء من عباده للنبوة والرسالة، ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه، فكذلك يختار الله للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إمامًا للناس من بعده، فالإيمان بإمامة الأئمة الاثني عشر ركن من أركان الدين عند الشيعة الإمامية، وكتبهم مليئة بما يثبت هذا.

ومن ذلك ما يرويه الكليني بسنده عن أبي جعفر قال: بُني الإسلام على خمس؛ على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يُناد بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه، يعني الولاية.

فالولاية -أي: إمامة الاثنا عشر- يعتبرونها الركن الخامس للإسلام، ويزعمون أنها محل الاهتمام، والعناية من الشارع، كما يدل على ذلك قوله: ولم يُناد بشيء كما نودي بالولاية.

وما ندري أين هذا الاهتمام المزعوم، بالرغم من أن كتاب الله تُذكر وتُكرر فيه أركان الإسلام ولا ذكر فيه لشأن ولاية أئمتهم الاثنا عشر، فقد ذُكرت الشهادتان، وذُكر الصوم، وذُكرت الصلاة، وذُكر الحج، وذُكرت الزكاة، ولم نجد أي ذكر للولاية.

بل الأعجب والأغرب أنهم يقولون: إن الولاية أفضل أركان الإسلام، فعن زرارة عن أبي جعفر قال: "بُني الإسلام على خمسة أشياء على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرارة: قلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل".

بعد بيان مكان هذه العقيدة في كتبهم وفي أفكارهم أنتقل إلى الكلام على تكفيرهم لمن أنكر إمامة الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة الإمامية، وردت روايات كثيرة عندهم تكفر من أنكر إمامة الأئمة الاثنا عشر؛ ومن رواياتهم في ذلك، عن أبي عبد الله قال: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ من ادعى إمامة من الله ليست له، ومن جحد إمامًا من الله، ومن زعم أن لهما في الإسلام نصيبًا"، والمراد بالضمير في "لهما" يقصدون بهما الخليفتين الراشدين أبا بكر وعمر، يدعون -قبحهم الله- أن من زعم أن

للشيخين في الإسلام نصيبًا، فهو من الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، هكذا يعتقدون.

والعبادة عندهم لا قبول لها إلا بالإيمان بولاية الاثنا عشر، فقد ورد في (بحار الأنوار) للمجلسي، قال: لو أن عبدًا عبد الله ألف سنة، وجاء بعمل اثنين وسبعين نبيًّا ما تقبل الله منه حتى يعرف ولايتنا أهل البيت، وإلا أكبه الله على منخريه في نار جهنم، هكذا يعتقدون.

وعن الصادق قال: الجاحد لولاية علي كعابد وثن، وعقد شيخهم المجلسي عدة أبواب في هذا المعنى في كتابه (بحار الأنوار) من هذه الأبواب باب أنه لا تقبل الأعمال إلا بالولاية، وذكر فيه واحدًا وسبعين حديثًا لهم.

هذا هو رأي الشيعة الإمامية فيمن أنكر إمامة أئمتهم الاثنا عشر.

وبعد هذا تساءل الإمامية لماذا لم تُذكر الولاية في القرآن بالرغم من أهميتها العظيمة؟ لماذا تُذكر الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك من أركان الإسلام في القرآن ولا تُذكر الولاية؟

فلما أزعجهم هذا التساؤل ولم يجدوا له جوابًا لجئوا إلى القول بأن القرآن مُحرف، حُذف منه آيات كثيرة حذفها أجلة الصحابة، وأكابر الأمة الإسلامية حقدًا على سيدنا علي، وعنادًا لأولاده، وتضييعًا لتراث رسول الله ﷺ وآله-، هكذا يعتقدون.

ثم زوروا في كتبهم روايات مكذوبة على الرسول ﷺ وعلى سيدنا علي وآل بيته عليهم السلام، تنص هذه الروايات على أن القرآن قد حُذف منه ما يتعلق منه بولاية سيدنا علي، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

روى الكليني عن جابر عن أبي جعفر # قال: "قلت له: لم سُمي علي بن أبي طالب أمير المؤمنين؟ قال: الله سماه، وهكذا أنزل في كتابه، قال: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، وأن محمدًا رسولي، وأن عليًّا أمير المؤمنين".

وروى أيضًا -أي: الكليني- عن جابر قال: "نزل جبرائيل # بهذه الآية على محمد هكذا: وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا في علي فأتوا بسورة من مثله".

وروى أي الكليني عن أبي بصير عن أبي عبد الله # في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآيِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١]، يقول: نصها: "سأل سائل بعذاب واقع للكافرين بولاية علي ليس له دافع"، ثم قال: هكذا والله نزل بها جبرائيل # على محمد ﷺ.

هذا طرف من الروايات التي أوردها شيخهم الكليني في كتابه (أصول الكافي)، وهذه الروايات تبين بما لا يدع مجالًا للشك عقيدة هؤلاء القوم في كتاب الله، وفي صحابة رسول الله ﷺ، وفيما يعتقدون من أمر الإمامة والأئمة.

والخلاصة: هذه بعض الروايات في الولاية، ومثلها كثير في كتب حديثهم وتفسيرهم، والمقصود أنهم يقولون: بالتحريف القرآن لأغراض كثيرة من أهما: إثبات مسألة الإمامة والولاية التي جعلوها أساس الدين وأصله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بعد الكلام على رواياتهم في الإمامة، وكلامهم على الأئمة، وعقيدتهم في الأئمة، وحكمهم فيمن أنكر إمامة الأئمة لا بد وأن أعرج على عقيدتهم في الصحابة، وعلى تفصيل آخر لعقيدتهم في الأئمة.

عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: عقيدة الشيعة الإمامية في الأئمة	٣٦٧
العنصر الثاني	: عقيدة أهل السنة في الصحابة	٣٧٤

عقيدة الشيعة الإمامية في الأئمة

اضطر علماء الإمامية إلى القول بنقصان القرآن لخلوه من كل ما يتعلق بعقيدتهم في فضائل أئمتهم، وصفات أئمتهم ومعجزات أئمتهم، وفيما يلي عرض لطرف من ذلك:

بعض فضائل الأئمة وصفاتهم عند الشيعة الإمامية:

حديث الشيعة عن فضائل أئمتهم وصفاتهم حديث كثير وخطير، وسنذكر فيما يلي بعض الأبواب في كل من (الكافي) (وبحار الأنوار)، أذكر بعض الأبواب التي حوت أحاديثهم عن فضائل الأئمة كما يدعون.

وهذه الأبواب خلاصة موجزة لأحاديثهم تبين حجم الغلو واتساعه، فهي ليست روايات شاذة في كتبهم، بل هي أبواب تحمل عناوين أشبه ما يكون بقواعد وأصول أساسية في معتقدهم، وهي تمكن القارئ من أخذ فكرة متكاملة عن منزلة الأئمة عندهم، والأبواب هي:

- باب أنهم أعلم من الأنبياء -عليهم السلام-، أي باب أن الأئمة أعلم من الأنبياء، وفيه ثلاثة عشر حديثًا.

- باب تفضيلهم على الأنبياء وعلى جميع الخلق، وأخذ ميثاقهم عنهم وعن الملائكة وعن سائر الخلق، وأن أولي العزم إنما صاروا أولي عزم بسبب حبهم للأئمة، وفيه ثمانية وثمانين حديثًا.

- كذلك باب أنهم يقدرون على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ويقدرون على جميع معجزات الأنبياء.

- كذلك باب أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا.

- وكذلك باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم.

- كذلك باب أن عندهم الاسم الأعظم، وبه يظهر منهم الغرائب.

هذه الأبواب الكاملة أثمرت عقيدة في غاية الغلو والضلال، ولم تكن هذه العقيدة مسطرة في كتبهم فحسب، بل نطق بها كبار علمائهم ومجتهديهم المعاصرين، وفيما يلي أنقل طرفًا من ذلك:

إمامهم المعاصر وآيتهم العظمى، آية الله الخميني يرى أن فضل الأئمة لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، قال في ذلك: فإن في الإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، قال ذلك في كتابه (الحكومة الإسلامية).

ومعلوم دخول النبي ﷺ في هذا العموم، أي أن الخميني يقول: بأن الأئمة قد بلغوا لمكانة لا يصل إليها حتى النبي ﷺ.

يقول محمد رضا المظفر: ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو والخطأ والنسيان. يقول ذلك في كتابه (عقائد الإمامية).

كما قال أيضًا إمامهم الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء: الإمام يجب أن معصومًا كالنبي عن الخطأ والخطيئة.

كانت هذه بعض نقولات لأئمتهم من المعاصرين نقلتها بعد الكلام على الروايات، التي وردت عند أئمتهم وشيوخهم من المتقدمين السابقين.

والخلاصة: أن هذه الروايات وهذه النقولات أمثلة لما يصفون به أئمتهم، وهي دعاوى في غاية الغرابة تخرج الأئمة من منزلة الإمامة إلى منزلة النبوة أحيانًا، وأحيانًا أخرى إلى مرتبة الألوهية.

ووجود عشرات الروايات التي تصف الأئمة بهذه الأوصاف الخيالية هي عملية إفراغ فكري، ونفسي لحقيقة الألوهية وحقيقة النبوة من نفس الشيعي، الذي يؤمن بهذه الروايات لتحل محلها حقيقة الأئمة.

ولما لم يجدوا لهذه الخرافات أي سند من القرآن لجئوا إلى القول بتحريف القرآن، واضطروا إلى الادعاء بحذف ما يدل على فضائل أئمتهم وصفاتهم ومعجزاتهم من القرآن بسبب ذلك.

بعد الكلام على عقيدتهم في الأئمة، وعلى الروايات التي تبين مكانة الأئمة عندهم، وصفات الأئمة ومعجزاتهم أنتقل إلى الكلام على عقيدتهم في الصحابة؛ فأقول: عقيدة الشيعة الإمامية في الصحابة:

اعتقد الشيعة الإمامية التحريف في القرآن ليتخلصوا من التناقض الذي ظهر بين القرآن وبين كتب الشيعة الإمامية من حيث منزلة الصحابة } وذلك لأن القرآن الكريم يذكر فضل أصحاب رسول الله ﷺ؛ حيث يشهد القرآن على مقامهم السامي، وشأنهم العالي ومرتبهم الراقية، ودرجاتهم الرفيعة، فقد ذكر الله ﷻ المهاجرين والأنصار مادحًا أخلاقهم الكريمة وسيرتهم الطيبة، وبشرهم بالجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ووعدهم بالتمكين في الأرض، ونشر الدين الإسلامي الصحيح الحنيف على أيديهم المباركة الميمونة في أقطار الأرض وأطرافها.

قال تعالى في القرآن مادحًا المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومدحهم بأنهم أصحاب الإيمان الحقيقي فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ووعدهم ﷻ بالحسنى فقال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠].

أما ما ورد في كتب الشيعة الإمامية فهو يناقض كلام الله مناقضة تامة، فكتب الشيعة الإمامية مليئة بالسب والتكفير واللعن لأصحاب الرسول ﷺ واللعن لأمهات المؤمنين اللاتي هن أزواج الرسول ﷺ.

ملاحظة وتنبيه: قبل أن أذكر طرفًا من تلك الروايات المليئة بالطعن في الصحابة أنبه إلى أن ما كتبه أوائل الشيعة في عصر الكليني وما بعده كان بلغة الرمز والإشارة، أي كانوا يرمزون للخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان } برموز معينة، مثل: أبو الفصيل كانوا يطلقونه على أبي بكر، ورمع كانوا يطلقون هذا اللقب على عمر، ونعثل كانوا يطلقون هذا اللقب على سيدنا عثمان } .

ولهم رموز أخرى مثل فلان وفلان وفلان، عندما يذكرون هذه الكلمة يقولون: فلان وفلان وفلان، يقصدون بها أبا بكر وعمر وعثمان } ، وكذلك عندما يقولون في بعض الروايات: الأول والثاني والثالث يقصدون سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان } .

كان هذا هو حال المتقدمين يذكرون الخلفاء الثلاثة بالرمز والإشارة، أما ما كتبه شيوخ الشيعة الإمامية في ظل الدولة الصفوية فكان فيه التكفير لأفضل أصحاب الرسول ﷺ صريحًا ومكشوفًا، أما الرواية فيما يلي أعرض طرفًا منها:

يروون عن أبي عبد الله أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة:١٦٨] قال: وخطوات الشيطان والله هي ولاية فلان وفلان، أي: أبو بكر وعمر، والذي فسر ذلك هو شيخهم العياشي، وشيخهم البحراني في (تفسير البرهان).

ويفسرون الفحشاء والمنكر والبغي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠] يفسرونها بولاية أبي بكر وعمر وعثمان، فيروون عن أبي جعفر # أنه قال: "وينهى عن الفحشاء أي الأول، والمنكر أي الثاني، والبغي أي الثالث".

وقد ذكر هذا التفسير شيخهم العياشي في تفسيره، وشيخهم البحراني في تفسيره المُسمى بـ(البرهان).

كذلك جاء في (بحار الأنوار) لشيخهم المجلسي قال: قلت -أي: الراوي يقول لإمامهم-: من أعداء الله أصلحك الله؟ قال: الأوثان الأربعة، قال: قلت: من هم؟ قال: أبو الفصيل، ورمع، ونعثل، ومعاوية، ومن دان دينهم، فمن عادى هؤلاء فقد عادى أعداء الله.

قال شيخهم المجلسي في بيانه لهذه المصطلحات: أبو الفصيل هو أبو بكر، ورمع مقلوب عمر، ونعثل هو عثمان، ذكر ذلك في موسوعته (بحار الأنوار)، ولم يقتصر الأمر على متقدميهم فقط، بل إن معاصريهم يعتقدون نفس هذه المعتقدات، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

قال آية الله الخميني في نظرهم في كتابه (كشف الأسرار): إننا هنا لا شأن لنا بالشيخين، وما قاما به من مخالفات للقرآن، ومن تلاعب بأحكام الإله وما حللاه وحرماه من عندهما، وما مارساه من ظلم ضد فاطمة ابنة النبي وضد أولاده، ولكننا نشير إلى جهلهما بأحكام الإله والدين.

وقال الخميني بعد اتهامه للشيخين بالجهل: وإن مثل هؤلاء الأفراد الجُهال الحمقى والأفاقون والجائرون غير جديرين بأن يكونوا في موقع الإمامة، وأن يكونوا ضمن أولي الأمر.

وقال أيضًا: الرسول الذي كد وجد وتحمل المصائب من أجل إرشادهم وهدايتهم، وأغمض عينيه، وفي أذنيه كلمات ابن الخطاب القائمة على الفرية، والنابعة من أعمال الكفر والزندقة.

وقد أفرد صاحب كتاب (الصراط المستقيم) فصلين خاصين في الطعن على عائشة وحفصة { ، سمى الفصل الأول فصل في أم الشرور عائشة، أما الفصل الآخر فقد خصصه للطعن في حفصة < وعن أبيها - وجعل عنوانه فصل في أختها حفصة.

مما سبق يتبين أن عقيدتهم في الصحابة هي شر العقائد وأخبثها، فلا تقرأ كتابًا من كتبهم إلا وتجد أبوابًا مخصصة للعن الصحابة وسبهم وتكفيرهم إلا قليلًا منهم.

قال الرضوي الرافضي: إن مما لا يختلف فيه اثنان ممن هم على وجه الأرض أن الثلاثة، الذين هم في طليعة الصحابة -يعني أبا بكر وعمر وعثمان- كانوا عبدة أوثان.

ويوجد كثير من الأحاديث والأقوال لعلمائهم في سب وقذف، وتكفير صحابة رسول الله ﷺ، فما أحقد وما أخبث ما يقولونه في خيار البشر بعد الأنبياء -

عليهم السلام- ، أولئك الذين أثنى عليهم الله، وأثنى عليهم رسوله ﷺ، وأجمعت الأمة على عدالتهم وفضلهم، وشهد التاريخ والواقع والأمور المعلومة الضرورية بخيريتهم وسابقتهم وجهادهم في الإسلام.

والخلاصة: إن الطعن في صحابة رسول الله ﷺ هو الذي يطفئ الحقد، الذي أكل قلوب هذه الزمرة الحاقدة تجاه الرعيل الأول، الذين فتحوا ديارهم ونشروا الإسلام بينهم، بل لا تتغذى قلوبهم الحاقدة إلى على موائد سب الصحابة، ولا ترتوي نفوسهم السوداء إلى بالطعن في الصحابة، هذا هو شعورهم تجاه الصحابة الذين هم رواد الفتح الإسلامي والطليعة من الرعيل الأول، الذين بنوا حضارة لم تعرف لها الدنيا مثيلًا.

فهم قذًى في عيون هؤلاء وشجًا في حلوقهم، وتكفينا آيات القرآن التي تثني على الصحابة، وتعلي من شأنهم، فهذه الآيات بمثابة قوارع من حديد على رؤوسهم، وشهب من نار تهوى على أفئدتهم، لقد كان اليهود والنصارى أفطن وأوفى من الروافض، وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بقوله: وفُضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين، سئلت اليهود من خير أهل ملئكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسُئلت النصارى من خير أهل ملئكم؟ قالوا: حواري عيسى، وسُئلت الرافضة من شر أهل ملئكم؟ قالوا: أصحاب محمد، أعاذنا الله من الضلال والخذلان.

إن محترف الطعن وسوء الظن في الصحابة قد أتعب نفسه وآذى غيره، فركد وراء السراب، وطعن في الصحابة بأحاديث ضعيفة ومكذوبة، ممتطيًا في ذلك الدفاع عن أهل البيت محتميًا بشبهات كسراب بقيعة، نعوذ بالله من الزيغ بعد الهدى، فقد سلم من هؤلاء اليهود والنصارى وقادة الكفر والضلال، ولم يسلم من زوبعتهم أئمة الدين.

ونذكر هؤلاء بأن غلو الرافضة في علي لا يفيد عليًّا شيئًا، ونذكرهم بأن جفاءهم في حق الكثيرين من الصحابة لا يضر الصحابة شيئًا، وإنما مضرة الغلو والجفاء تعود على الغالي والجافي، نسأل الله السلامة والعافية.

عقيدة أهل السنة في الصحابة

بعد بيان عقيدة الشيعة الإمامية في الصحابة لا بد أن أُتبع ذلك بالكلام على عقيدة أهل السنة في الصحابة ﴿ ، وهذا ما سوف أفصله فيما يلي، فالله المستعان.

إن من العقائد والأصول المقررة عند أهل السنة حب الصحابة من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فهم خير الناس للناس، وأفضل تابع لخير متبوع، ولم يعرف التاريخ البشري منذ بدايته تاريخًا أعظم من تاريخهم، ولا رجالًا دون الأنبياء أفضل منهم ولا أشجع، ومن داخله شك في هذا فلينظر في سيرتهم على ضوء الأحاديث الصحيحة، والآثار الثابتة يرى أمرًا هائلًا من حال القوم وعظيم ما آتاهم الله من الإيمان والحكمة والشجاعة والقوة.

وحين ضن غيرهم بالنفس والمال، واستثقلوا مفارقة الأهل والولدان، استرخصوها في إقامة الدين وتمكين الأمم والشعوب من العيش في أمن ورغد تحت حكم الإسلام، فلا كان ولا يكون مثلهم، فهم غيظ الأعداء وأهل الولاء والبراء، وهم أنصار الدين، ووزراء رسول رب العالمين، اصطفاهم الله لصحبة نبيه ونشر دينه، فأخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور أهل الطغيان إلى عدل الإسلام، وعلى أيديهم سقطت عروش الكفر وتحطمت شعائر الإلحاد، وذلت رقاب الجبابرة والطغاة، ودانت لهم الممالك.

ومن سمات أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم للصحابة الأخيار، وحملة الشريعة الأتقياء الأبرار، والذب عن حرماتهم وأعراضهم من سلب العابثين وألسنة الحاقدين، والزجر والتغليظ على من تعلق بخيوط الأوهام وبات في أودية الظلام، فغمس ظلامه في البهت والآثام، وسلب من الصحابة العدالة وجعلهم كسائر الأنام، محتجًا بمقولة: هم رجال ونحن رجال.

ومن خير الزاد ليوم المعاد تحريك القلم بلطائف من الإشارات المهمة، وشذرات من المعارف المختصرة لدفع عدوان الظالمين، وكشف زوبعة المتعالمين، وتبرئة الصحابة المتقين من أقلام الحاقدين الخائضين في هذا المقام الكبير بالجهل والهوى وقلب الحقائق.

فالصحابة هم الذين أثبت الله لهم الفلاح فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والصحابة هم الذين ﴿ وأنزل عليهم السكينة والطمأنينة، فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

والصحابة هم الذين بين الحق ﷻ صفاتهم، ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيم، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

والصحابة هم الذين عدد الله ﷻ فضائلهم ومناقبهم، التي بسببها استحقوا الوصف بالصدق ونيل الفوز والفلاح، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

والصحابة هم الذين امتن الله عليهم بتحبيب الإيمان إلى قلوبهم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

والصحابة هم الذين وعدهم الله ﷻ بالاستخلاف، والتمكين في الأرض وتبديل الخوف أمنًا، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

والله ﷻ لم يمدحهم إلا لأنهم صحبوا رسول الله ﷺ، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وصاروا له وزراء مخلصين، وأنصارًا محبين، وأعوانًا صادقين فارقوا الأوطان، وهجروا الولدان يذبون عن شريعته، وينافحون من أجل تبليغ سنته ﷺ.

هانت عليهم في سبيل الله أرواحهم، ورخصت عندهم من أجله أموالهم، ظهرت منهم علامات الخير في السمت والهدي، خرجوا مشرّقين ومغربين يفتحون المعمورة بلدًا بلدًا، خرجوا وأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأنظمة الوحلية إلى عدالة الرسالة السماوية.

خرجوا وحطموا كل طاغوت لا يؤمن بالله واليوم الآخر، حطموا كل طاغوت وقف في وجه المد الإسلامي وحال بينهم وبين الناس، رهبان بالليل، فرسان بالنهار، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون.

يمشون على الأرض بقلوب معلقة بالسماء، الله ربهم، والإسلام دينهم، ومحمد ﷺ نبيهم، والقرآن دستور حياتهم، والفكاك من النار ودخول الجنة أسمى أمانيهم.

امتدت فتوحاتهم آلاف الأميال عبر الصحاري المقفرة، والبحار المهلكة، والجبال الوعرة، وفي كل مكان يمرون به تدور بينهم وبين أعداء الله معارك تشيب لهولها الولدان، ويُسطر تاريخها بدماء الشهداء.

وليس ذلك فحسب بل فتحوا القلوب بالنور الذي كانوا يحملونه، فما يخرجون من بلد بعد فتحها إلا وأبناء ذلك البلد يخرجون معهم، ليجاهدوا في سبيل الله مع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان.

وجمع بينهم الإسلام بأقوى الروابط حتى فتحوا الأرض، وارتفع صوت الحق مدويًا في كل مكان أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ومن أهم المحاور التي يقوم عليه معتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة { :

أولًا: اعتقاد عدالة الصحابة.

ثانيًا: توقير الصحابة والاعتراف بفضلهم ومكانتهم.

ثالثًا: النهي عن الخوض والطعن في الصحابة.

وفيما يلي بيان ذلك:

أولًا : اعتقاد عدالتهم :

العدل خلاف الجور، وتعديل الشيء تقويمه، وعدلت الشاهد أي: نسبته إلى العدالة ووصفته بها، من هذه الوقفة اللغوية يتبين أن معنى العدالة في اللغة هو الاستقامة، وأن العدل هو الذي لم تظهر منه ريبة، وهو الذي يرضى الناس عنه، ويقبلون شهادته ويقتنعون بها، أما عن العدالة اصطلاحًا، فقد عرفها الإمام القرافي على أنها اجتناب الكبائر، وبعض الصغائر والمباحات القادحة في المروءة.

وعرف الحافظ ابن حجر -رحمه الله- العدل بأنه من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة.

هذا طرف من تعريفات أهل العلم للعدالة اصطلاحًا، وهي إن تنوعت عباراتها إلا أنها ترجع إلى معنًى واحد، وهو أن العدالة ملكة في النفس تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، ولا تتحقق لإنسان إلا بفعل المأمور وترك المنهي، وأن يبتعد عما يخل بالمروة.

ولم تتحقق العدالة في أحد تحققها في أصحاب رسول الله ﷺ، فجميعهم { عدول، تحققت فيهم صفة العدالة.

ومن صدر منه ما يدل على خلاف ذلك، فسرعان ما يحصل منه التوجه إلى الله تعالى بالتوبة النصوح الماحية التي تحقق رجوعه وتغسل حوبته، -فرضي الله عن الصحابة أجمعين.

وفيما يلي أبين تعديل الله تعالى ورسوله ﷺ، والسلف للصحابة { .

أولًا: دلالة القرآن على عدالة الصحابة، لقد تضافرت الأدلة من كتاب الله على تعديل الصحابة الكرام، مما لا يبقى معها لمرتاب شك في تحقق عدالتهم } ؛ لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم بنص القرآن الكريم.

ومن الأدلة على ذلك ما يلي: قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وجه الاستدلال بهذه الآية: أن معنى كلمة "وسطًا" أي: عدولًا خيارًا، والصحابة هم المخاطبون بهذه الآية مباشرة، فالآية ناطقة بعدالة الصحابة } قبل غيرهم ممن جاء بعدهم من هذه الأمة.

كذلك قال تعالى في هذا المقام: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وجه الاستدلال بهذه الآية: أن الآية أثبتت الخيرية المطلقة لهذه الأمة على سائر الأمم قبلها، وأول من يدخل في هذه الخيرية المخاطبون بهذه الآية مباشرة عند النزول هم الصحابة الكرام } .

وذلك يقتضي استقامتهم في كل حال، ومن المحال أن يصفهم الله ﷻ بأنهم خير أمة ولا يكونوا أهل عدل واستقامة، وهل الخيرية إلا ذلك؟! كما أنه لا يجوز أن يخبر الله تعالى بأن جعلهم أمة وسطًا وهم غير ذلك.

كذلك من الأدلة على تعديل القرآن للصحابة قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ووجه الاستدلال بهذه الآية: أن الله تعالى أخبر فيها برضاه سبحانه وتعالى عن الصحابة، ولا يثبت الله رضاه إلا لمن كان أهلًا للرضا، ولا توجد الأهلية لذلك إلا لمن كان من أهل الاستقامة في أموره كلها، عدلًا في دينه.

بعد أن بينا تعديل القرآن للصحابة } أنتقل إلى دلالة السنة على عدالة الصحابة } فأقول: لقد وصفهم النبي ﷺ في أحاديث يطول تعدادها، وأطنب في تعظيمهم والثناء عليهم، وكل ذلك يدل على عدالتهم، ومن تلك الأحاديث ما يلي:

عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال في حديث صحيح: ((وليبلغ الشاهد الغائب))، وجه الدلالة من هذا الحديث: أن هذا القول صدر من النبي ﷺ في أعظم جمع من الصحابة في حجة الوداع، وهذا من أعظم الأدلة على ثبوت عدالة الصحابة، حيث طلب منهم ﷺ أن يبلغوا ما سمعوه منه ﷺ إلى من لم يحضر ذلك الجمع، دون أن يستثني منهم أحد.

كذلك من الأدلة: عن عمران بن حصين > قال: قال رسول الله ﷺ: ((خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))، وجه الدلالة من هذا الحديث: أن الصحابة عدول على الإطلاق؛ حيث شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية المطلقة، فهل نحتاج بعد ذلك إلى دليل؟!.

كذلك من الأدلة على ذلك: عن أبي سعيد الخدري > قال: قال النبي ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه))، وجه الدلالة من هذا الحديث: أن الوصف لهم بغير العدالة هو نوع من أنواع السب، والنبي ﷺ قد نهى عن سب الصحابة نهيًا عامًّا ومطلقًا.

مما سبق يتبين أن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم، وثناء الله ﷻ عليهم، وثناء رسول الله ﷺ عليهم، فليسوا بحاجة إلى تعديل أحد من الخلق بعد ذلك.

بعد بيان دلالة القرآن والسنة على عدالة الصحابة أبين اتفاق السلف على عدالة الصحابة؛ فأقول: مسألة عدالة الصحابة هي مسألة من المسائل التي اتفق عليها

السلف، قال الإمام ابن عبد البر -رحمه الله-: ولا فرق بين أن يسمي التابع الصاحب الذي حدثه أو لا يسميه في وجوب العمل بحديثه؛ لأن الصحابة كلهم عدول مرضيون ثقات أثبات، وهذا أمر مجتمع عليه عند أهل العلم بالحديث.

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله-: فالصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة.

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: واتفق أهل السنة على أن الجميع عدول أي الصحابة، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة.

وفيما يلي أسوق قاعدة مباركة، وقانونًا حكيمًا، وفهمًا دقيقًا نتعلمه من شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن قول أهل السنة والجماعة بعدالة الصحابة لا يعني عصمتهم، لأن العصمة عندهم لا تكون إلا للرسل والأنبياء.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- هذه القاعدة؛ حيث قال: وهم مع ذلك -يقصد أهل السنة والجماعة- لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنهم يُغفر لهم من السيئات ما لا يُغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا مما بعدهم، ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب، فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة النبي ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلي ببلاء في الدنيا كُفِّر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور؟.

ثم القدر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليلٌ نذرٌ مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، وعلم يقينًا أنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى، وهنا انتهى كلام شيخ الإسلام -رحمه الله.

أقول: لله درك يا شيخ الإسلام، وطيب الله ثراك ويزيد الشيخ يحيى بن أبي بكر العامري -رحمه الله-، يزيد منهج أهل السنة وضوحًا وتأكيدًا وتقريرًا حيث يقول: "وينبغي لكل صينٍ متدين مسامحة الصحابة فيما صدر بينهم من التشاجر، وينبغي الاعتذار عن مخطئهم وطلب المخارج الحسنة لهم، وتسليم صحة إجماع ما أجمعوا عليه على ما علموه، فهم أعلم بالحال والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، وطريقة العارفين الاعتذار عن المعايب، وطريقة المنافقين تتبع المسالب.

وإذا كان اللازم من طريقة الدين ستر عورات المسلمين، فكيف الظن بصحابة خاتم النبيين؟ مع اعتبار قوله ﷺ: ((ولا تسبوا أحدًا من أصحابي))، وقوله ﷺ: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)). هذه طريقة صلحاء السلف وما سواها مهاوٍ وتلف.

اتفق أهل العلم على أن الصحابة هم خير الناس بعد الأنبياء، فقد جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: ((خير الناس قرني))، وقد جعل الله بقاء الصحابة آمنة للأمة، فإذا ذهب قرنهم وانقرض جيلهم حلت بمن بعدهم الفتن، وظهرت البدع وفشا الجور والفساد.

فعن أبي بردة عن أبيه قال: ((صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: ما زلتم هاهنا،

قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: أحسنتم أو أصبتم، قال: فرفع رأسه إلى السماء -وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء- فقال: النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون)).

أقول في التعليق على هذا الحديث الجليل: هذا الحديث دليل على فضل الصحابة، ودليل على عظيم ما دفع الله بهم من البدع الفتن والجور والفساد، فلا جرم أن جعلهم الله وزراء نبيه وحزب خليله ﷺ.

وعن عبد الله بن مسعود > قال: من كان منكم متأسيًا -أي: مقتديًا- فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا وأحسنها حالًا، هم قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم.

وقال الإمام الأصبهاني -رحمه الله- عن الصحابة: "سمحت نفوسهم { بالنفس والمال والولد والأهل والدار، ففارقوا الأوطان وهاجروا الإخوان، وقتلوا الآباء والإخوان وبذلوا النفوس صابرين، وأنفقوا الأموال محتسبين، وناصبوا من ناوأهم متوكلين، فآثروا رضاء الله على الغناء، وآثروا الذل على العز وآثروا الغربة على الوطن هم المهاجرون الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ حقًّا، ثم إخوانهم من الأنصار أهل المواساة والإيثار أعزوا قبائل العرب جارًا، واتخذ الرسول ﷺ دارهم أمنًا وقرارًا هم الأعفاء، وهم الأصدقاء.

قال فيهم ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

فمن انطوت سريرته على محبتهم، ودان لله تعالى بتفضيلهم ومودتهم، وتبرأ ممن أضمر بغضهم، فهو الفائز بالمدح الذي مدحهم الله تعالى به، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فالصحابة } هم الذين تولى الله شرح صدورهم، فأنزل السكينة على قلوبهم وبشرهم برضوانه ورحمته فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ [التوبة: ٢١]، جعلهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله ورسوله، خير الأمم أمته، وخير القرون قرنه، رفع الله من أقدارهم؛ إذ أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم لما علم من صدقهم، وصحة إيمانهم، وخالص مودتهم، ووفور عقلهم، ونبالة رأيهم، وكمال نصيحتهم } .

بعد نقل هذا الكلام نقول: توقير الصحابة والاعتراف بفضلهم ومكانتهم هو محل اتفاق من أهل السنة، فلا كان ولا يكون مثل الصحابة } في إمامتهم وفضلهم وسبقهم، وعلو مقامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعلم والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فالمؤمن يحفظ ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، ولا يكون في قلبه غل على أحد من الصحابة } .

عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن (٣)

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول : النهي عن الخوض في الصحابة والطعن فيهم ٣٨٧

العنـــصر الثـــاني : صحف الشيعة التي يعطونها التقديس ٣٩٣

العنـــصر الثالـــث : عقيدة الشيعة الإمامية في كتاب الله بهمسة ختامية لدعاة التقريب ٤٠٤

النهي عن الخوض في الصحابة والطعن فيهم

يا ويل من تعرض للصحابة بسوء، وأوقد نار الفتنة وجرأ السفهاء والغوغاء على الوقيعة في الصحابة } ، وقد قال النبي ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)).

وكان سيدنا ابن عمر } يقول: "لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره".

وقد أنكر الإمام أحمد -رحمه الله- على من جمع الأخبار، التي فيها طعن على بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وغضب لذلك غضبًا شديدًا، وقال: لو لكان هذا في أثناء الناس لأنكرته، أي: لو كان هذا في عوام الناس لأنكرته، فكيف في أصحاب رسول الله ﷺ.

قال الإمام مالك -رحمه الله- في الذين يقدحون في الصحابة، إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ، فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه، حتى يقال: رجل سوء ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين، وهذا القول من الإمام مالك -رحمه الله- منطلق من نظرته البعيدة إلى أبعاد الخبر، فليس الأمر قدحًا في الصحابة فقط، بل إن هذا يجر إلى ما هو أخطر، وبهذا المنظار انطلق شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عندما قال: "الطعن فيهم -أي الطعن في الصحابة- طعن في الدين".

وقد أكد الإمام أبو زرعة -رحمه الله- على هذا التصور بقوله: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ

وإنما يريدون -أي المنتقصين- إنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ؛ ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

والمنقول عن أهل العلم في هذا الباب كثير، إلا أن الباحث تتملكه الدهشة ، ويأسره الإعجاب عندما يقف على رد فعل الصحابة { تجاه الطعن فيهم ، حيث إن لهم فهمًا ساميًا ، وحسابات عجيبة يفصح عنها الأثر التالي :

فعن رزين عن جابر بن عبد الله { قال : قيل لعائشة > : إن ناسًا يتناولون أصحاب النبي ﷺ حتى أبا بكر وعمر ، فقالت : وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل فأحب الله ألا ينقطع عنهم الأجر.

لله درك يا أم المؤمنين مقاييس سامية تدل على أن أصحابها ليسو بشرًا عاديين ، ولم العجب أليسوا خير البشر بعد الأنبياء والمرسلين ، ولكن إذا وقف الباحث مع بعض المرويات التي تشتمل على طعن في الصحابة ، فكيف يكون موقفه من هذه المرويات؟ هذا ما سوف أبينه فيما يلي بحول الله وقوته ، فالله المستعان.

رد عام على المرويات التي تشتمل على طعن في الصحابة :

ما عليه عامة أهل السنة والجماعة أنه لا عصمة لأحد من الصحابة ، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ، ولكن لهم من السبق في الإسلام والجهاد مع رسول الله ﷺ ، ونشر العلم وتبليغه وطمس معالم الشرك ، وإذلال أهله والذب عن الحرمات بنفس زكية ، وروح عالية ما يكفر الله به سيئاتهم ويرفع درجاتهم.

أما ما جاء من الآثار المروية في مساوئهم فهي على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى: ما هو كذب محض لا يروى ، ولا يعرف إلا من رواية لوط بن يحيى الرافضي الكذاب ، أو سيف بن عمر التميمي وهو ليس بشيء عند أهل

الحديث، أو الواقدي المتروك أو غيرهم ممن لا يعتمد عليهم ولا على مروياتهم، وهم عمدة خصوم الصحابة } في نقل المثالب والوقائع الملفقة، ولم يكن أهل الحديث ونقاده، وجهابذة الجرح والتعديل يعتمدون على واحد منهم لعدم ضبطهم، ولكثرة كذبهم.

المرتبة الثانية: ما صح سنده وله محمل حسن، فيجب حمله عليه إحسانًا للظن بهم، فهم أحق الناس بهذا وأولاهم بحمل ألفاظهم وأفعالهم على أحسن مقصد، وعلى أنبل عمل. ومن أبت نفسه الخير، وحرم سلامة القصد، وجعل من المحتمل زلة، ومن الظن جرحًا فقد عظم ظلمه، وغلب جهله وناله من الحرمان ما نال أمثاله من مرضى القلوب.

المرتبة الثالثة: ما صدر عن محض الاجتهاد والشبهة والتأويل، كالوقائع التي كانت بينهم وغيرها من الأمور القولية والفعلية، فهذه أمور واردة عن اجتهاد وتأويل، فللمصيب فيها أجران وللمخطئ أجر واحد والخطأ مغفور.

فعن عمر بن العاص > أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصحاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر))، فمن أفتى أو حكم أو قضى، أو قال بخلاف الحق لشبهة قامت عنده، أو سنة لم تبلغه أو تأويل له وجهه، فإنه يثاب على هذا الاجتهاد.

وهذا الأصل مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، ولا أحسب أحدًا ينقب عن عثرات الصحابة، ويبحث لهم عن الزلات المبنية على الشبهات الواهية، إلا وقد رخص عليه دينه، وقد قرر ذلك الإمام أحمد -رحمه الله- حيث قال: إذا رأيت أحدًا يذكر أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام.

والمفترض ممن يدعي الإسلام والسنة محبة الصحابة ونصرتهم، والذب عنهم ونشر فضائلهم ومحاسنهم، والكف عن مساوئهم، والرد على أعدائهم من أعداء الملة وأتباع الشيطان.

ونختم بما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في هذا الصدد حيث قال: "من زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلًا أو أنهم فسقوا، فهذا لا ريب أيضًا في كفره، فإنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم، والثناء عليهم بل من يشك في كفر مثل هذا، فإن كفره متعين فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق، وأن هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس وخيرها، وهو القرن الأول كان عامتهم كفارًا أو فساقًا.

ومضمون هذه المقالة أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ولهذا تجد عامة من ظهر عنه شيء من هذه الأقوال، فإنه يتبين أنه زنديق وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم، وقد ظهرت لله فيهم مثلات. بعد نقل كلام شيخ الإسلام -رحمه الله- أبين خلاصة لما سبق من الكلام، فأقول:

لا بد أن نعتقد في أصحاب رسول الله ﷺ أمرين اثنين:

أولًا: أن أصحاب النبي ﷺ هم خير البشر بعد الأنبياء، وذلك بدلالة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

ثانيًا: لا بد أن نعلم أن أصحاب رسول الله ﷺ غير معصومين، ونعتقد كذلك أن إجماعهم معصوم؛ لأن النبي ﷺ ((أخبر أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة)) لحديث: ((إن الله تعالى قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة)) فهم معصومون من أن يجتمعوا على ضلالة، ولكنهم كأفراد غير معصومين.

وأختم الكلام على عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة، وأختم الكلام كذلك على ما سبقها من بيان عقيدة الشيعة الإمامية في الصحابة، أختم بهذه الفقرة المعنون لها بعنوان "أفلا يعقلون":

أقول فيها: قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] فليتأمل الطاعن في صحابة رسول الله ﷺ، وليتدبر هذه الآية قال الله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ فهم خيرة الناس وقد قام الرسول ﷺ بتربيتهم وتزكيتهم، فهل يعقل الطعن فيهم بعد ذلك.

تأمل قول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] وتأمل في الآية بعدها ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الجمعة: ٤]، نعم إن صحبة الرسول ﷺ نعمة كبرى، وفضل من الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾.

وبها فاز الصحابة } وسبقوا غيرهم، نعم إنه التلازم بين الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام الذين عاش بينهم ومعهم يفرح الرسول ﷺ بالجلوس معهم، ويأنس بهم وهم جنده ووزراؤه، وطلابه الذين أخذوا العلم عنه.

نعم إن الذين يحبون الرسول ﷺ وبه يقتدون، يعتقدون بأن الرسول أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وقام بما أمره الله به، ومن ذلك أنه بلغ أصحاب العلم وزكاهم، وهم الذين أخذوا القرآن والسنة من رسول الله ﷺ مباشرة، وعنهم أخذ التابعون والحكم بعدالتهم من الدين، ومن الشهادة بأن الرسول قد قام بما أمره الله به.

والطعن فيهم يعني الطعن في إمامهم وقائدهم ومعلمهم ﷺ أرأيتم لو أن رئيسًا أو رمزًا لبلد قد جاء من أتباعه من يزعم بأن هذا الزعيم قد أحاط به ناس من الانتهازيين والخونة، وهؤلاء الخونة هم أقرب الناس لهم، وهم خاصته وأهل مشورته، وبينه وبينهم نسب وصهر ورحم، وهم الذين حملوا فكره ونشروه.

ماذا نقول في عالم بذل كل جهده وعلمه في تعليم طلابه، الذين صحبوه وعاشوا معه في السراء والضراء، وتركوا الأهل والوطن والمال لأجل صحبته وملازمته، والأخذ عنه والتأسي به؟ ثم جاء الجيل الذي بعدهم وطعن في هؤلاء الطلاب، ماذا نقول في العالم الذي أخذوا عنه العلم، وبما يوصف من هؤلاء طلابه؟ هل العيب فيه أم العيب في الطلاب الذين تركوا أولادهم وأموالهم وديارهم لأجل صحبة المعلم، والأخذ عنه والتأسي به، أم العيب في الناقل الذي طعن في هؤلاء الطلاب، ولم يدر بخلده أن الطعن يشمل المعلم؟

تأمل إمام أهل التربية والتوجيه ﷺ وهو مع صحابته الذين عاشوا معه على السراء والضراء والحرب والسلم والرخاء والشدة، وعصفت معه بهم المحن، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهم معه لم يتخلوا عنه ولم يتركوه، أخذوا أقواله من فمه مباشرة، وعاشوا الدقائق والثواني بكنفه، لم يفرطوا في مجالسه بل يتسابقون إلى فضلة وضوئه.

وتولى المربي ﷺ تولى بنفسه توجيههم وتربيتهم، ينبه المخطئ إذا أخطأ، ويشكر المحسن إذا أحسن استفرغ جهده ووقته في تربيتهم، ولم يترك شيئًا فيه مصلحتهم إلا فعله وحثهم عليه، ولم يترك شيئًا فيه مضرة إلا حذرهم منه، هم بأمره يعملون وبه يقتدون، يشاهدون تصرفاته وأفعاله، ويسمعون أقواله وتوجيهاته.

أخذوا من المنبع الصافي من غير واسطة ولا كدر، فهل يعقل بعد ذلك وصف هؤلاء بأنهم نكصوا على أعقابهم إلا النادر منهم، أي أن الغالبية لم تنتفع بالتربية والتوجيه، وكل ذلك الجهد ذهب سدى.

قل لي بربك هل العيب في الإمام المربي، أم في الذين أخذوا عنه، أم العيب في الناقد الطاعن؟ تأمل في سيرة النبي ﷺ مع من قضاها من هم طلابه الذين أخذوا

العلم عنه؟ من هم جنده الذين حارب بهم أعداءه؟ من هم جلساؤه الذين كان يشاورهم؟ من هم الذين كان يأكل معهم ويشرب؟

من هم الذين كان يأنس بهم؟ من هم الذين كانوا يفرحون معه؟ من هم الذين يصلون خلفه ويستمعون مواعظه وخطبه؟ من هم الذين يزورهم ويزورونه؟ من هم الذين ينفقون أموالهم بين يديه؟ من هم الذين يبذلون أرواحهم رخيصة بين يديه؟ من هم الذين نقلوا القرآن عنه؟ من هم الذين تحملوا الرسالة وبلغوها عنه؟ هل يعقل الطعن فيهم بعد كل ذلك، فالحمد لله الذي من علينا بحبهم والحمد لله الذين من علينا ببغض من يبغضهم.

وأختم هذا المقام بالإقرار بأنني أحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا والحسن والحسين، وأمهما فاطمة > وأمهات المؤمنين وسائر الصحابة { وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم وبعد.

صحف الشيعة التي يعطونها التقديس

فإذا كان ما سبق يكشف لنا صورة واضحة لعقيدة الشيعة الإمامية في القرآن، وإذا كان ما سبق يكشف لنا عن أسباب هذه العقيدة عندهم، فهل عند الشيعة الإمامية كتب أو صحف أخرى يعطونها صفة التقديس، التي نزعوها من القرآن؟

الإجابة على هذا السؤال ستكون هي موضوع حديثنا فيما يلي، فالله المستعان.

هل عند الشيعة الإمامية كتب أو صحف يعطونها صفة التقديس؟

الإجابة: نعم يوجد لدى الشيعة الإمامية صحف يعطونها صفة التقديس، والمصادر الشيعية الإمامية تورد في هذا الصدد ما يلي:

أولًا: مصحف علي < :

لقد أكثر القوم من الحديث عن مصحف الإمام علي، ذلك المصحف المزعوم، والذي يحتوي كما يزعمون على زيادات في كتاب الله، وقد اهتم بإشاعة هذه الفرية إمامهم الكليني ثقة دينهم، وذلك في كتابه (الكافي)، وعقد لذلك بابًا خاصًّا بعنوان باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة - عليهم السلام.

وذكر فيه ست روايات منها ما رواه عن جابر الجعفي أنه سمع أبا جعفر يقول: ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله، كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما أنزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده.

التعليق على هذه الرواية:

نلاحظ أن هذه الرواية رواها جابر الجعفي، وهو كذاب عند أهل السنة كما أن كتب الشيعة اعترفت بأنه ليس على صلة معروفة بأبي جعفر، فهذه الرواية من أكاذيبه، وتلقفها الكليني الذي يعمل على إشاعة هذا الكفر، وإذا كان لم يجمع القرآن إلا علي، فأين ما جمعه؟ أليس هذا سؤالا منطقيًّا؟

وإذا كان قد جمعه الإمام علي، فما الحاجة لجمع الأئمة من بعده؟ إلا إذا كانوا يرون أنهم قد شاركوا أيضًا في هذا الجمع مع أنهم لم يولدوا بعد، ولماذا لم ير هذا الكتاب المجموع ولم يعرفه أحد من المسلمين؟ وكيف يصدق مثل هذا الإفك الذي نقله شرذمة من الكذابين، وينكر إجماع الصحابة بما فيهم الإمام علي على العمل بهذا القرآن، وتحكيمه؟

إنها خرافات لا يصدقها عقل بريء من الهوى والغرض، ولا تدخل قلبًا خالطته بشاشة الإيمان، ولا شك بأن أمير المؤمنين علي ما كان يقرأ ويحكم إلا بالمصحف

الذي أجمع عليه الصحابة؛ ولهذا أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح من طريق سويد بن غفلة، قال: قال علي > : "لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا".

ويلاحظ أن من بين القراء المشهورين من يرجع سند قراءته إلى أئمة أهل البيت؛ ولهذا استدل الدكتور عبد الصبور شاهين على زيف ادعاءات الشيعة بأن من بين القراء السبعة المشهورين حمزة الزيات، وسند قراءته هو حمزة الزيات عن جعفر الصادق، وهو قرأ على محمد الباقر، وهو قرأ على زين العابدين، وهو قرأ على أبيه الحسين، وهو قرأ على أبيه علي بن أبي طالب > .

فهؤلاء الأبرار من آل البيت لم يخرجوا على إجماع المسلمين على المصحف الإمام، وآية رضاهم به إقراؤهم الناس بمحتواه، دون زيادة أو نقص أو ادعاء يمس كمال كتاب الله -سبحانه.

وفيما يلي أنقل بعض الإقرارات من كتب الشيعة الإمامية، يقول المجلسي شيخ الشيعة: والقراء السبعة إلى قراءته يرجعون أي: إلى قراءة الإمام علي يرجعون، هذا كلام من؟ هذا كلام المجلسي شيخ من شيوخ الشيعة يقول: والقراء السبعة إلى قراءته يرجعون، فأما حمزة والكسائي فيعولان على قراءة علي، وأما نافع وابن كثير وأبو عمرو، فمعظم قراءاتهم ترجع إلى ابن عباس.

وابن عباس قرأ على أبي بن كعب وعلى علي، والذي قرأه هؤلاء القراء يخالف قراءة أُبي، فهو إذن مأخوذ عن علي # وأما عاصم فقرأه -أي قرأ القرآن- قرأه على أبي عبد الرحمن السلمي، وقال أبو عبد الرحمن: قرأت القرآن كله على علي بن أبي طالب > فقالوا: أفصح القراءات قراءة عاصم؛ لأنه أتى بالأصل وذلك أنه يظهر ما أدغمه غيره، ويحقق من الهمز ما لينه غيره، والعدد

الكوفي في القرآن منسوب إلى علي > وليس في الصحابة من ينسب إليه العدد غيره.

وفي نقل آخر من كتب الشيعة الإمامية يعترفون بقول الإمام علي > الذي قال فيه: "أيها الناس الله إياكم والغلو في أمر عثمان، وقولكم: حراق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ بعد اعترافهم بهذا النقل" وبهذا الكلام عن الإمام علي > نقول: أليس هذا كله ينقض كل ما ادعوه ويهدم كل ما بنوه؟! وهو دليل على اختلاف أخبارهم وتناقضها والتناقض أمارة بطلان المذهب، ولا بد أن نبين أن عامة ما يروى عن الإمام علي > هو الكذب.

بعد معرفة تلك التناقضات والاضطرابات والإقرارات، يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن الادعاء بوجود مصحف خاص للإمام علي هي دعوى لا أساس لها من الصحة، وها هو الإمام البخاري -رحمه الله- قد روى عن ابن سيرين، عن عبيدة عن علي > قال: اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف حتى يكون للناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي.

فكان ابن سيرين يرى أن عامة ما يروى عن علي الكذب، وفيما يلي أسوق شهادة مفحمة ترد على دعاوى الشيعة الإمامية في مصحف الإمام علي، الذي يزعمونه إنها شهادة ابن عباس وابن الحنفية في هذه القضية، فلقد ترجم الإمام البخاري -رحمه الله- باب من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين، للرد على من زعم أن كثيرًا من القرآن ذهب بذهاب حملته.

وأورد الإمام البخاري -رحمه الله- في هذا الباب عن عبد العزيز، قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس } فقال له شداد بن معقل: أترك النبي ﷺ من

شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين، قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه، فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين.

وقد علق على ذلك الحافظ ابن حجر -رحمه الله- قائلًا: "وهو شيء اختلقه الروافض؛ لتصحيح دعواهم أن التنصيص على إمامة علي، واستحقاقه الخلافة عند موت النبي ﷺ كان ثابتًا، أي كان ثابتًا في القرآن، وأن الصحابة كتموه وهي دعوى باطلة؛ لأنهم لم يكتموا: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى))، وغيرها من الظواهر التي قد يتمسك بها من يدعي إمامته.

كما لم يكتموا { ما يعارض ذلك، أو يخصص عمومه أو يقيد مطلقه، وقد تلطف المصنف في الاستدلال على الرافضة بما أخرجه عن أحد أئمتهم، الذين يدعون إمامته، وهو محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب، فلو كان هناك شيء ما يتعلق بأبيه لكان هو أحق الناس بالاطلاع عليه.

وكذلك ابن عباس فإنه ابن عم علي > وهو أشد الناس له ملازمةً واطلاعًا على حاله" وهنا انتهى كلام الحافظ ابن حجر، وهو كلام في غاية المنطقية وفي غاية المعقولية.

وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يؤكد على كل الحقائق السابقة، وينسج على ضوئها قاعدة عامة؛ إذ يقرر اشتهار الشيعة بالكذب، فيقول: والقوم من أكذب الناس في النقليات، ومن أجهل الناس في العقليات؛ ولهذا كانوا عند العلماء أجهل الطوائف، وقد أُدْخِل منهم على الدين من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، والنصيرية والإسماعيلية والباطنية من بابهم دخلوا، والكفار والمرتدة بطريقتهم وصلوا.

وفيما يلي أبين بعض الإلزامات العقلية المحرجة للشيعة الإمامية، نقول: لماذا لم يخرج الإمام علي القرآن الذي معه، وإذا كان يخشى من الصحابة؛ لأن السلطة

بأيديهم كما يزعمون، فلماذا لم يخرجه أيام خلافته؟ ألم يكن وليًّا لأمر المسلمين؟ ألم يكن أميرًا للمؤمنين؟ لماذا لم يخرج القرآن أثناء خلافته وولايته لأمر المسلمين؟ لماذا يتسبب في بقاء الأمة تائهة حائرة؟ ولماذا يتستر على خيانة الخائن، وتحريف المحرف؟ ومن المعلوم أن من أقر خائنًا على خيانته كان خائنًا مثله.

لم تجد هذه الزمرة ما تجيب به، إلا ما قالته على لسان عالمهم نعمة الله الجزائري: من أن الإمام علي فضل مجاملة من سبقه على هداية الأمة، وهذا أكثر تهافتًا؛ لأن المجاملة لا تكون للأموات بل تكون للأحياء، أضف إلى ذلك أنه طعن في كتاب الله، وهو من أبلغ القدح في سيدنا علي > ، وإذا كانت مجاملة علي تبلغ هذا المبلغ، فلماذا لم يقتد الشيعة بإمامهم؟ ولماذا لم يدعوا السب والطعن الذي سود صفحات المجلدات من كتبهم؟ فإما أن يكونوا كاذبين في اعتذارهم، أو مجانبين لخطى إمامهم، وما ندري أي الأمرين يطوح بهما أكثر من الآخر.

تقول روايات الإمامية: إن الأئمة يملكون من وسائل التبليغ ما لا يملكه حتى الأنبياء، فعلي بزعمهم هذا يملك قدرات خارقة، وكان بإمكانه بهذه القدرات أن ينشر القرآن الكامل.

فقد قال المجلسي في الباب الذي عقده بعنوان: باب جوامع معجزات علي > قال: إن عليًّا مر برجل يخبط هو هو، فقال: يا شاب لو قرأت القرآن لكان خيرًا لك، فقال: إني لا أحسنه ولوددت أن أحسن منه شيئًا، فقال -أي الإمام علي- فقال: ادن مني فدنا منه -أي اقترب منه ذلك الشاب- فتكلم بشيء خفي، فصور الله القرآن كله في قلبه فحفظه كله.

أقول معلقًا على هذه الرواية التي ذكرها المجلسي أقول: فعلي > يستطيع إبلاغ القرآن بهذه الطريقة السحرية إلى كل من يريد، ويستطيع أن يتخذ كل التدابير

الكفيلة بمنع أي محاولة تنال منه؛ لأنه كما تقول أبواب (الكافي): يعلم ما كان وما يكون ولا يخفى عليه شيء، هكذا يزعمون في الإمام علي

كما أن الوصول إلى قتله بغير رضاه واختياره أمر ممتنع؛ لأن الأئمة كما تقول أبواب (الكافي) أيضًا: يعلمون متى يموتون ولا يموتون إلا باختيارهم، إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يبلغ سيدنا علي القرآن الخاص به، بالرغم من امتلاكه لكل هذه القدرات الخارقة.

جاء في بعض رواياتهم أن أمير المؤمنين قال: لو ثني لي الوسادة، وعرف لي حقي لأخرجت لهم مصحفًا كتبته، وأملاه علي رسول الله ﷺ ونقف عند قوله: لو ثني لي الوسادة، هذه الجملة كناية عن توليه الحكم، كما قرر ذلك المجلسي.

نقول: إن عليًّا قد تولى الخلافة بعد ذلك، وثنيت له الوسادة، فلماذا لم يخرج القرآن الخاص به؟ والعجيب أننا نجد هذه الطائفة التي نقلت هذا الكفر، قد نقلت أيضًا ما يثبت خلافه، فقد روى ابن طاوس وهو من كبار شيوخ الشيعة الإمامية، روى أن عثمان جمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب، هذا الكلام وارد في كتاب (تاريخ القرآن) للزنجاني وهو مصدر معتمد من مصادر الشيعة الإمامية.

روى ابن طاوس أن عثمان جمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب، أقول: هذه الرواية تنقض ما افتراه الشيعة الإمامية عبر القرون؛ لأنه يتفق مع إجماع الأمة وهو اعتراف منهم وإقرار، واعتراف المخالف أشد وقعًا في النفس من اعتراف الموافق.

الخلاصة: دعوى وجود مصحف خاص بالإمام علي هي دعوى باطلة؛ إذ لو كان لأمير المؤمنين مصحف لأخرجه للمسلمين، ولم يسعه كتمانه وإذا لم يستطع ذلك في خلافة من سبقه، فإنه يستطيع إخراجه إبان خلافته، وكتمان ذلك كفر وضلال، فمن ألصق ذلك بأمير المؤمنين، فهو ليس من شيعته بل من عدوه؛ لأنه يدعي أن أمير المؤمنين قد كتم الحق، ويدعي أن أمير المؤمنين قد حل به الخوف والجبن؛ بالرغم من أنه أسد من أسود الله، وأسود رسوله ﷺ.

وكتمان أصل الدين خروج عن الإسلام، ولو لم يستطع الإمام علي إخراج القرآن الذي جمعه لأخرجه الحسن إبان خلافته، ولكن الذي يشهد به الجميع حتى الروافض أن عليًّا لم يقرأ في صلاته، ويحكم في خلافته إلا بهذا القرآن، وهذا يبطل كل دعاوى الروافض الذين أقض مضاجعهم، وأرق عيونهم وفض جمعهم، وشتت أمرهم خلو القرآن مما يثبت شذوذهم، فادعوا قرآنًا غائبًا لّما لم يجدوا في كتاب المسلمين ضالتهم، كما ادعوا إمامًا غائبًا لما مات إمامهم من غير عقب.

وإذا كان لأمير المؤمنين مصحف، فهذا أمر طبعي لا يدل على ما يذهب إليه القائلون بالتحريف، فهو كبعض الصحابة الذين اتخذوا لأنفسهم مصاحف خاصة كتبوها لأنفسهم، ولكنها لا تصل أبدًا إلى مستوى المصحف الإمام، الذي كتبه كتبة الوحي بإشراف الرسول ﷺ.

وإذا كان لعلي -كما يدعون- مصحف يخالف المصحف الإمام، فما يخالف المصحف الذي أجمع عليه المسلمون لا اعتداد به؛ لأن الإجماع معصوم؛ ولأن العبرة بما أجمع عليه أهل الإسلام، مع أن أمير المؤمنين كان على رأس المجمعين، وثناؤه على أبي بكر وعثمان في ذلك مشهور ومعلوم.

قال الإمام الباقلاني -رحمه الله- : فإن قالوا: فإنما لم يغير ذلك ولم ينكره لأجل التقية قيل لهم: ومن كان أقوى منه جانبًا وهو في بني هاشم مع عظم قدره وشجاعته، وامتناع جانبه هذا غاية الامتناع والباطل، ثم أشار الإمام الباقلاني -رحمه الله- إلى تناقض الروافض، حيث إن مقالتهم هذه في الإمام علي تنقض ما يزعمونه من شجاعته < وصدعه بالحق وعدم سكوته عن باطل.

وذكر بأن واقع أمير المؤمنين في خلافته ينفي مجرد تصور التَّقِية في هذا الباب، يقول: فأي تقية بعد أن شهر سيفه وقاتل بصفين، وأي تقية بعد أن نصب الحرب بينه وبين مخالفيه فيما هو دون تغيير القرآن وتحريفه، هذا مما يعلم بطلانه ويقطع باستحالته.

ومن الطريف في هذا الأمر أن الذي يخطئ أبا بكر وعثمان إنما يخطئ عليًّا وجميع الصحابة؛ لأن الحقيقة التي يتفق عليها المسلمون أن أمير المؤمنين عثمان جمع القرآن بموافقة الصحابة جميعًا، ولو حدث هذا الذي تقوله الشيعة الإمامية، لما جاز لأحد السكوت على تغيير أصل الإسلام وأساسه، ولضل الجميع بسبب ذلك بما فيهم الإمام علي < .

والبراهين المتفق عليها، والتي لا يختلف فيها اثنان أن الصحابة لم يسكتوا على ما هو أقل من ذلك، لقد قاتلوا من منع الزكاة، وقاتل علي معاوية على أقل من هذا الأمر العظيم والشأن الخطير، ولو حصل الذي تقوله الرافضة؛ لتناقله أعداء الإسلام الذين يتربصون بأمة الإسلام الدوائر، ولم تنفرد بنقله طائفة الروافض.

وما أبدع ما قرره الجاحظ في هذا الصدد حيث قال: والذي يخطئ عثمان في ذلك، فقد خطأ عليًّا وعبد الرحمن وسعدًا والزبير وطلحة وعِلية الصحابة، ولو

لم يكن ذلك -أي جمع الناس على المصحف الإمام- ، ولو لم يكن ذلك رأي علي لغيّره، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه، ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه، وكان لا أقل من إظهار الحجة إن لم يملك تحويل الأمة، وكان لا أقل من التجربة إن لم يكن من النجاح على ثقة، بل لم يكن لعثمان في ذلك ما لم يكن لجميع الصحابة، وأهل القدم والقدوة.

ومع أن الوجه فيما صنعوا واضح، بل لا نجد لما صنعوا وجهًا غير الإصابة والاحتياط والإشفاق، والنظر في العواقب وحسب طعن الطاعن، ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضًا، لما اجتمع عليه أول الأمة وآخرها، وإن أمرًا اجتمعت عليه المعتزلة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب، وواضح البرهان مع اختلاف أهوائهم.

فإن قال قائل: هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره وتطعن فيه وترى تغييره، قلنا: إن الروافض ليست منا بسبيل؛ لأن من كان أذانه غير أذاننا وصلاته غير صلاتنا، وطلاقه غير طلاقنا، وعتقه غير عتقنا، وحجته غير حجتنا، وفقهاؤه غير فقهائنا، وإمامه غير إمامنا، وقراءته غير قراءتنا، وحلاله غير حلالنا، وحرامه غير حرامنا، فلا نحن منه ولا هو منا.

ما أبدع ما قاله الجاحظ في هذا الصدد، وبذلك نكون قد أنهينا بحمد الله وفضله، ومنه الكلام على ما يزعمونه من مصحف الإمام علي.

ثانيًا: مصحف فاطمة:

يزعم الشيعة بأنه قد دون في هذا المصحف دون فيه علم ما يكون مما سمعته الزهراء -عليها السلام- من حديث الملائكة بعد وفاة أبيها ﷺ وذلك تسكينًا لها

على حزنها لفقد أبيها ﷺ، وتدعي كتب الشيعة نزول مصحف على فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

فقد جاء في (الكافي) عن مصحف فاطمة: إن الله تعالى لما قبض نبيه ﷺ دخل على فاطمة -عليها السلام- من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله ﷻ فأرسل الله إليها ملكًا يسلي غمها ويحدثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين > فقال: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك فجعل أمير المؤمنين يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفًا، أما أنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون.

هذه هي الرواية التي لا بد لنا عليها من تعليق، نقول: تفيد هذه الرواية بأن الغرض من هذا المصحف أمر يخص فاطمة وحدها، وهو تسليتها وتعزيتها بعد وفاة أبيها ﷺ، وتفيد الرواية أن موضوع هذا المصحف هو علم ما يكون، ولا أدري كيف يكون تعزيتها بإخبارها بعلم ما يكون، أي بعلم ما سيقع في المستقبل بالرغم من أن فيه قتل أبنائها وأحفادها، وملاحقة المحن لأهل البيت.

أليس كل ذلك مما سيكون؟ أيكون كل ذلك تسلية وتعزية للسيدة فاطمة > بعد وفاة أبيها؟ هل يقول بذلك عاقل؟ ثم كيف تعطى فاطمة علم ما يكون الذي هو علم الغيب، بالرغم من أن رسول الله ﷺ لا يعلم الغيب، ويخبر عن نفسه قائلًا، كما جاء في القرآن: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وهنا نتساءل: هل فاطمة أفضل عند الله من رسول الله ﷺ؟ أيقبل ألا يعلم النبي ﷺ الغيب، ثم تعطى فاطمة علم الغيب؟!.

وبذلك نكون بحمد الله وفضله ومنه قد أنهينا الكلام على ما يسمى بمصحف فاطمة > .

كانت هذه هي أبرز الكتب، أو الصحف التي يعطيها الشيعة الإمامية صفة التقديس.

عقيدة الشيعة الإمامية في كتاب الله بهمسة ختامية لدعاة التقريب

وأختم الكلام على عقيدة الشيعة الإمامية في كتاب الله بهمسة ختامية لدعاة التقريب:

أقول: هناك علماء أفاضل وشيوخ نبلاء لا يشك أحد في صدقهم وإخلاصهم للدين، ودفاعهم الغيور عن الإسلام، إلا أنهم أحسنوا الظن ببعض الدعوات الخبيثة، ودفعهم حبهم للإسلام لمحاولة التقريب بين أهل السنة والشيعة، معتقدين أن ذلك قد يخدم الدعوة، ويقرب وجهات النظر.

وفي هذا المقام أقول للمخدوعين بفكرة التقريب: إن الشيعة الإمامية لا يزالون مصرين على ما في كتبهم من ذلك الطعن الجارح، والتصوير المكذوب لما كان بين الصحابة من خلاف، كأن المقصود من دعوة التقريب هي تقريب أهل السنة إلى مذهب الشيعة.

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار: أن كل بحث علمي في تاريخ السنة، أو المذاهب الإسلامية مما لا يتفق مع وجهة نظر الشيعة، يقيم بعض علمائهم النكير على من يبحث فيه، ويتسترون وراء التقريب، ويتهمون صاحب البحث بأنه متعصب معرقل لجهود المصلحين في التقريب، أما كتبهم التي تطعن في القرآن والصحابة، فلا يراها أولئك عملًا معرقلًا لجهود الساعين إلى التقريب.

وهنا يحق لنا أن نتساءل متعجبين: كيف يمكن التقريب مع من يطعن في كتاب الله، ويفسره على غير تأويله، ويزعم نزول كتب إلهية على أئمته بعد القرآن

الكريم، ويرى الإمامة نبوة والأئمة عنده كالأنبياء أو أفضل، ويكفر خيار صحابة رسول الله ﷺ ويحكم بردة جميع الصحابة إلا عددًا قليلًا؟

أقول لدعاة التقريب: إن الشيعة الإمامية من أجل التقية والخداع يكتبون ويقولون ما لا يعتقدون أصلًا، فاحذروا من الكتب الدعائية للشيعة، التي تظهر ما لا يبطنه مذهب الشيعة الإمامية الحقيقي، وبسبب هذه العقيدة الخبيثة وقع من وقع من أهل السنة، وصدق كلام الشيعة الإمامية، إن القوم ماضون بموجب مخطط مدروس، ومنظم في نشر المذهب الشيعي الإثنى عشري بين عوام أهل السنة.

فبدلًا من أن تعملوا على إنقاذ إخوانكم المسلمين، والوقوف أمام هذا النشاط المذهبي الإمامي، نجدكم على العكس فليتكم وقفتم موقف المتفرج، بدلًا من المساهمة في الترويج للمذهب الإمامي بدون قصد، هل تعلمون أن الشيعة يقومون باستقدام الكثيرين من أبناء أهل السنة، الذين لا علم لهم بالدين، ويرسلونهم إلى جامعات شيعية متخصصة في تغيير مذهبهم؟ ومن ثم إرجاعهم إلى بلادهم دعاة للتشيع.

هل يعلم دعاة التقريب أن الإمامية يعتقدون أن الناصبي -أي السني- أشد كفرًا من النصراني واليهودي؛ ولذلك يرى أئمتهم جواز الصدقة على الذمي، وعدم جوازها على السني.

يقول آيتهم الخميني: ويعتبر في المتصدق عليه في الصدقة المندوبة الفقر لا الإيمان والإسلام، فتجوز على الذمي والمخالف وإن كانا أجنبيين، ولا تجوز على الناصب أي على السني، ولا على الحربي وإن كانا قريبين.

ينبغي أن نعلم أن التنازل والتقريب لا يرضي هؤلاء، ولا ينفع الدعوة وإنما يضر بالإيمان، ويحلق الدين بعد ذلك كله ألا يكون من العيب أن تنطلي علينا حيل

هؤلاء الروافض، ودموع التماسيح التي يذرفونها على وحدة المسلمين، ولمّ الشمل ومواجهة العدو المشترك إن ما يحتاجه المسلمون اليوم هو وضوح الرؤيا، ومعرفة الغث من السمين، ومعرفة أعدائهم الذين يتسترون بالإسلام؛ وذلك لأن العدو الخفي أشد خبثًا وخطرًا من العدو الظاهر.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

وأختم هذه الهمسة بتقديم الدليل على استحالة التقريب بين أهل السنة والشيعة الإمامية:

واللطيف في الأمر أنني سأقدم هذا الدليل من كلام الروافض لا من كلام أهل السنة، قال الرافضي نعمة الله الجزائري: إننا لم نجتمع معهم أي: لم نجتمع مع أهل السنة، يقول: إننا لم نجتمع معهم على الله ولا على نبي، ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمدًا نبيه، وخليفته بعده أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبي إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا.

هذا هو اعتراف الروافض باستحالة التقريب بينهم، وبين أهل السنة، فهل نحتاج إلى برهان أوضح من ذلك للتدليل على زيف فكرة التقريب، إذا كان هناك من علماء الشيعة الإمامية من يقول: بأن القرآن محفوظ غير محرف، وكانوا صادقين في ذلك، فيجب عليهم ما يلي:

أولًا: عليهم ألا يروجوا للروايات الدالة على التحريف في مجالسهم وكتبهم، بل عليهم أن يتبرءوا من أصحابها، ويخطئوا آلاف الكتب التي وردت فيها مثل هذه الأكاذيب والضلالات، كـ(أصول الكافي) و(فصل الخطاب).

ثانيًا: عليهم أن يسقطوا روايات القائلين بالتحريف؛ لأنهم ليسوا ثقات.

ثالثًا: عليهم أن يدونوا المصنفات في إثبات صحة القرآن وعدم تحريفه، وأن يقوموا بالرد على علمائهم القائلين بالتحريف، ويدرسوا هذا في معاهدهم وحوزاتهم الدينية.

رابعًا: أن يعدموا كل كتبهم ومؤلفاتهم القائلة بالتحريف.

وبذلك نكون قد انتهينا بحمد الله وفضله ومنه من الكلام على عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن، فلله الحمد والمنة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والله ولي التوفيق.

قائمة المراجع العامة

١. (**الإتقان في علوم القرآن**)

جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م

٢. (**البرهان في علوم القرآن**)

بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، نشر دار المعرفة، ٢٠٠١م

٣. (**الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف**)

يوسف أحمد نصر الدجوي، القاهرة، مطبعة القاهرة، ١٩٦٩م

٤. (**أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشرين والملحدين**)

محمد شوقي عبد الرحمن الجزيري، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ

٥. (**المصاحف**)

ابن أبي داود، تحقيق: محب الدين واعظ، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢م

٦. (**نكت الانتصار لنقل القرآن**)

القاضي أبي بكر محمد الباقلاني، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧١م

٧. (**مناهل العرفان في علوم القرآن**)

محمد عبد العظيم الزرقاني، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م

٨. (**المدخل لدراسة القرآن الكريم**)

محمد بن محمد أبو شهبة، الرياض، نشر دار اللواء، ١٩٨٧م

٩. (الفصل في الملل والأهواء والنحل)

أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٥هـ

١٠.(المعجزة الكبرى القرآن)

محمد أبو زهرة، دار طيب للنشر، ٢٠٠٣م

١١. (دعاوى تحريف القرآن الكريم)

حاتم محمد منصور مزروعة، طبعة جامعة الأزهر، ٢٠٠٧م

١٢. (إعجاز القرآن)

أبو بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق: عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٩١م

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2009